

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الخامس

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية

١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي

قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله أجمعين

(٥٨)

الأصل :

وقال عليه السلام لما عزم على حرب الخوارج ، وقيل له : إنّ القوم قد عبروا جسر النّهْروان :

مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ ؛ وَاللهِ لَا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ ، وَلَا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ .

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

يَعْنِي بالنُّطْفَةِ ماء النّهْر ، وهِيَ أفصَحُ كناية عنِ الماء وإنْ كانَ كثيراً جمّا ، وَقَدْ أشرنا إلى ذلِكَ فيما تَقَدّمَ عِنْدَ مُضِيّ ما أشْبَهَهُ .

* * *

الشرح :

هذا الخبرُ من الأخبار التي تكاد تكون متواترة ؛ لاشتهاره ونقل الناس كافّة له ؛ وهو من معجزاته وأخباره المفصّلة عن الغيوب .

والأخبار على قسمين :

أحدُهما : الأخبار المجملة ، ولا إعجازَ فيها : نحو أن يقولَ الرجلُ لأصحابه : إنكم

سَتُنْتَصرون على هذه الفئة التى تلقونها غدا : فإن نُصِر جعل ذلك حُجّة له عند أصحابه وسمّاها معجزة ، وإن لم يُنْصَر ، قال لهم : تغيّرتْ نِيّاتُكم وشككْتُمْ فى قولى ، فمنعكم الله نصره ؛ ونحو ذلك من القول : ولأنه قد جرت العادةُ أنّ الملوكَ والرؤساء يَعِدُون أصحابَهم بالظّفر والنّصر ، ويُمنّونهم الدُّوَل ، فلا يدلّ وقوعُ مايقع من ذلك على إخبار عن غَيْبٍ يتضمّن إعجازا .

والقسم الثانى : فى الأخبار المفصّلة عن الغيوب ، مثل هذا الخبر ، فإنه لايحتمل التلبيس، لتقييده بالعَدَد المعينّ فى أصحابه وفى الخوارج ، ووقوع الأمر بعد الحرب بموجِبه من غير زيادة ولا نقصان ، وذلك أمرٌ إلهىّ عرفه من جهة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعرّفه رسول الله صلى الله عليه وآله من جهة الله سبحانه . والقُوّة البشرية تقصُر عن إدراك مثل هذا ، ولقد كان له من هذا الباب مالم يكنْ لغيره .

وبمقتضى ماشاهد الناس من معجزاته وأحواله المنافية لقُوَى البشر ، غلاَ فيه مَنْ غلا ، حتى نُسِب إلى أنّ الجوهرَ الإلهىّ حلّ فى بدنه ، كما قالت النصارى فى عيسى عليه السلام ،وقد أخبره النبىّ صلى الله عليه وآله بذلك ، فقال: « يهلِك فيك رجلان: محبّ غالٍ ، ومُبغض قالٍ » . وقال له تارة أخرى : « والّذى نفسى بيده ، لولا أنّى أشفِق أن يقول طوائفُ من أمّتى فيك ماقالت النصارى فى ابن مريم ، لقلت اليوم فيك مقالا ، لاتمرّ بملأٍ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة » .

● ● ●

[ذكر الخبر عن ظهور الغلاة]

وأوّلُ مَنْ جَهَر بالغُلُوِّ في أيامه عبدُ الله بن سَبأ[1] ، قام إليه وهو يخطب ، فقال له : أنتَ أنتَ ! وجعل يكرِّرها ، فقال له : وَيْلَكَ ! مَنْ أنا ؟ فقال : أنت الله ؛ فأمر بأخذِه وأخذِ قومٍ كانوا معه على رأيه .

وروى أبو العباس أحمد بن عبيد الله ، عن عَمّار الثقفيّ ، عن عليّ بن محمد بن سليمان النوفليّ ، عن أبيه وعن غيره من مشيخته ؛ أنّ عليا قال : يهلِكُ فيّ رجلان: محبٌّ مُفْرِطٌ يضَعُني غير موضعي ويمدحُني بما ليس فيّ ، ومبغض مُفْتَرٍ يرميني بما أنا منه برىء » .

وقال أبو العباس : وهذا تأويل الحديث المرويّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله فيه ، وهو قوله : « إن فيكَ مَثَلًا من عيسى بن مريم ، أحبّته النصارى فرفعته فوق قَدْره ، وأبغضته اليهودُ حتّى بهتَتْ أمّه » .

قال أبو العباس : وقد كان عليّ عَثَر على قوم خرجوا من محبّتِه باستحواذ الشيطان عليهم ، إلى أنْ كَفرُوا بربِّهم ، وجحدوا ماجاء به نبيُّهم ، واتخذوه رَبًّا وإلهاً ، وقالوا : أنت خالقنا ورازقنا ، فاستتابَهُم وتوَعّدَهم ، فأقاموا على قولهم ، فحفر لهم حَفراً دخّن عليهم فيها طمعا في رجوعهم ، فأبوا ، فحرقهم بالنار ، وقال :

أَلَا تَرَوْن قَدْ حَفَرْتُ حَفَرا[2] ... إنى إذَا رأيتُ أمراً مُنْكَرَا

* وقدتُ نارِى وَدَعَوْتُ قَنْبَرَا *

---

(١) عبد الله بن سبأ : رأس الطائفة السبئية ؛ نقل ابن حجر عن ابن عساكر في تاريخه : « كان أصله من اليمن ؛ وكان يهوديا فأظهر الإسلام ؛ وطاف بالمسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة ؛ ويدخل بينهم الشر ؛ ودخل دمشق لذلك » . وانظر لسان الميزان ٣ : ٢٨٩ — ٢٩٠ .

(٢) الحفر ، بالسكون ويحرك : البئر الواسعة .

وروى أصحابنا في كتب المقالات أنه لما حرّقهم صاحوا إليه : الآن ظهر لنا ظهوراً بيّنا أنك أنت الإله ؛ لأنّ ابن عمك الذى أرسلته قال : « لا يعذّب بالنار إلا ربُّ النار » .

وروى أبو العباس ، عن محمد بن سليمان بن حبيب المِصّيصى[1] عن علىّ بن محمد النوفلىّ ، عن أبيه ومشيخته ، أنّ علياً مرّ بهم وهم يأكلون فى شهر رمضان نهارا ، فقال : أسفْر أم مرضى ؟ قالوا : ولا واحدة منهما ، قال : أفمِنْ أهل الكتاب أنتم ؟ قالوا : لا ، قال : فما بالُ الأكل فى شهر رمضان نهارا ! قالوا : أنت أنت ! لم يزيدوه على ذلك، ففهم مُرادَهم ، فنزل عن فرَسه ، فألصق خدّه بالتراب ، ثم قال : وَيْلَكم ! إنما أنا عبدٌ من عبيد الله ؛ فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام، فأبوْا ، فدعاهم مرارا ، فأقاموا على أمرهم، فنهض عنهم ، ثم قال : شُدُّوهم وَثاقا ، وعلىّ بالفعَلة والنار والحطب ، ثم أمَرَ بحفر بئرين ، فحفرتا ؛ فجعل إحداهما سَرَبا[2] ، والأخرى مكشوفة ، وألقى الحطَب فى المكشوفة ، وفتح بينهما فتحًا ، وألقى النار فى الحطب ، فدخّن عليهم ، وجعل يهتف بهم ، ويناشدهم : ارجعوا إلى الإسلام ، فأبوْا ، فأمر بالحطب والنار ، وألقى عليهم ، فاحترقوا ، فقال الشاعر :

لِتَرْمِ بِىَ المنيةُ حيثُ شاءتْ ... إذا لَمْ ترْمِ بى فى الحُفرتَيْنِ
إذا ما حَشّتَا حطباً بنـــارٍ[3] ... فذاكَ الموتُ نقْدًا غيْرَ دَيْنِ

قال : فلم يبرحْ واقفا عليهم حتى صاروا حُمَماً .

قال أبو العباس : ثم إن جماعة من أصحاب علىّ ؛ منهم عبد الله بن عباس ، شفَعوا فى عبد الله بن سَبَأ خاصة ، وقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنه قد تاب فاعفُ عنه، فأطلقه بعد أن اشترط عليه ألّا يقيمَ بالكوفة ، فقال : أين أذهب ؟ قال : المدائن ، فنفاه إلى المدائن ،

---

(١) المصيصى ، بكسر الميم والصاد المشددة وسكون الياء : منسوب إلى المصيصة : مدينة على ساحل البحر
(٢) السرب ، بفتحتين : الحفير تحت الأرض .
(٣) حش النار ؛ أى أوقدها .

فلما قُتِل أميرُ المؤمنين عليه السلام أظهر مقالته ، وصارت له طائفة وفِرْقة يصدّقونه ويتّبعونه . وقال لما بلغه قتلُ عليّ : واللهِ لو جئتمونا بدِماغه فى سبعين صُرّة ، لعلمنا أنّه لم يمت ، ولا يموت حتى يسوق العربَ بعصاه . فلما بلغ ابنَ عباس ذلك ، قال : لو علمنا أنه يرجع لما تزوّجْنا نساءه ، ولا قَسَمْنا ميراثه .

قال أصحاب المقالات : واجتمع إلى عبد الله بن سبأ بالمدائن جماعة على هذا القول ؛ منهم عبد الله بن صَبْرة الهمْدانيّ ، وعبد الله بن عَمرو بن حرب الكِنديّ ، وآخرون غيرهما ؛ وتفاقم أمرُهم .

وشاع بين الناس قولهم ، وصار لهم دعوة يدعُون إليها ، وشبهة يرجعون إليها ، وهى ما ظهر وشاع بين الناس ، من إخباره بالمغيّبات حالًا بعد حال ، فقالوا : إن ذلك لا يمكن أن يكون إلّا من الله تعالى ، أو ممّنْ حلّتْ ذاتُ الإله فى جسَدِه ، ولَعَمْرى إنه لا يقدر على ذلك إلا بإقدار الله تعالى إياه عليه ، ولكن لا يلزم من إقداره إياه عليه أن يكون هوَ الإله ، أو تكون ذات الإله حالّة فيه . وتعلق بعضهم بشبهة ضعيفة ، نحو قول عمر — وقد فقأ عليّ عينَ إنسان ألحدَ فى الحرم — : ما أقول فى يدِ الله ؛ فقأتْ عيناً فى حرم الله ! ونحو قول عليّ : والله ما قلعتُ بابَ خيبر بقوّة جسدانية ، بل بقوة إلهية ، ونحو قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا إله إلّا الله وحدَه ، صدق وعدَه ، ونصر عبدَه ، وهزم الأحزاب وحده » ، والذى هزم الأحزاب هو عليّ بن أبى طالب ، لأنه قتل بارعَهم[2] وفارسَهم عَمْراً لما اقتحموا الخندق ، فأصبحوا صبيحة تلك الليلة هاربين مفلولين ، من غير حربٍ سوى قتل فارسهم . وقد أومأ بعضُ شعراء الإمامية إلى هذه المقالة ، فجعلها من فضائله ، وذلك قوله :

إذا كُنتمُ ممن يرومُ لحــــاقَهُ فهلاّ برزتُمْ نَحْوَ عَمْرٍو وَمَرْحَبِ[1]

---

(١) عمرو بن ود ، ومرحب اليهودى ؛ قتل على أولهما يوم الخندق ، وثانيهما يوم خيبر ؛ وخبرهما مشهور معروف .   (٢) ج : « شجاعهم » .

وكيف فررتم يوم أُحدٍ وخيبرٍ ... ويوم حُنينٍ مَهْرَباً بعدَ مَهْرَبِ

ألم تشهدوا يوم الإخاء وبيعة الـ ... ـغدير وكلٌّ حُضَّرٌ غير غُيَّبِ (1)

فكيفَ غدا صِنْوُ النُّفَيْلِ وَنَجْلُه ... أميراً على صِنْوِ النبيِّ المرجَّبِ !

وكيفَ علا من لا يطا ثوبَ أحمدٍ ... على مَنْ علا مِنْ أحمدٍ فوقَ مِنْكَبِ

إمامُ هُدًى رُدَّتْ له الشمسُ جَهْرَةً ... فصلَّى أداءً عَصْرَهُ بعدَ مَغْرِبِ (2)

وَمِنْ قَبْلِهِ أفْنَى سليمانُ خَيْلَهُ ... رَجَاءً فلمْ يبلُغْ بهـا نَيْلَ مَطْلَبِ (3)

يجلُّ عن الأفهامِ كُنْهُ صفاتِهِ ... ويرجع عنها الذِّهْنُ رَجْعَةَ أخْيَبِ

فليسَ بيانُ القولِ عنهُ بكاشفٍ ... غِطاءً ، ولا فصلُ الخطابِ بمعْرِبِ

وحقٌّ لقبرٍ ضَمَّ أعضاءَ حيدرٍ ... وغُودِرَ مِنْهُ في صَفِيحٍ مُغَيَّبِ (4)

---

(1) هو غدير خم : موضع بين مكة والمدينة ؛ روى صاحب الرياض النضرة (٢ : ١٦٩) : عن البراء ابن عازب ، قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فنزلنا بغدير خم ، فنودي فينا : الصلاة جامعة ، فأوى رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة ، فصلى الظهر وأخذ بيد علي ، وقال : ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : بلى ، فأخذ بيد علي وقال : « اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه » . قال : فلقيه عمر بعد ذلك ، فقال : هنيئاً لك يابن أبي طالب ، أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة .

(2) قال الشريف المرتضى في أماليه (٢ : ٣٤٠) : « هو خبر عن رد الشمس له عليه السلام في حياة النبي صلى الله عليه وآله ؛ لأنه روى أن النبي صلى الله عليه وآله كان نائماً ، ورأسه في حجر أمير المؤمنين عليه السلام ، فلما حان وقت صلاة العصر ، كره أن ينهض لأدائها ، فينزعج النبي صلى الله عليه وآله من نومه ، فلما مضى وقتها وانتبه النبي عليه السلام دعا الله تعالى بردها له ، فردها ، فصلى عليه السلام الصلاة في وقتها » ؛ ثم أورد بيت السيد الحميري :

رُدَّتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ لَمَّا فَاتَهُ ... وَقْتُ الصَّلاةِ وَقَدْ دَنَتْ لِلْمَغْرِبِ

(3) يشير إلى ما رواه بعض المفسرين لقوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ : أن سليمان عرض عليه خيل جياد — في وقت العصر — فألهاه ذلك عن صلاة العصر ؛ فغضب لذلك ، وطلب من الله أن يرد عليه الشمس بعد غروبها ليصلي العصر حاضراً ؛ فردت ، ثم غضب على الخيل التي كانت سبباً في فوت الصلاة فقطع أعناقها وسوقها » .

(4) الصفيح : الحجر الرقيق تسقف به القبور .

بكونُ ثراهُ سِرّ قُدْسٍ مُمَنَّعٍ وحَصْباؤهُ مِن نُورِ وحْيٍ مُحَجَّبِ
وتغشاه من نور الإله غمامـةٌ تُغَاديه من قُدْسِ الجَلالِ بصيِّبِ
وتنقضّ أسرابُ النُّجُومِ عوَاكِفاً عَلَى حُجُرَتيْهِ كوكَبٌ بَعْدَ كوكَبِ
فلولاكَ لم ينجُ ابن متّى ولا خبا سَعِيرٌ لإبراهيم بعـد تلهُّبِ
ولا فلق البحرَ ابنُ عمرانَ بالعصا ولا فرّتِ الأحزابُ عن أهلِ يَثْرِبِ
وَلَا قُبِلَتْ من عابدٍ صَلَوَاتُهُ وَلَا غَفَرَ الرَّحْمَنُ زَلَّةَ مُذْنِبِ
ولم يَغْلُ فيك المسلمونَ جَهالَةً ولـكن لسرٍّ فى عُلاك مُغَيَّبِ

وقالوا أيضاً : إنّ بَـكريّاً وشيعيّاً تجادلا ، واحتكما إلى بعض أهل الذّمّة ؛ ممن لا هوى له مع أحد الرجلين فى التفضيل ، فأنشدهما :

كَمْ بَيْنَ مَنْ شكَّ فى عقيدَتِهِ وَبَيْنَ مَنْ قيـــــل إنه اللهُ !

* * *

[طرق الإخبار عن الغيوب]

فأما الإخبار عن الغيوب ، فلمعترض أن يقول : قد يقع الإخبار عن الغيوب من طريق النُّجُوم ؛ فإنّ المنجّمين قد اتفقوا على أن شـكلاً من أشـكال الطالع إذا وقع لمولود ، اقتضى أن يكون صاحبُهُ متمكناً من الإخبار عن الغيوب .

(١وقد يقع الإخبار عن الغيوب من الـكُهّان ، كما يحكى عن سَطِيح ، وشِقّ ، وسَواد ابن قارب وغيرهم١) .

(١ ــ ١) ساقط من ب وشق بن أغار بن نزار ، وسطيح بن مازن بن غسان ، وسواد بن قارب الدوسى ؛ وأخبـارهم فى الـكهانة معروفة فى كتب الأدب والتاريخ .

وقد يقع الإخبار عن الغيوب لأصحاب زَجْر الطير والبهائم ، كما يحكى عن بني لِهْب في الجاهلية[١] .

وقد يقع الإخبار عن الغيوب للقافة ، كما يحكى عن بني مُدْلِج[٢] .

وقد يخبر أرباب النّيرنجات[٣] وأرباب السّحر والطّلّسمات بالمغيبات . وقد يقع الإخبار عن الغيوب لأرباب النفس الناطقة القوية الصافية ، التي تتصل مادّتها الرّوحانيّة على ما تقوله الفلاسفة . وقد يقع الإخبار عن الغيوب بطريق المنامات الصادقة ؛ على ما رآه أكثرُ الناس ، وقد وردت الشريعة نصًّا به .

وقد يقع الإخبار عن الغيوب بأمرٍ صناعيّ يشبه الطبيعيّ ، كما رأيناه عن أبي البيان وابنه .

وقد يقع الإخبار عن الغيوب بواسطة إعلام ذلك الغيب إنسانًا آخرَ ، لنفسه بنفس ذلك الخبر اتحادٌ أو كالاتحاد ، وذلك كما يحكي أبو البركات بن ملكا الطبيب في كتاب "المعتبر"[٤] قال : والمرأة العمياء التي رأيناها ببغداد ؛ وتكرّرت مشاهدتُنا لها منذ مدة مديدة ، قدْرها ما يقارب ثلاثين سنة ؛ وهي على ذلك إلى الآن تعرض عليها الخبايا ، فتدلّ عليها بأنواعها وأشكالها ومقاديرها ، وأعدادها ؛ غريبها ومألوفها ؛ دقيقها

---

(١) الزجر : الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام ما غاب عنهم وبنو لهب : حي في الأزد ؛ كانوا أزجر العرب .

(٢) القيافة قسمان : قيافة الأثر ؛ ويقال لها العيافة ؛ وقيافة البشر ؛ أما العيافة فهو علم باحث عن تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر في المقابلة للأثر ؛ حتى لقد روى أن بعضهم كان يفرق بين أثر قدم الشاب والشيخ وقدم الرجل والمرأة ، والبكر والثيب . أما قيافة البشر فهي الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما في النسب والولادة وسائر أحوالهما وأخلاقهما وكان بنو مدلج ، وهم بطن في كنانة ، من أعلم العرب في قيافة البشر .

(٣) في القاموس : « النيرنج » بالكسر : أخذ كالسحر ، وليس به .

(٤) هو كتاب المعتبر في المنطق ؛ لأبي البركات هبة الله بن ملكا البغدادي ، المتوفى سنة ٥٤٧ ؛ ذكره صاحب كشف الظنون .

وجليلها ، تجيب على أثر السؤال من غير توقف ولا استعانة بشيء من الأشياء ، إلا أنها كانت تلتمس أن ترى الذى يُسأل عنه أبوها ، أو يسمعه فى بعض الأوقات دون بعض ، وعند قوم دون قوم ، فيتصوّر فى أمرها أنّ الذى تقوله بإشارة من أبيها ؛ وكان الذى تقوله يبلغ من الكثرة إلى ما يزيد على عشرين كلمة ؛ إذا قيل بصريح الكلام الذى هو الطريق الأخصر ، وإنما كان أبوها يقول إذا رأى ما يراه من أشياء كثيرة مختلفة الأنواع والأشكال فى مدة واحدة كلمة واحدة ، وأقصاه كلمتان ؛ وهى التى يكرّرها فى كلّ قول ومع كلّ ما يسمع ، ويَرى : سلْها وسلْها تخبرك ، أو قولى له ، أو قولى يا صغيرة .

قال أبو البركات : ولقد عاندته يوما وحاققته فى ألا يتكلم البتّة ، وأريتهُ عدّة أشياء ، فقال لفظة واحدة ، فقلت له : الشَّرْط أمْلك[1] ؛ فاغتاظ واحتدّ طيشُه عن أن يملكَ نفسَه ، فباح بخبيئته ، قال : ومثلك يظنّ أنى أشرت إلى هذا كله بهذه اللفظة ! فاسمع الآن ، ثم التفت إليها ، وأخذ يشير بإصبعه إلى شىء ، وهو يقول تلك الكلمة ، وهى تقول : هذا كذا وهذا كذا ؛ على الاتصال من غير توقف ، وهو يقول تلك الكلمة ، لا زيادةَ عليها ، وهى لفظة واحدة ، بلحنٍ واحد ، وهيئة واحدة ، حتى ضَجِرْنا ، واشتدّ تعجّبنا ، ورأينا أنّ هذه الإشارة ، لو كانت تتضمّن هذه الأشياء لكانت أعجبَ من كل ما تقوله العمياء .

قال أبو البركات : ومن عجيب ما شاهدناه من أمرها ، أنّ أباها كان يغلط فى شىء يعتقده على خلاف ما هو به ، فتخبرُ هى عنه على معتقَد أبيها ؛ كأنّ نفسَها هى نفسُه .

قال أبو البركات : ورأيناها تقول ما لا يعلمُه أبوها من خبيئة فى الخبيئة التى اطّلع عليها أبوها ، فكانت تطّلع على ما قد علمه أبوها ، وعلى ما لم يعلمه أبوها ، وهذا أعجب وأعجب .

(١) من المثل : الشرط أملك ؛ عليك أم لك ؟ أى أن الشرط يملك صاحبه فى إلزامه إياه الشروط ؛ إن كان له أو عليه .

قال أبو البركات : وحكاياتها أكثرُ من أن تُعَدّ ، وعند كلّ أحد من الناس من حديثها ما ليس عند الآخر ، لأنها كانت تقول من ذلك على الاتصال لشخص شخص جواباً بحسب السؤال .

قال : وما زلت أقولُ : إنّ من يأتي بعدنا لا يصدّق ما رأيناه منها ؛ فإن قلت لي : أريد أن تفيدَني العلّة في معرفة المغيّبات هذه ؟ قلت : تلك العلة التي تصلح في جواب « لِمَ » في نسبة المحمول إلى الموضوع تكون الحدّ الأوسط في القياس وهذه ، فالعلّة الفاعلة الموجبة لذلك فيها هي نفسها بقوتها وخاصتها ، فما الذي أقوله في هذا ! وهلْ لي أن أجعل ما ليس بعلة عِلّة !



***

واعلم أنّا لا ننكر أن يكونَ في نوع البشر أشخاصٌ يخبرون عن الغيوب ، ولكن كلّ ذلك مستند إلى الباريْ سبحانه بإقداره وتمكينه وتهيئة أسبابه ، فإن كان المخبر عن الغيوب ممّن يدعي النبوة لم يَجُزْ أن يكون ذلك إلا بإذن الله سبحانه وتمكينه ، وأن يريد به تعالى استدلالَ المكلّفين على صدق مُدّعِي النبوّة ، لأنه لو كان كاذباً لكان يجوز أن يمكن الله تعالى الجنّ من تعليمه ذلك إضلالاً للمكلّفين ، وكذلك لا يجوز أن يمكّن سبحانه الكاذب في ادعاء النبوّة من الإخبار عن الغيب بطريق السحر وتسخير الكواكب ، والطّلسمات ، ولا بالزّجر ، ولا بالقيافة ، ولا بغير ذلك من الطرق المذكورة ، لما فيه من استفساد البشر وإغوائهم .

وأما إذا لم يكن المخبر عن الغيوب مدّعياً للنبوّة ، نُظر في حاله ، فإن كان ذلك من الصالحين الأتقياء نُسِب ذلك إلى أنه كرامة أظهرها الله تعالى على يده ، إبانة له وتمييزا

من غيره ، كما فى حق علىّ عليه السلام ، وإن لم يكن كذلك أمكنَ أن يكونَ ساحرا أو كاهنا ، أو نحو ذلك .

وبالجملة فصاحب هذه الخاصيّة أفضلُ وأشرف ممن لا تكون فيه ، من حيث اختصاصُه بها ، فإن كان للإنسان العـارى منها مزية أخرى يختص بها توازيها ، أو تزيد عليها ، فترجع إلى التمييل[1] والترجيح بينهما ، وإلا فالمختصّ بهذه الخاصية أرجحُ وأعظمُ من الخالى منها على جميع الأحوال .



(١) ب : « التمثيل » ، والصواب ما أثبته من ج .

(٥٩)

الأصل :

وقال لما قتل الخوارج وقيل له : يا أمير المؤمنين، هلك القوم بأجمعهم :

كَلَّا وَاللهِ ؛ إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ ، وَكُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلَّابِينَ .

الشرح :

نجم : ظهر وطلع .

قرارات النساء : كناية لطيفة عن الأرحام .

* * *

ومن الكنايات اللطيفة الجارية هذا المجرى قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾[1]، يعني الجماع .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾[2] .

وقوله : ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ ﴾[3] ، يعني الفروج .

---

(١) سورة النساء ٤٣ ، المائدة ٦

(٢) سورة ص ٢٣ ، والنعجة هنا كناية عن المرأة ، كما كنوا عنها بالشاة أيضا ، ومنه قول عنترة :

يَا شَاةَ مَا قَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ   حَرُمَتْ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ

(٣) سورة فصلت ٢٠

وقول رسول الله صلى الله عليه وآله للحادى : « يا أنجشة ، رفقاً بالقوارير »[1].
يعنى النساء .

***

[الكناية والرموز والتعريض مع ذكر مثل منها]

والكناية إبدال لفظة ـ يُستحَى من ذكرها ، أو يستهجن ذِكْرُها ، أو يُتطيَّرُ بها ، و يقتضى الحال رَفْضَها لأمرٍ من الأمور ـ بلفظة ليس فيها ذلك المانع ؛ ومن هذا الباب قول امرئ القيس :

سَمَوْتُ إليها بَعْدَ ما نام أهْلُها ... سُمُوَّ حَبَابِ الماء حالًا عَلَى حالِ[2]
فقالَتْ لكَ الوَيْلاتُ إنَّكَ فاضِحِي ... ألَسْتَ تَرَى السُّمَّارَ والنَّاسَ أحْوالِي[3]
فلمَّا تنازَعْنا الحَديثَ وأسْمَحَتْ ... هَصَرْتُ بِغُصْنٍ ذِي شَمارِيخَ مَيَّالِ[4]
فَصِرْنا إلَى الحُسْنَى وَرَقَّ كَلامُنا ... وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أيَّ إذْلالِ[5]

قوله : « فصرنا إلى الحسنى » كناية عن الرَّفَث ومقدّمات الجماع .

***

وقال ابنُ قتيبة : تمازحَ[6] معاوية والأحنف ؛ فما رُئِيَ مازحان أوقَرَ منهما ، قال

---

(١) أنجشة الأسود الحادى ، كان حبشيا يكنى أبا مارية ، وكان حسن الصوت بالحداء . . . وعن أنس قال : كان أنجشة يحدو بالنساء ، وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال ، فإذا اعتقب الإبل قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير » .

(٢) ديوانه ٣١ ، ٣٢ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات . وحباب الماء : طرائقه . وقوله : « حالا بعد حال » ، أى شيئا بعد شيء .

(٣) الديوان : « فقالت : سباك الله » .

(٤) تنازعنا الحديث ، أى حدثتها وحدثتنى ، وأصله من النزع بالدلو ، وهو جذبها . وأسمحت : انقادت وسهلت بعد صعوبتها وامتناعها . وهصرت : أى جذبت ، وشبه شعرها بشماريخ النخل لتداخله وغزارته .

(٥) رق كلامنا ، أى صرنا إلى الصبا والغزل فلم نرفع أصواتنا لئلا يشعر بنا . ورضت فذلت ، أى لينتها بالكلام ، كما يراض البعير بالسير .

(٦) الخبر فى عيون الأخبار ٢ : ٢٠٣ ، وروى بيتين ، والثالث فى اللسان (١٦ : ٢٠) ، ونسب الأبيات إلى يزيد بن عمرو بن الصعق ، وهى أيضا فى الكامل ١ : ٩٨ (طبعة أوربا) ، ونسبها لأبى مهوش الفقعسى ، ونقل عن دعبل أنها لأبى المهوش الأسدى

معاوية : ياأبا بحر ، ما الشيء الملفَّفُ فى البِجاد ؟ فقال : السخينةُ [١] ياأمير المؤمنين ، وإنما كَنَى معاوية عَنْ رَمْى بنى تميم بالنَّهَم وحُبِّ الأكل ، بقول القائل :

إذَا مَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ تَمِيمٍ فَسَرَّكَ أَنْ يَعِيشَ فَجِئْ بِزَادِ
بِخُبْزٍ أو بتمرٍ أو بِسَمْنٍ أو الشيء الملفّفِ فِى الْبِجَادِ [٢]
تَرَاهُ يَطُوفُ فى الآفاقِ حِرْصاً ليأكلَ رأسَ لُقْمَانَ بن عادِ

وأراد الشاعر وَطْبَ اللبن ، فقال الأحنف : « هو السخينة ياأمير المؤمنين » ؛ لأنَّ قريشا كانت تعيَّر بأكلِ السخينة قبل الإسلام ؛ لأنَّ أكثرَ زمانها كان زمان قحطٍ ، والسخينة مايُسخّن بالنار ويُذَرّ عليه دقيق ؛ وغلب ذلك على قريش حتى سميت سخينة ، قال حسّان :

زَعَمَتْ سَخِينَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا وَلَيُغْلَبَنّ مغالب الغَــلّابِ [٣]

فعبّر كل واحد من معاوية والأحنف عمّا أراده بلفظ غير مستهجَن ولا مستقبح ، وعلِم كُلٌّ واحد منهما مرادَ صاحبه ، ولم يفهم الحاضرون مادار بينهما ؛ وهذا من باب التعريض ، وهو قريب من الكناية .

* * *

ومن كنايات الكتاب العزيز أيضا قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَــكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوها ﴾ [٤] ، كنى بذلك عن مناكح النساء .

ومنها قوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَــكُمْ فَأْتُوا حَرْثَــكُمْ أَنّى شِئْتُمْ ﴾ [٥] ، كنى عن مواقع النسل بمواقع الحرث .

---

(١) السخينة : طعام يتخذمن دقيق وسمن ، وكانت قريش تكثر من أكلها ، فعيرت بها حتى سموا سخينة .
(٢) البجاد : كساء مخطط ، من أكسية الأعراب .
(٣) وكذا فى الاقتضاب ٤٦ ، والصواب أن البيت لكعب بن مالك الأنصارى ؛ من قصيدة له فى سيرة ابن هشام ٣ : ٢٨٥ — ٢٨٩ .
(٤) سورة الأحزاب ٢٣
(٥) سورة البقرة ٢٢٣

ومما ورد في الأخبار النبوية في هذا الباب ، الخبر الذي فيه : إن المرأة قالت للرجل القاعد منها مقعد القابلة : لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه ، فقام عنها وتركها .

وقد أخذ الصاحب بن عباد هذه اللفظة ؛ فقال لأبي العلاء الأسدي الأصفهاني ، وقد دخل بزوجة له بكر :

قلبي على الجمرة يا أبا العلا ... فهل فتحت الموضع المقفلا !(١)
وهل فضضت الكيس عن ختمه ... وهل كحلت الناظر الأحولا !

وأنشد الفرزدق في سليمان بن عبد الملك شعرا قال فيه :

دفعن إلى لم يطمثن قبلي ... وهن أصح من بيض النعام(٢)
فبتن بجانبي مصرعات ... وبت أفض أغلاق الختام

فاستنكر سليمان ذلك ـ وكان غيورا جداً ـ وقال له : قد أقررت بالزنا ، فلأجلدنك ، فقال : يا أمير المؤمنين إني شاعر ؛ وإن الله يقول في الشعراء : ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ ، وقد قلت ما لم أفعل(٣) ، قال سليمان : نجوت بها .

ومن الأخبار النبوية أيضا ، قوله عليه السلام في الشهادة على الزنا ، « حتى تشاهد الميل(٤) في المكحلة » .

---

(١) الكناية والتعريض للثعالبي ١٣

(٢) ديوانه ٨٣٦ ، وفيه : « يمدح هشام بن عبد الملك » بقصيدة مطلعها :

ألستم عائجين بنا لعنا ... نرى العرصات أو أثر الخيام

والخبر أيضا في كنايات الجرجاني ٢١ .

(٣) زاد الجرجاني بعدها : « ثم أنشأ يقول :

لقد شهدت لي في الطواسين آية ... أقام بها عذري الكتاب المنزل
يقولون ما لا يفعلون وإنني ... من القوم قوال لما لست أفعل

(٤) الميل : الحديدة التي يكتحل بها .

ومنها قوله عليه السلام للمرأة التي استفتته في الذي استخلت له ولم يستطع جماعها: «لا، حتَّى تذوقي عُسَيلَتَهُ ويذوقَ عُسَيلَتَكِ».

ومنها قول المرأة التي شكت إلى عائشة زوجها أنه يُطمح بصره إلى غيرها: «إني عزمتُ على أن أقيد الجمل»؛ إشارة إلى ربطه.

ومنها قول عمر: يا رسول الله، هلكت، قال: «وَمَا أهلَكَكَ؟» قال: حوّلتُ رَحْلي؛ فقال عليه السلام: «أقبل وأدبرْ واتَّقِ الحيْضة»، ففهم صلى الله عليه وآله ما أراد.

ورأى عبد الله بن سلاَم على إنسان ثوبًا معصفرا، فقال: لو أن ثوبك في تنّور أهلك لكان خيرا لك؛ فذهب الرجلُ فأحرق ثوبه في تنّور أهله؛ وظنّ أنه أراد الظاهر؛ ولم يرد ابن سلاَم ذلك؛ وإنما أراد: لو صُرِف ثمنُه في دقيق يخبزه في تنُّور أهله.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله: «إياكُم وخَضْراء الدِّمَن» والدِّمَن: جمع دِمْنة، وهي المزبلة فيها البَعَر تُنبت نباتا أخضر، وكنى بذلك عن المرأة الحسناء في منبت السوء.

ومن ذلك قولهم: «إياك وعقيلة الملح»، لأن الدُّرّة تكون في الماء الملح، ومرادهم النهي عن المرأة الحسناء وأهلها أهل سوء.

ومن ذلك قولهم: «لبس له جلد النَّمِر»، و«قلب له ظهرَ المِجَنِّ[1]».

وقال أبو نواس:

لاَ أذُودُ الطَّيرَ عَنْ شَجَرٍ ... قَدْ بَلَوْتُ المُرَّ من ثَمَرِهْ[2]

---

(١) لبس له جلد النمر، مثل يضرب في إظهار العداوة وكشفها، وقلب له ظهر المجن، مثل أيضا يضرب لمن كان مع صاحبه على مودة، ثم حال عن العهد. وانظر الميداني ٢: ١٠١، ١٨٠.

(٢) من قصيدة يمدح فيها العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور، ومطلعها:

أيُّهَا المنتَابُ مِنْ عُفُرِهْ ... لَسْتَ مِنْ لَيْلِي ولا سَمَرِهْ

ديوانه ٦٦.

وقد فسّر قومٌ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرامًا ﴾[1] فقالوا : أراد : وإذا عبّروا عن اللفظ بما يَقبُح ذِكرُه كَنَوْا عنه ، فسمى التعبير عن الشئ مُرورا به ، وسمّى الكناية عنه كرما .

ومن ذلك أنّ بنتَ أعرابية صرخت ، وقالت : لسعتنى العقرب ، فقالت أمّها: أين؟ فقالت : موضع لا يضع الرّاق فيه أنفه ؛ كَنَت بذلك عن السوءة .

ومن هذا الباب قوله سبحانه : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[2] ؛ قال كثير من المفسرين:هو كناية عن الغائط ، لأنه يكون من الطعام ، فكنى عنه ، إذا هو منه مسبّب ، كما كنوا عن السّمة بالنار فقالوا : مانار تلك ؟ أى ماسمتها ؟ ومنه قول الشاعر[3] :

قد وَسَمُوا آبالَهُمْ بالنارِ[4] والنّارُ قَدْ تَشْفِى من الأوار[5]

وهذا من أبيات المعانى ، يقول : هم أهل عزّ ومَنَعة ، فسقى راعيهم إبلَهم بالسّمات التى على الإبل ؛ وعلم المزاحمون له فى الماء أنه لا طاقة لهم بمنازعتهم عليه لعزّهم ، فكانت السِّمات سبباً لسقيها . والأوار : العطش ؛فكنى سبحانه بقوله : ﴿ يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ عن إتيان الغائط ؛ لما كان أكل الطعام سبباً له ؛ كما كَنّى الشاعر بالنّار عن السِّمة ؛ لمّا كانت النار سبب السِّمَة .

---

(١) سورة الفرقان ٧٢

(٢) سورة المائدة ٧٥

(٣) الرجز فى اللسان ٧ : ١٠٢ ، والمقاييس ١ : ٤٠ من غير نسبة .

(٤) رواية البيت فى المقاييس :

* قَدْ شَرِبَتْ آبالُهُمْ بالنّارِ *

وروايته فى اللسان :

* حتى سَقَوْا آبالَهُمْ بالنّارِ *

وقال فى شرحه : « أى سقوا إبلهم بالسمة ، أى إذا نظروا فى سمة صاحبه عرف صاحبه فسقى وقدم على غيره لشرف أرباب تلك السمة ، وخلوا لها الماء » .

(٥) وورى هذا البيت أيضا فى اللسان ٥ : ٩٥ .

ومن هذا الباب قوله سبحانه : ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾؛[1] كَنَى بالإفضاء عن الجماع .

ومن الأحاديث النبوية : « مَنْ كَشَفَ قناعَ امرأة ، وَجَبَ عليه مهرُها » ، كَنَى عن الدخول بها بكشف القناع ؛ لأنه يكشف فى تلك الحالة غالبا .

والعرب تقول فى الكناية عن العِفّة : ما وضعت مومسة عنده قناعا .

ومن حديث عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصيب من رءوس نسائه وهو صائم ؛ كنت بذلك عن القبلة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ ،[2] كَنَى بذلك عن الجماع والمخالطة .

وقال النابغة الجعدىّ :

إذا ما الضَّجِيعُ ثَنَى عِطْفَهَا ... تثنّتْ فكانَتْ عليه لباسا[3]

وقد كنَت العرب عن المرأة بالريحان ، وبالسَّرْحة ؛ قال ابن الرقيات :

لَا أَشَمُّ الرَّيْحَانَ إِلَّا بِعَيْنِي ... كَرَماً إِنَّمَا تَشَمُّ الكِلَابُ[4]

أى أقنع من النساء بالنظر ؛ ولا أرتكب منهنّ محرما .

وقال حُميد بن ثور الهلالىّ :

أَبَى اللهُ إِلَّا أَنَّ سَرْحَةَ مَالِكٍ ... عَلَى كُلِّ أَفْنَانِ العِضَاهِ تَرُوقُ[5]

فيا طِيبَ رَيَّاهَا وَبَرْدَ ظِلَالِهَا ... إذا حانَ مِنْ حامى النَّهارِ وَدِيقُ

---

(١) سورة النساء ٢١

(٢) سورة البقرة ١٨٧

(٣) ديوانه ٨١ ومقاييس اللغة ٥ : ٢٣٠ ، وروايتهما : « ثنى جيدها » . وهو فى اللسان ٧ : ٨٧

(٤) ديوانه ٨٥

(٥) ديوانه ٤٠ .

وَهَل أنا إن علّلت نفسى بِسَرْحَةٍ ... من السَّرْح مَسْدُودٌ عَلَيَّ طَرِيقُ!

والسَّرْحة : الشجرة .

وقال أعرابىّ ، وكَنَى عن امرأتين :

أياغلَقَىْ أوْدٍ إذا كَانَ فيكُما ... جَنَى فانظُرا مَنْ تُطْعِمَان جَنَا كُمَا ![1]

ويانخلتَىْ أوْدٍ إذَا هبَّتِ الصَّبَا ... وأمسيتُ مقروراً ذكرتُ ذَرَاكُمَا

* * *

ومن الأخبار النبوية قوله عليه السلام: « مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فلايسقينَّ ماءه زرع غيره » ؛ أراد النّهى عن نكاح الحبائل ؛ لأنّه إذا وطئها فقد سَقَى ماءه زرع غيره .

وقال صلى الله عليه وآله لخوّات بن جُبير[2]: « مافَعَلَ جَمَلُك ياخوّات »؟ يمازحه، فقال : قيّدَه الإسلام يارسول الله ؛ لأن خوّاتاً فى الجاهلية كان يغشى البيوت ، ويقول : شَرَدَ جملى وأنا أطلبه ؛ وإنّما يطلب النساء والخلوة بهنّ ؛ وخوّات هذا هو صاحب ذات النّحيَيْن[3] .

ومن كنايات القرآن العزيز قوله تعالى:﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾[4] ؛ كَنَى بذلك عن الزنا ، لأنّ الرجل يكون فى تلك الحال بين يدي المرأة ورجليها .

ومنه فى الحديث : « إذا قَعَدَ الرجُل بين شُعَبها الأربع » .

---

(١) أود : موضع بالبادية .

(٢) خوات ابن جبير بن النعمان بن أمية الأنصارى الصحابى ، أبو عبد الله ، وقيل : أبو صالح ، أحد فرسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مات سنة ٤٠ . تاج العروس ١ : ٥٤٣ .

(٣) هى امرأة من تيم الله بن ثعلبة ؛ كانت تبيع السمن فى الجاهلية ؛ وهى موضع المثل : أشغل من ذات النحيين ، وانظر الميدانى ١ : ٣٧٦ .

(٤) سورة الممتحنة ١٢ .

وقد فسّر قوم قولَه تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحطب ﴾[1]؛ عن النميمة، والعرب تقولُ لمن ينمّ ويَشِي: يُوقِد بين النّاس الحطَبَ الرَّطْب.

وقال الشاعر يذكر امرأة:

مِنَ البِيضِ لم تُصْطَدْ على خَتْلِ لَامَةٍ ... ولم تَمْشِ بَيْنَ النّاسِ بالحَطَبِ الرَّطْبِ[2]

أى لم تؤخذ على أمرٍ تلام عليه، ولم تُفسِد بين الحىّ بالكذب والنميمة.

* * *

ومما ورد نظير ممازحة معاوية[3] والأحنف من التعريضات أنّ أبا غسّان المِسْمعىّ مَرّ بأبى غِفَار السّدوسىّ، فقال: يا غِفَار؛ ما فعل الدِّرْهمان؟ فقال: لحقا بالدرهم؛ أراد بالدّرهمين قول الأخطل:

فإنْ تَبْخَلْ سَدُوسُ بدِرْهَمَيْها ... فإنّ الرِّيحَ طَيِّبَةٌ قَبُولُ[4]

وأراد الآخر قول بشّار:

وَفِى جَحْدَرٍ لؤمٌ، وفى آلِ مِسْمَعٍ ... صَلاحٌ ولكِنْ دِرْهَمُ القومِ كَوْكَبُ[5]

* * *

وكان محمد بن عِقَال المجاشعىّ عند يزيد بن مَزْيد الشيبانىّ، وعنده سيوفٌ تُعرَض عليه؛ فدفع سيفا منها إلى يد محمد، فقال: كيف ترى هذا السيف؟ فقال: نحن أبصر بالتّمر منّا بالسيوف، أراد يزيد قول جرير فى الفرزدق:

بِسَيْفِ أبى رَغْوَانَ سَيْفِ مُجَاشِعٍ ... ضربتَ ولم تضربْ بسيفِ ابنِ ظَالِمِ[6]

ضربتَ به عنـد الإمام فأُرْعِشَتْ ... يَدَاكَ، وقالوا: مُحْدَثٌ غيرُ صارِمِ

---

(١) سورة اللهب ٤

(٢) البيت فى اللسان ١ : ٣١٣، من غير نسبة. (٣) ص ١٥، ١٦.

(٤) ديوانه ١٢٦

(٥) ديوانه ١ : ٣٠٣

(٦) ديوانه ٥٦٣.

وأراد محمد قول مَروان بن أبي حفصة :

لقد أفسدت أسنان بكر بن وائل ... من التَّمر مالو أصلحته لَمارَها

***

وقال محمد بن عمير بن عطاء التميمىّ لشريك النميرىّ ، وعلى يده صقر : ليس في الجوارح أحبّ إلىّ من البازى ؛ فقال شريك : إذا كان يصيد القطا ، أراد محمد قول جرير :

أنا البازى المطِلُّ على نُمَيْرٍ ... أُتيحَ من السّماء لها انْصِبابَا[1]

وأراد شريك قول الطِرمّاح :

تميمٌ بطرْقِ اللؤم أهْدَى من القطا ... ولو سلكتْ سُبْلَ المكارم ضَلَّتِ[2]

***

ودخل عبد الله بن ثعلبة المحاربىّ على عبد الملك بن يزيد الهلالىّ ؛ وهو يومئذ والى أرمينِيَة ، فقال له : ماذا لقينا الليلة من شيوخ محارب ! منعونا النَّوْم بضوضائهم ولَغَطهم ؛ فقال عبدالله بن ثعلبة : إنّهم ـ أصلح الله الأمير ـ أضلّوا الليلة برْقعا ، فكانوا يطلبونه .

أراد عبد الملك قولَ الشاعر :

تَـكِشُّ بلا شىء شيوخُ محاربٍ ... وماخلتُها كانتْ تَرِيش ولا تبْرِى[3]

ضفادع فى ظلماء ليلٍ تجاوبت ... فدلّ عليها صوتُها حيّةَ البحرِ

وأراد عبد الله قول القائل :

لِـكُلِّ هلالىّ من اللؤم بُرْقُعٌ ... ولابن يزيد بُرْقُعٌ وجِـــلالُ[4]

---

(١) ديوانه ٧٢ .

(٢) الشعر والخبر فى اللآلى ٨٦٣ ، وكنايات الجرجانى ٧٢

(٣) للأخطل ، ديوانه ١٣٢ ، تـكش : تصوت ، وفى الديوان : «تنق»

(٤) الشعر والخبر فى كنايات الجرجانى ٧٢

وروى أبو بكر بن دُريد فى كتاب " الأمالى " عن أبى حاتم ، عن العُتبىّ ، عن أبيه ؛ أنه عُرِض على معاوية فرس ، وعنده عبد الرحمن[١] بن الحكَم بن أبى العاص ؛ فقال : كيف ترى هذا الفرس يا أبا مطرِّف ؟ قال أراه أجشّ هزيما ، قال معاوية : أجل ، لكنه لا يَطّلع على الكنائن ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ ما استوجبتُ منك هذا الجواب كلّه ، قال : قد عوّضتك عنه عشرين ألفا .

قال أبو بكر بن دريد : أراد عبد الرحمن التعريض بمعاوية بما قاله النجاشى فى أيام صِفّين :

وَنَجّى ابنَ حربٍ سابحٌ ذُو عُلَالَةٍ ... أجشُّ هَزِيمٌ والرّماح دوانى[٢]

إذا قلت أطراف الرماح تَنُوشُه ... مَرَتْه له السّاقان والقَدمَانِ[٣]

فلم يحتمل معاوية منه هذا المِزاح ، وقال : لكنه لا يطّلع على الكنائن ؛ لأن عبد الرحمن كان يُتّهم بنساء إخوته[٤] .

***

وروى ابن دريد أيضا فى كتاب " الأمالى " عن أبى حاتم النّخَعىّ ، أنّ النجاشىّ دخل على معاوية ، فقال له : كيف قلت : « ونجّى ابنَ حربٍ سابحٌ » ، وقد علمت أنّ الخيل لا تجرى بمثلى[٥] فرارا ؟ قال : إنما عنيت عتبة أخاك — وعُتْبة جالس — فلم يقل معاوية ولا عُتبة شيئا .

***

(١) ب : « عبد الله » ، والصواب من ا ، ج ، وجمهرة الأمثال ١١٠

(٢) السابح : الفرس السريع ، كأنه يسبح ، والعلالة : البقية من السير . والأجش : الغليظ الصوت من الإنسان والخيل والرعد وغيره . والهزيم : الفرس الشديد الصوت .

(٣) مرته : استدرت جريه .

(٤) الخبر برواية أخرى فى الأغانى ١٣ : ٢٦٠ .

(٥) ب : « بى » .

وورد إلى البصرة[١] غلام من بنى فَقْعَس ، كان يجلس فى المِرْبد[٢] ، فينشد شعرا ، ويجمع الناس إليه ؛ فذُكر ذلك للفرزدق ، فقال : لأسوءنّه ، فجاء إليه ، فسمع شيئا من شعره ، فحسده عليه ، فقال : مِمّنْ أنت ؟ قال : من بنى فقعس ، قال : كيف تركت القنَان[٣] ؟ فقال : مقابل لَصَافِ[٤] ؛ فقال : ياغلام ، هل أنجدتْ أمك ؟ قال : بل أنجد أبى .

قال أبو العباس المبرّد : أراد الفرزدق قول الشاعر[٥] :

ضَمِنَ القَنَانُ لِفَقْعَسٍ سوآتِهـا ... إن القَنَانَ لِفَقْعَسٍ لمعمَّرُ[٦]

والقَنَان جبل فى بلاد فقعس ؛ يريد أن هذا الجبل يستر سوآتهم ، وأراد الغلام قول أبى المهوّش[٧] :

وإذا يَسُرُّكَ من تميمٍ خَصلةٌ ... فلَما يَسوءك مِنْ تميمٍ أكثرُ[٨]

أكلتْ أسَيْدُ والهُجَيْمُ ودارِمٌ ... أيْرَ الحمار وخُصيتيه العَنْبَرُ

قد كنتُ أحسِبهم أسودَ خَفِيّةٍ ... فإذا لَصَافِ تبيضُ فيـه الحُمَّر

ولَصَاف : جبل فى بلاد بنى تميم ، وأراد بقوله : « هل أنجدتْ أمك » ، أى إن كانت

---

(١) الخبر فى أمالى القالى ٢ : ٢٣٦ وكنايات الجرجانى ٧٣ وخزانة الأدب ٣ : ٨٠ واللآلى للبكرى ٨٠٩ مع اختلاف الرواية .

(٢) المربد ، يطلق على مواضع ؛ والمراد هنا مربد البصرة ؛ قال ياقوت : « من أشهر معالمها ؛ وكان يكون سوق الإبل فيه قديما ؛ ثم صار محلة عظيمة ؛ سكنها الناس ؛ وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء » .

(٣) فى الأصول : « القبان » تصحيف ؛ والقنان : موضع ذكره ياقوت ، وقال : « هو جبل فيه ماء يدعى العسيلة ؛ وهو لبنى أسد ؛ ولذلك قيل . . . » ، وأورد البيت .

(٤) رواية الخزانة : « تبيض فيه الحمر » .

(٥) هو نهشل بن حرى ؛ يهجو بنى فقعس ، كما ذكره ياقوت (لصاف) .

(٦) قال ياقوت : « معمر ، أى ملجأ » .

(٧) من أبيات تسعة ذكرها صاحب الخزانة ٣ : ٨٤ نقلا عن ضالة الأديب ، وهى أيضا فى الوحشيات ٢١٨

(٨) فى الجرجانى والبكرى والخزانة : « خصلة » .

أنجدتْ فقد أصابها أبى ، فخرجتَ تشبهنى ؛ فقال : بل أنجد أبى ؛ يريد بل أبى أصاب أمّك فوجدها بغيًّا .

***

قال عبد الله بن سوّار : كنا على مائدة إسحاق بن عيسى بن علىّ الهاشمىّ ؛ فأُتينا بحريرة قد عملت بالسكر والسمن والدقيق ؛ فقال معدٌ[1] بن غَيْلان العبْدىّ : ياحبذا السخينة ! ما أكلت ـ أيها الأمير ـ سَخينةً ألذَّ من هذه ؛ فقال : إلّا أنها تولّد الرياح فى الجوف كثيرا ؛ قال : إنّ المعايب لا تذكر على الخِوان .

أراد مَعدّ ما كانت العرب تعيّر به قريشا فى الجاهلية من أكل السَّخينة[2] ، وقد قدّمنا ذكره ، وأراد إسحاق بن عيسى ما يعيّر به عبد القيس من الفَسْو ؛ قال الشاعر :

وَعَبْدُ القَيْسِ مُصْفَرٌّ لحاهـــا ... كأنّ فساءها قِطَعُ الضَّبـابِ

***

وكان سِنان[3] بن أحمس النُّميرىّ يساير الأمير عمر بن هبيرة الفزارىّ ، وهو على بغلة له ، فتقدمت البغلة على فرس الأمير ، فقال : اغضض[4] بغلتك ياسنان ؛ فقال : أيها الأمير ؛ إنها مكتوبة ؛ فضحك الأمير .

أراد عمر بن هبيرة قول جرير :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنّكَ مِنْ نُمَـــيرٍ ... فلا كَعْبـــاً بلغتَ وَلا كِلابا

وأراد سنان قولَ ابن دارة[5] :

لاتأمَنَنّ فَزارِيًّا خَـــلَوْتَ بِهِ ... عَلَى قَلُوصِكَ واكْتُبْها بأسْيارِ

(١) فى كنايات الجرجانى « معدل » .

(٢) الخبر فى الكنايات للجرجانى ٧٢

(٣) فى الاقتضاب : « شريك بن عبد الله النميرى » .

(٤) فى الاقتضاب : « غض من لجام بغلتك » .

(٥) فى الأصول : « الأخطل » ، وهو خطأ ، والبيت لسالم بن دارة ، من أبيات أوردها صاحب الخزانة : ١ : ٥٥٧ وانظر الجرجانى ٧٤ ، والفاضل ٥٤ ، والسهيلى ٢ : ٢٨٨ ، وزهر الآداب ٢١ ، والاقتضاب ٥٥ .

وكانت فَزارة تعيَّر بإتيان الإبل ؛ ولذلك قال الفرزدق يهجو عمر بن هبيرة هذا ، ويخاطب يزيد بن عبد الملك (١) .

أمير المؤمنين وأنت برٌّ تقيٌّ لَسْتَ بالجشع الحريصِ (٢)

أأطعمتَ العِراق وَرَافِدَيْه فزاريًّا أحذَّ يدَ القميصِ (٣)

تَفَنَّقَ بالعراقِ أبو المثنَّى وَعَلَّمَ قومَه أكلَ الخبيصِ (٤)

ولم يكُ قبلَها راعِي مخاضٍ لتأمنه على وَرِكَيْ قَلُوصِ (٥)

الرافدان : دِجْلة والفُرات ، وأحذّ يد القميصِ ، كناية عن السرقة والخيانة. وتفنّق: تنعّم وسمن ، وجارية فنُق ؛ أي سمينة .

والبيت الآخر كناية عن إتيان الإبل الذى كانوا يعيّرون به (٦) .

وروى أبو عُبيدة عن عبد الله بن عبد الأعلى قال : كنا نتغدّى مع الأمير عمر بن هبيرة . فأحضر طباخُه جامَ خَبيص ، فكرهه للبيت المذكور السابق ، إلا أنّ جلده أدركه ، فقال : ضمه ياغلام ، قاتل الله الفرزدق ، لقد جعلنى أرى الخبيص فأستحى منه (٧) !

* * *

قال المبرّد : وقد يسير البيت فى واحد ؛ ويرى أثره عليه أبدا ، كقول أبى العتاهية

---

(١) ديوانه ٤٨٧ ، الكامل ٤٧٩ (طبع أوربا) ، والفاضل ١١١ ، كنايات الجرجانى ٧٤ ، الحيوان ٥ : ١٩٧ ، الشعراء لابن قتيبة ٣٤

(٢) الديوان والحيوان : « بالوالى الحريص » .

(٣) الأحذ : السريع اليد الخفيفها . قال ابن قتيبة : « يريد أنه خفيف اليد بالخيانة ، فاضطرته القافية لذكر القميص » .

(٤) فى الحيوان « تفتق » ، من قولهم : تفتقت خواصر الغنم من البقل ، إذا اتسعت من كثرة الرعى . والخبيص : ضرب من الحلوى المطبوخة .

(٥) المخاض : الحوامل من النوق ؛ والقلوص : الشابة من الإبل .

(٦) كنايات الجرجانى ٧٤

(٧) كنايات الجرجانى ٧٥ .

فى عبد الله بن معن بن زائدة :

فما تَصْنَعُ بالسَّيفِ   إذا لم تكُ قتَّالا[١]

فَكَسِّرْ حِلْيةَ السَّيْفِ   وصُغْها لكَ خلخالا

وكان[٢] عبد الله بن معن إذا تقلّد السيفَ ورأى مَنْ يرمُقه بان أثرُه عليه ؛ فظهر الخجل منه .

***

ومثل ذلك مايحكى أنّ جريرا قال : والله لقد قلتُ فى بنى تَغْلِب بيتا لو طُعِنُوا بعدَها بالرّماح فى أستاههم ماحَكُّوها ؛ وهو :

والتَّغْلَبىّ إذا تَنَحْنَحَ لِلْقِرى   حَكّ استَه وتمثّـــل الأمثالا[٣]

***

وحكى أبو عبيدة عن يونس ، قال : قال عبدالملك بن مَرْوان يوما ؛ وعنده رجال : هل تعلمون أهلَ بيتٍ قيل فيهم شعر ،وَدُّوا لو أنهم افتدوْا منه بأموالهم ؟فقال أسماء بن خارجة الفَزارِىّ : نحن ياأمير المؤمنين ؛ قال : وماهو ؟ قال : قول الحارث بن ظالم المرّىّ :

وَما قومى بثعلبة بن سعدٍ   ولا بفَزَارةَ الشُّعْر الرقابا

فوالله ياأميرَ المؤمنين ؛ إنى لألبَس العمامة الصفيقــة ؛ فيخيَّل لى أن شعر قفــاىَ قد بدا منها .

---

(١) ديوانه ٢٣٤ ، والخبر والبيتان فى كنايات الجرجانى ٧٥ ، وقبلهما :

لقد بُلِّغْتُ ماقالا   فما باليتُ ماقالا

ولو كانَ من الأسْدِ   لمـــا هال ولا صالا

(٢) الجرجانى : « قال : فكان » .

(٣) الخبر فى كنايات الجرجانى ٧٥ .

وقال هانئ بن قبيصة النميريّ : نحن ياأمير المؤمنين ؛ قال وما هو ؟ قال قول جرير :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلابا[1]

كان النميريّ ياأمير المؤمنين إذا قيل له : ممن أنت ؟ قال : من نُمير، فصار يقول بعد هذا البيت : « من عامر بن صعصعة »[2] .

ومثل ذلك ما يروى أنّ النجاشيّ لما هجا بنى العَجْلان بقوله[3] :

إذَا اللهُ عَادَى أهلَ لؤمٍ ورقّةٍ فعادى بنى العَجْلان رهطَ ابن مُقْبِل[4]

قُبيِّلةٌ لا يغدِرُون بذِمّةٍ ولا يَظلِمُون النّاسَ حَبّةَ خردلِ

وَلَا يَرِدُون الماءَ إلا عَشِيّةً إذا صدَرَ الوُرّادُ عن كلِّ منهلِ

وَما سُمِّى العَجْلَان إلا لقولِه : خذ القَعْبَ فاحلُبْ أيها العبدُ واعجَلِ[5]

فكان الرّجُل منهم إذا سُئل عن نسبه يقول : من بنى كعب ، وترك أن يقول : « عجلانيّ » .

* * *

وكان عبد الملك بن عمير القاضى ، يقول : والله إنّ التنحنحَ والسعال ليأخذنى وأنا فى الخلاء فأردّه حياء من قول القائل :

إذَا ذَاتُ دَلٍّ كلّمته لحاجةٍ فهمّ بأن يقضى تنحنحَ أو سَعَلْ

* * *

(١) ديوانه ٧٥

(٢) كنايات الجرجانى ٧٥ ، والعمدة لابن رشيق ١ : ٧٥ .

(٣) الأبيات فى العمدة لابن رشيق ١ : ٢٧ ، كنايات الجرجانى ٧٥ ، مختارات ابن الشجرى ١٣١ ، الشعر والشعراء ٢٩٠ ، الخزانة ١ : ١١٣ ، مع خبر مذكور ، يختلف رواية .

(٤) ابن مقبل، هو تميم بن أبى بن مقبل ، قال الجمحى فى الطبقات ١٢٥ : « تميم بن أبى بن مقبل ، شاعر خنذيذ مغلب ، غلبه النجاشى » ولم يكن إليه فى الشعر ، وقد قهره فى الهجاء فقال :

* إذا الله عادى أهلَ لؤمٍ ورقّةٍ *

(٥) القعب : القدح الضخم الغليظ الجافى .

ومن التعريضات اللطيفة ، ما رُوِى أن المفضّل بن محمد الضبىّ بعث بأضحيةٍ هزيلٍ إلى شاعر ، فلما لقيَه سأله عنها ، فقال : كانت قليلة الدم ، فضحك المفضّل ، وقال : مهلا يا أبا فلان ؛ أراد الشاعر قول القائل :

وَلَوْ ذُبِحَ الضّبىّ بالسَّيْفِ لم تَجِدْ من اللؤم للضبىّ لحمًا ولا دَمَا[1]

* * *

وروى ابن الأعرابىّ فى الأمالى قال : رأى عقال بن شبّة بن عقال المجاشعىّ على أصبغ ابن عنبس وَضَحا ، فقال : ماهذا البياض على إصبعك يا أبا الجرّاح ؟ فقال : سَلْح النعامة يابن أخى ؛ أراد قول جرير :

فضحَ العشيرةَ يومَ يسلَحُ قائما سَلْحَ النعامة شبّةُ بنُ عقالِ[2]

وكان شبّة بن عقال قد برّز يوم الطُّوانة[3] مع العبّاس بن الوليد بن عبد الملك إلى رجل من الروم ؛ فحمل عليه الرومىّ ، فنكص وأحدث ؛ فبلغ ذلك جريرا باليمامة ، فقال فيه ذلك[4] .

* * *

ولقى الفرزدق مخنثا يحملُ قُماشه[5] ، كأنه يتحوّل من دار إلى دار ؛ فقال : أين راحت عمّتُنا ؟ فقال : قد نفاها الأغرّ يا أبا فراس ؛ يريد قول جرير فى الفرزدق :

نفاك الأغرّ ابنُ عبد العزيز وحقّك تُنفَى من المسجدِ[6]

---

(١) كنايات الجرجانى ٧٧
(٢) ديوانه ٤٧١
(٣) الطوانة ؛ بضم أوله، وبعد الألف نون : بلد بثغور المصيصة.
(٤) كنايات الجرجانى ٧٧
(٥) قماش البيت : متاعه .
(٦) ديوانه ١٢٨

وذلك أن الفرزدق وَرَد المدينة ، والأمير عليها عمر بن عبد العزيز ، فأكرمه حمزة بن عبدالله بن الزبير وأعطاه ، وقعد عنه عبدالله بن عمرو بن عثمان ، وقصّر به ، فمدح الفرزدقُ حمزة بن عبدالله ، وهجا عبدالله ، فقال :

مَا أَنتُمُ مِنْ هاشِمٍ في سِرِّها ... فاذْهَبْ إليكَ ولا بَنِي العَوَّامِ[1]

قومٌ لهمْ شرفُ البطـاحِ وأنتمُ ... وَضَرُ البلاطِ موطَّئوا الأقدامِ

فلما تناشد الناس ذلك ، بعث إليه عمر بن عبد العزيز ، فأمره أن يخرج عن المدينة ، وقال له : إن وجدتك فيها بعد ثلاث عاقبتُك ، فقال الفرزدق : ماأراني إلا كثمود حين قيل لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ[2] ﴾ ؛ فقال جرير يهجوه :

نفاكَ الأغرُّ ابنُ عبدِ العزيزِ ... وَحَقُّكَ تنفَى من المسجدِ[3]

وَسَمَّيتَ نفسَكَ أشقَى ثمودَ ... فقالوا ضللتَ ولم تهتدِ

وقد أُجِّلوا حين حلّ العذابُ ... ثلاثَ ليـالٍ إلى الموعدِ

وَجَـدْنا الفرزدقَ بالموسمَيْنِ خبيثَ المداخِلِ والمشهدِ

* * *

وحكى أبو عبيدة ، قال : بينا نحن على أشراف الكوفة وقوف ؛ إذ جاء أسماء بن خارجة الفزاريّ فوقف ؛ وأقبل ابن مكعبر الضبيّ فوقف متنحيًا عنه ؛ فأخذ أسماء خاتما كان في يده ، فصّه فيروز أزرق ، فدفعه إلى غلامه ، وأشار إليه أن يدفعه إلى ابن مكعبر ؛ فأخذ ابن مكعبر شِسْع نعله ؛ فربطه بالخاتم ، وأعاده إلى أسماء ؛ فتمازحا ولم يَفْهَمْ أحدٌ من الناس ما أرادا ، أراد أسماء بن خارجة قول الشاعر :

لقد زَرِقَت عيناكَ يابنَ مكعبَرٍ ... كذا كلّ ضَبِّيٍّ من اللؤم أزرقُ

---

(١) ديوانه ٧٧٢ ، وروايته : « في مثل أسرة هاشم »

(٢) سورة هود ٦٥   (٣) ديوانه ١٢٨

وأراد ابن مكعبر قول الشاعر :

لا تأمَنَنَّ فزاريًا خَلَوْتَ بِهِ   عَلَى قَلُوصِكَ وَاكْتُبْهَا بأسيارِ[1]

وكانت فَزارة تعيّر بإتيان الإبل ؛ وعيّرت أيضا بأكل جُرْدَان الحمار ؛ لأن رجلا منهم كان في سفر فجاع ، فاستطعم قوماً فدفعوا إليه جُرْدان الحمار ، فشواه وأكله ، فأكثرت الشعراء ذكرهم بذلك ؛ وقال الفرزدق :[2]

جَهِّزْ إذا كنتَ مُرْتاداً ومنتجِعاً   إلى فزارة عَيْراً تحمل الكَمَرَا[3]
إنَّ الفزاريَّ لَوْ يَعْمَى فيطعِمُه   أيْرَ الحمارِ طبيبٌ أبرأ البَصَرَا
إنَّ الفزاريَّ لا يشفيه مِنْ قَرَمٍ   أطايبُ العَيْرِ حتى يَنْهَشَ الذَّكَرا

وفي كتب الأمثال أنه اصطحب ثلاثة : فزاريّ وتغلبي ومُريّ ـ وكان اسم التغلبي مرقة ـ فصادوا حمارا ، وغاب عنهما الفزاريّ لحاجة ، فقالوا : نخبأ له جُرْدانه، نضحك منه؛ وأكلوا سائره ؛ فلما جاء دفعا إليه الجردان ؛ وقالا : هذا نصيبك ، فنهسَه فإذا هو صلب ، فعرف أنهم عرّضوا له بما تُعاب به فزارة ؛ فاستلّ سيفه ، وقال : لتأكلانه ؛ ودفعه إلى مَرْقة ، فأبى أن يأكله ، فضربه فقتله ، فقال المريّ : طاح مِرْقة ؛ قال : وأنت إن لم تلقمه ! فأكله[4].

وذكر أبو عبيدة أنّ إنسانا قال لمالك بن أسماء بن خارجه الفزاريّ : اقضِ ديني أيها الأمير ؛ فإنّ عليّ دينا ؛ قال : مالك عندي إلا ما ضرب به الحمار بطنه، فقال له عبيد بن أبي محجن:

(١) اللآلي ٨٦٢ ، وكنايات الجرجاني ٧٩ .
(٢) ديوانه ٢٨٤ .
(٣) في الديوان : « جهز فإنك ممتار ومبتعث » .
(٤) الخبر في اللآلي ٨٦٠ ، وكنايات الجرجاني ٧٦ .

بارك الله لكم يا بنى فَزارة فى أيْر الحمار ؛ إن جُعتُمْ أكلتموه ؛ وإن أصابكم غُرْمٌ قضيتموه به .

ويحكى أن بنى فزارة وبنى هلال بن عامر بن صعصعة تنافرُوا إلى أنس بن مدرك الخثعمىّ ؛ وتراضَوْا به ، فقالت بنو هلال : أكلتم يا بنى فَزارة أيْر الحمار ، فقالت بنو فزارة : وأنتم مَدَرْتُم[1] الحوض بسلحكم ؛ فقضى أنَس لبنى فَزارة على بنى هلال ؛ فأخذ الفَزاريّون منهم مائة بعير كانوا تخاطروا عليها ؛ وفى مادر يقول الشاعر :

لقَدْ جَلَلتْ خِزياً هلالُ بن عامرٍ بنى عامرٍ طُرًّا بسلحةِ مادرِ[2]

فأفٍّ لكُمْ لاتذكروا الفَخْرَ بعدها بنِى عامرٍ ، أنتم شرارُ المعاشرِ[3]

* * *

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فى كتاب "الكامل" ، أن قتيبة بن مسلم لما فتح سَمَرْقَنْد ؛ أفضى إلى أثاث لم يُرَ مثله ، وآلات لم يسمع مثلها ؛ فأراد أن يُرِىَ الناسَ عظيمَ ما فتح الله عليه ، ويعرّفهم أقدار القوم الذين ظهر عليهم ؛ فأمر بدارٍ ففُرِشت ، وفى صحنها قدورٌ يُرتقى إليها بالسلالم ؛ فإذا بالحُضَيْن بن المنذر بن الحارث بن وَعْلة الرقاشىّ قد أقبل ؛ والناس جلوسٌ على مراتبهم — والحُضَيْن شيخ كبير — فلما رآه عبد الله بن مسلم قال لأخيه قتيبة : ائذن لى فى معاتبته ، قال : لا تُرِدْه ، فإنه خبيث الجواب ، فأبى عبدُ الله إلّا أنْ يأذن له — وكان عبد الله يُضَعَّف[4] ، وكان قد تسوّر حائطا إلى امرأة قبل ذلك — فأقبل على الحُضين ، فقال : أمِنَ الباب دخلت يا أبا ساسان ؟ قال : أجل ؛ أسَنَّ عمك عن تسوّر

(١) مدرتم الحوض ؛ أى سلحتم فيه .

(٢) فى اللسان : « وفى المثل : « ألأم من مادر » ؛ وهو جد بنى هلال بن عامر » . وفى الصحاح : « هو رجل من هلال بن عامر بن صعصعة ؛ لأنه سقى إبله ، فبقى فى أسفل الحوض ماء ، فسلح فيه ، ومدر به حوضه ، بخلا أن يشرب من فضله » .

(٣) كنايات الجرجانى ٧٦ ، ٧٧ ، والبيتان أيضا فى اللسان ٧ : ٨

(٤) يضعف ؛ أى يوصف بالضعف لقلة عقله .

الحيطان ؟ قال : أرأيتَ هذه القدور ؟ قال : هى أعظم من ألّا تُرَى ؟ قال : ما أحسب بكرَ ابن وائل رأى مثلها ، قال : أجل ، ولا عَيْلان ؛ ولو رآها سُمِّى شَبْعان ؛ ولم يسمَّ عَيْلان ، فقال عبد الله : أتعرف يا أبا ساسان الذى يقول :

عَزَلْنا وأمَّرْنا وبَكْرُ بن وائلٍ ... تجرُّ خُصاها تبتغى من تُحالِفُ[1]

فقال : أعرفه ، وأعرف الذى يقول :

فأدْى القَوْم مَنْ نادى مشيرا ... ومَنْ كانَتْ له أسْرَى كلابِ
وخَيْبَةُ مَنْ يخيب على غَنِيٍّ ... وباهلة بن أعصر والرِّبابِ[2]

فقال : أتعرف الذى يقول :

كأنَّ فِقاح الأزْد حَوْلَ ابن مِسْمَعٍ ... وقد عَرِقَتْ أفواهُ بكر بن وائلِ

قال : نعم وأعرف الذى يقول :

قوم قتيبةُ أمُّهمْ وأبوهمُ ... لولا قتيبة أصبحُوا فى مجهلِ

قال : أما الشعر فأراكَ ترويه ، فهل تقرأ من القرآن شيئا ؟ قال : نعم ؛ أقرأ الأكثر الأطيب[3] : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾[4].

---

(١) فى رغبة الكامل للمرصفى ٦ : ١١٧ : رواية غيره : «نزعنا ووليناه» ؛ وبعده :

وَمَا مات بكرىٌّ من الدَّهْرِ ليلةً ... فيصبحُ إلّا وَهْوَ للذلّ عارِفُ

وهذا الشعر لحارثة بن بدر الغدانى ؛ قاله يوم رضى أهل البصرة أن يولوا عليهم بعد موت معاوية بن يزيد ابن عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمى ؛ حتى يجتمع الناس على إمام ، وكان عبيدالله بن زياد الوالى عليهم قد طلب الإمارة لنفسه ، فلم يرضوا به ، فلما رأى الغدر منهم هرب هو وأخوه ، فلجأ إلى دار مسعود ابن عمرو الأزدى ، وقد استخف بكر بن وائل مالك بن مسمع الجحدرى ، فجمع وأعد وطلب من الأزد المحالفة على نصرة عبيد الله بن زياد ؛ ورده إلى دار الإمارة فلم ينجح ».

(٢) فى زيادات الكامل ، « أى يا خيبة من يخيب » . والرباب : قبائل ، والبيتان لزيد الخيل ذكرهما ابن قتيبة فى الشعراء ٢٤٦ ، وفيه وفى الكامل : « الركاب » بدل « الرباب » .

(٣) الكامل : « الأغلب » .

(٤) سورة الإنسان آية : ١

فأغضبه ؛ فقال : والله لقد بلغنى أنّ امرأة الحُضَيْن حُمِلَتْ إليه وهى حُبْلى من غيره ؛ قال: فما تحرك الشيخ عن هيئته الأولى ، بل قال على رِسْلِه[1] : وما يكون ! تلد لاما على فراشى ؛ فيقال: فلان ابن الحُضَين ؛ كما يقال: عبد الله بن مسلم ؛ فأقبل قتيبة على عبدالله؛ وقال له : لايبعد الله غيرك[2].

وغرضنا من هذه الحكاية الأدبية المستحسنة قول الحُضَيْن تعريضا بفاحشة عبدالله: « أجلْ ؛ أسنّ عمّك عن تسوُّر الحيطان » .

* * *

ويحكى أن أبا العيناء أهدَى إلى أبى علىّ البصير — وقد ولد له مولود — حَجَرا ، يذهب فى ذلك إلى قوله عليه السلام: « الولد للفراش، وللعاهر الحجَر »، فاستخرج أبو علىّ ذلك بفطنته وذكائه ؛ ثم ولد بعد أيام لأبى العيناء مولود ؛ فقال له : فى أىّ وقت وُلِدلك ؟ قال : وقت السَّحَر ، فقال: اطّرد قياسُه ، وخرج فى الوقت الذى يخرج فيه أمثاله — يعنى السؤال — يعرّض بأن أبا العيناء شحّاذ ، وأن ولده خرج يشبهه[3].

* * *

ومن التعريضات والرموز بالفعل دون القول ما ذكره مؤرّج بن عمرو السّدوسىّ فى كتاب " الأمثال " أنّ الأحوص بن جعفر الكلابىّ ، أتاه آتٍ من قومه ، فقال: إن رجلا لانعرفه جاءنا، فلما دنا منّا حيث نراه ، نزل عن راحلته ، فعلّق على شجرة وَطْبا من لبن، ووضع فى بعض أغصانها حَنْظَلة ، ووضع صُرّة من تراب ، وحُزْمة من شوك ، ثم أثار راحلته ، فاستوى عليها وذهب — وكان أيام حرب تميم وقيس عَيْلان — فنظر الأحوص فى ذلك ، فعىّ به ، فقال : أرسلوا إلى قيس بن زهير ، فأتوا قيسا ، فجاءوا به إليه ، فقال له : ألم تك أخبرتنى أنه لا يرِد

(١) على رسله ؛ أى على مهله وتؤدته .
(٢) الكامل ٢ : ١٣ ، ١٤ .
(٣) كنايات الجرجانى ٧٩

عليك أمرٌ إلا عرفتَ مافيه مالم تر نواصيَ الخيل ! قال : ماخبرُك؟ فأعلمه ، فقال : «قد بيّن الصبح لذى عينين » ، هذا رجل قد أُخِذَتْ عليه العهود ألا يكلّمـكم ، ولا يرسل إليكم، وإنه قد جاء فأنذركم . أما الحنظلة ، فإنه يخبركم أنه قد أتاكم بنو حنظلة ، وأما الصُّرّة من التراب ، فإنه يزعُم أنّهم عدد كثير، وأما الشوك فيخبركم أنّ لهم شَوْكة، وأما الوطب فإنه يدلّكم على قُرْب القوم وبعدهم ؛ فذوقوه ، فإن كان حُلْواً حليبا فالقوم قريب ، وإن كان قارصا[1] فالقوم بعيد ،وإن كان المَسِيخ[2] لاحلوا ولا حامضا فالقوم لاقريب ولا بعيد. فقاموا إلى الوَطْب فوجدوه حليبا ، فبادروا الاستعداد ، وغشيَتْهم الخيل فوجدتْهم مستعدين[3] .

ومن الكنايات، [4] بل الرّموز الدقيقة[4] ، ماحكِيَ أنّ قتيبة بن مسلم دخل على الحجاج وبين يديه كتاب قد وَرَد إليه من عبد الملك، وهو يقرؤه ، ولا يعلم معناه ، وهو مفكّر، فقال : ماالذى أحزن الأمير ؟ قال : كتاب وَرَد من أمير المؤمنين ، لاأعلم معناه ، فقال : إنْ رأى الأميرُ إعلامِى به ! فناوله إياه ، وفيه : « أمابعدُ ، فإنك سالم ، والسلام » . فقال قتيبة : مالى إن استخرجتُ لك ما أراد به ؟ قال : ولاية خراسان ، قال : إنه مايسرّك أيها الأمير ، ويقرُّ عينك ، إنما أراد قول الشاعر :

يُدِيرُونَنِي عَنْ سَالِمٍ وأديرهُمْ ... وَجِلْدَةُ بَيْنَ العين والأنف سالم[5]

أى أنت عندى مثل سالم عند هذا الشاعر ؛ فولّاه خراسان[6] .

حكى الجاحظ فى كتاب " البيان والتبيين " قال : خطب الوليد بن عبد الملك فقال:

---

(١) القارص : اللبن الحامض .
(٢) المسيخ : الذى لاطعم له .
(٣) كنايات الجرجانى ٨٠
(٤ ــ ٤) ساقط من ا ، ج
(٥) البيت فى اللسان ١٥ : ١٩١ ، ونسبه إلى عبد الله بن عمر ، يقوله فى ابنه سالم .
(٦) كنايات الجرجانى ٨٢

« أمير المؤمنين عبدُ الملك قال : إن الحجّاج جلدة ما بين عيني وأنفي ، ألا وإني أقول : إن الحجّاج جلدة وجهي كله »[1] .

وعلى ذكر هذا البيت، حُكي أنّ رجلا كان يسقي جلساءه شرابا صِرْفا غير ممزوج؛ وكان يحتاج إلى المَزْج لقوّته ؛ فجعل يغنّي لهم :

يُديرونَني عَنْ سالمٍ وأديرهُمْ ... وجِلدةُ بين العَيْنِ والأنف سالمُ[2]

فقال له واحد منهم : يا أبا فلان،لو نقلت «ما» من غنائك إلى شرابك، لصلَح غِناؤنا ونبيذنا جميعا[3] .

ويشبه حكاية قتيبة والحجاج كتابُ عبد الملك إلى الحجاج ، جوابا عن كتاب كتبه إليه يغلِظ فيه أمرَ الخوارج ، ويذكر فيه حالَ قَطَرِيّ وغيره وشدة شوكتهم؛ فكتب إليه عبد الملك : « أوصيك بما أوصَى به البكريّ زيدا ؛ والسلام » .

فلم يفهم الحجاج ما أراد عبد الملك ، فاستعلم ذلك من كثير من العلماء بأخبار العرب فلم يعلموه ، فقال : مَنْ جاءني بتفسيره فله عشرة آلاف درهم ؛ وورد رجل من أهل الحجاز يتظلّم من بعض العمال ، فقال له قائل : أتعلم ماأوصَى به البكريّ زيدا ؟ قال : نعم أعلمه ، فقيل له : فأت الأمير ؛ فأخبِرْه ولك عشرة آلاف درهم ،فدخل عليه فسأله ،فقال: نعم أيها الأمير ، إنه يعني قوله :

أقول لزيدٍ لا تُتَرْتِرْ فإنهمْ ... يرون المنايا دون قتلِك أو قتلي[4]

فإنْ وضعوا حرباً فضعها،وإن أبَوْا ... فَعُرْضَةُ نارِ الحرب مثلك أومثلي

وإن رفعوا الحربَ العوانَ التي ترى ... فشُبَّ وقود النار بالحطَب الجَزْلِ

فقال الحجاج : أصاب أمير المؤمنين فيما أوصاني؛ وأصاب البكريّ فيما أوصى به زيدا ؛ وأصبت أيها الأعرابي ؛ ودفع إليه الدّراهم .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٢٩٢

(٢) كذا في الأصول وكتاب الكنايات ؛ ويبدو أن الأصوب زيادة كلمة « ما » بعد كلمة « وجلدة » على سبيل الخطأ ؛ ليكون الخبر مفهوماً .

(٣) كنايات الجرجاني ٨٢ .

(٤) الأبيات لموسى بن جابر ، حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي ٣٣٦ ، والترترة : العجلة .

وكتب إلى المهلّب : إنّ أمير المؤمنين أوصانى بما أوصى به البكرىّ زيدا ؛ وأنا أوصيك بذلك ؛ وبما أوصى به الحارث بن كعب بنيه .

فنظر المهلب في وصية الحارث بن كعب، فإذا فيها: يابنىّ كونوا جميعا، ولا تكونوا شيَعا فتفرّقوا ، وبزّوا قبل أن تُبَزّوا . الموت في قوّة وعزّ ،خير من الحياة فى ذلّ وعجز . فقال المهلّب : صدق البكرىّ وأصاب ، وصدق الحارث وأصاب .

* * *

واعلم أنّ كثيرا مما ذكرناه داخلٌ فى باب التعريض ؛ وخارج عن باب الكناية ؛ وإنما ذكرناه لمشابهة الكناية ، وكونهما كالنوعين تحت جنس عام؛ وسنذكر كلاماً كليًّا فيهما إذا انتهينا إلى آخر الفصل إن شاء الله .

ومن الكنايات قول أبى نواس :

وَناظِرَةٍ إلىّ من النِّقابِ ... تلاحِظُنى بطَرْفٍ مستراب[1]

كَشَفْتُ قِناعها فإذا عجوزٌ ... مُمَوّهَةُ المفارِق بالخِضابِ

فما زالت تجَشّمُنِى طويلا ... وتأخذ فى أحاديث التّصابِى

تحاولُ أنْ يقومَ أبو زيادٍ ... ودون قيامه شَيْبُ الغرابِ

أتت بجرابها تكتال فيه ... فقامت وهى فارغةُ الجرابِ

والكناية فى البيت الأخير وهى ظاهرة .

ومنها قول أبى تمام :

مالِى رأيتُ ترابَكُمْ بِئسَ الثّرَى ... مَالِى أرَى أطْوَادَكُمْ تتهدّمُ[2]

---

(١) المثل السائر ٢ : ٢٠٧

(٢) ديوانه ٣ : ١٩٩ ؛ وديوانه :

[illegible]

فكنى بـ « بئس الثرى » عن تنكر ذات بينهم ؛ وبـ « تهدم الأطواد » عن خفة حلومهم وطيش عقولهم .

ومنها قول أبي الطيب :

وَشَرُّ مَا قَنَصَتْهُ راحَتِي قَنَصٌ ... شُهْبُ البزاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ[1]

كَنَى بذلك عن سيف الدولة ؛ وأنه يساوى بينه وبين غيره من أراذل الشعراء وخامليهم في الصلة والقرب .

***

وقال الأقيشر لرجل : ما أراد الشاعر بقوله[2] :

ولقد غدوت بِمُشْرِفٍ يافوخُهُ ... مثل المراوة دَوْه يتفصَّدُ[3]

أرِنٌ يسيل من المراح لُعَابُهُ ... ويكاد جلد إهَابِهِ يتقدَّدُ[4]

قال : إنه يصف فرساً ؛ فقال : حملك الله على مثله ، وهذان البيتان من لطيف الكناية ورشيقها ؛ وإنما عَنَى العضو .

وقريب من هذه الكناية قول سَعيد بن عبد الرحمن بن حسان ، وهو غلام يختلف إلى عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب ولد هشام بن عبد الملك ، وقد جشه[5] عبد الصمد فأغضبه ، فدخل إلى هشام ، فقال له :

إنه والله لولا أنت لم ... يَنْجُ مِنِّى سالماً عبدُ الصمدْ

---

(١) — ديوانه ٣ : ٣٧٣ .

(٢) الخبر والبيتان ومعهما ثالث في كنايات الجرجاني ٢٠ ؛ وفيه : « وحكى ابن دريد قال : وقف أعرابي على أبي عبيدة فقال : ما يعني الشاعر بقوله ... إلى آخر » الخبر . وهما أيضاً في شرح التبريزي على الحماسة ٤ : ٣٥٦ .

(٣) رواية التبريزي : « عسر المكرة » .

(٤) أرن ، أي نشيط ، ورواية التبريزي : « مرح يجح » ؛ وذكر بعده :

حَتَّى عَلَوْتُ بِهِ مَشَقَّ ثَنِيَّةٍ ... طَوْراً أغُورُ بِهِ وَطَوْراً أنْجِدُ

(٥) الجش : الملاعبة والمغازلة

قال هشام : ولِمَ ذلك ؟ قال :

إنهُ قدْ رامَ مِنِّى خُطةً ... لم يَرُمْها قبلَه مِنِّى أحــد

قال هشام : وما هى ؟ ويحك ! قال :

رامَ جهْلًا بى وجــهلًا بِأبى ... يُدْخِلُ الأفعى إلى بيت الأسدْ

فضحك هشام ، وقال : لو ضربتَه لم أُنــكِرْ عليك[1] .

ومن هذا الباب قول أبى نواس :

إذا ما كنتَ جارَ أبى حُسَيْنٍ ... فَنَمْ ويَدَاكَ فِى طَرَفِ السِّلاحِ[2]

فإنّ له نســاء سارقاتٍ ... ـ إذا مابِتْن ـ أطراف الرِّماحِ

سرقن وقد نزلتُ عليه عضوى ... فلم أظفر به حتّى الصبــاحِ

فجــاء وقد تخدّشَ جانباه ... يئِنُّ إلى من ألمِ الجــراحِ

والكناية فى قوله : « أطراف الرماح » ، وفى قوله : « فى طرف السلاح » .

* * *

ومن الكناية الحسنة قول الفرزدق يرثى امرأته ، وقد ماتت بجُمْعٍ[3] :

وجفنِ سلاحٍ قد رزئتُ فلم أَنُحْ ... عليه ، ولم أبعث عليه البواكيا[4]

وفى جوفه من دارمٍ ذُو حفيظةٍ ... لَوَ انّ المنايا أخطأته ليــاليا[5]

---

(١) الأغانى ٨ : ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٢) المثل السائر ٢ : ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٣) بجمع ، أى ماتت وولدها فى بطنها .

(٤) ديوانه ٨٩٤ ؛ وروايته : « وغمد سلاح » .

(٥) الديوان :

* لَوَ انَّ اللَّيالِى أنسأتهُ لَيَالِيا *

أخذه الرضيّ رحمه الله تعالى فقال يرثي امرأة :

إن لم تكن نصلا فغمدُ نصولِ ... غالَتْهُ أحداثُ الزمانِ بغولِ[1]

أو لم تكنْ بأبي شبول ضيغم ... تدْمَى أظـــافرُه فأمّ شُبولِ

ومن الكنايات ما يروى أنّ رجلا من خواصّ كسرى أحبّ الملك امرأته ، فكان يختلف إليها سرًّا وتختلف إليه ، فعلم بذلك ، فهجرها وترك فراشها ، فأخبرتْ كسرى ، فقال له يوما : بلغني أنّ لك عيناً عذبة ، وأنك لا تشرب منها ؟ فقال : بلغني أيها الملك أنّ الأسد يَرِدُها فخفتهُ ، فتركتها له ؛ فاستحسن ذلك منه ووصله .

* * *

ومن الكنايات الحسنة قول حاتم :

وما تشتكيني جارتي غير أنني ... إذا غاب عنها بعلُها لا أزُورها[2]

سيبلغها خيري ويرجع بعلُها ... إليها ، ولم يُسْبَلْ عليّ ستورُها[3]

فكنّى بإسبال الستر عن الفعل ؛ لأنه يقع عنده غالبا .

فأما قول عمر : « مَنْ أرخى سترا أو أغلق بابا فقد وجب عليه المهر » . فيمكن أن يُكْنَى بذلك عن الجماع نفسه ؛ ويمكن أن يُكْنَى به عن الخلوة فقط ؛ وهو مذهب أبي حنيفة ؛ وهو الظاهر من اللفظ لأمرين : أحدهما قوله : « أغلق بابا » فإنه لو أراد الكناية لم يحسن الترديد بـ « أو » ، وثانيهما أنه قد كان مقررا عندهم أنّ الجماع نفسه يُوجب كمال المهر ؛ فلم يكن به حاجة إلى ذكر ذلك .

ويشبه قولَ حاتم في الكناية المقدّم ذكرها قولُ بشّار بن بشر[4] :

---

(١) ديوانه لوحة ١٤٩ ؛ مطلع قصيدة يعزي فيها أبا سعد بن خلف عن أخته .

(٢) ديوانه ١١٠

(٣) الديوان : « ولم يقصر على » .

(٤) هو بشار بن بشر المجاشعي ؛ حماسة ابن الشجري ١٣٥ ، والأبيات أيضا في أمالي المرتضى ١ : ٣٢٩ ونسبها إلى هلال بن خثعم ، مع اختلاف في الرواية ، وترتيب الأبيات .

وإنى لَعَفٌّ عَنْ زِيارَةِ جارتى ... وإنى لمشنوءٌ إلىّ اغتيابُهـــا

وَلَمْ أَكُ طَلَّابا أحاديثَ سِرِّها ... ولا عالماً من أىّ حَوْكٍ ثيابُها[1]

إذا غابَ عنها بعلُها لم أكنْ لَها ... زَءوراً ولم تنبَحْ علىّ كلابُها[2]

وقال الأخطل فى ضدّ ذلك يهجو رجلا ويرميه بالزنا :

سَبَنْتَى يظَلُّ الكَلْبُ يَمضَغُ ثوْبَهُ ... لَهُ فى دِيارِ الغانياتِ طَرِيقُ[3]

السَّبنتى : النَّمِر ؛ يريد أنه جرىء وقح ، وأنّ الكلب لأنسه به وكثرة اختلافه إلى جاراته يعرفه ، ويمضغ ثوبه ، يطلب ما يطعمه ، والعفيف ينكره الكلب ولا يأنس به ؛ ثم أكّد ذلك بأنه قد صار له بكثرة تردّده إلى ديار النساء طريق معروف .

* * *

ومن جيّد الكناية عن العفّة قول عقيل بن عُلَّفة المرّى[4] :

وَلَسْتُ بسائلٍ جارَاتِ بيتى ... أغيَابٌ رجالُكِ أم شُهُودُ[5]

---

(١) رواية المرتضى :

* وَمَا أنا بالدَّارِي أحادِيثَ بيتِها *

وذكر بعده :

وَإنَّ قِرَابَ البَطْنِ يَكْفِيكَ مِلؤُهُ ... وَيَكْفِيكَ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ اجْتِنَابُهَا

وزاد ابن الشجرى بعده :

إذَا سُدَّ بَابٌ عَنْكَ مِنْ دُونِ حَاجَةٍ ... فَذَرْهَا لِأُخْرَى لَيِّنٌ لكَ بَابُهَا

(٢) ابن الشجرى : « لم تأنس إلى كلابها » ، ويقال : رجل زوّار وزءور ، كذا ذكره صاحب اللسان واستشهد بالبيت .

(٣) ديوانه ٢٦٧ ، وروايته : « له فى معان الغانيات » ، وفى شرحه : « المعان : منزل القوم وعلمهم » . وفيه أيضا : « السبنتى : الذئب » .

(٤) من أبيات فى حماسة أبى تمام ـ بشرح التبريزى ١ : ٣٧٧ ، واللآلى ١٨٠ ، والخزانة ٤ : ١٢ وكنايات الجرجانى ١٠ ، وفى الأصول وكتاب الجرجانى « عقيل بن علقمة » وهو خطأ .

(٥) قال التبريزى : « ويجوز أن يكون عرض بقذف الذى يهجوه ، كما يقول من لم تجر عادته بلزوم الأسواق لمن هو متعود المبايعة والمشاراة : لست أعاشر المنادين ولا أبخس إذا وزنت ، أى أنك بأسامع تفتخر بذلك » .

وَلَا مُلْقٍ لِذِي الْوَدَعَاتِ سَوْطِي   أُلَاعِبُهُ وَرِيبَتَـــــهُ أُرِيدُ[1]

* * *

ومن جيّد ذلك ومختاره قولُ مسكين الدارميّ :

نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ   وَإِلَيْهِ قَبْلِي تَنْزِلُ الْقِدْرُ[2]

مَا ضَرَّ جَاراً لِي أُجَاوِرُهُ   أَلَّا يَكُونَ لِبَابِهِ سِتْرُ

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ   حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الْخِدْرُ[3]

* * *

والعرب تَكْنِي عن الفَرْج بالإزار ؛ فتقول : هو عفيف الإزار ، وبالذيل ؛ فتقول : هو طاهر الذَّيل ؛ وإنما كنَوْا بهما ؛ لأنّ الذيل والإزار لابدّ من رفعهما عند الفعل ؛ وقد كنَوْا بالإزار عن الزوجة في قول الشاعر :

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا بِشْرٍ رَسُولاً   فِدًى لَكَ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ إِزَارِي[4]

يريد به زوجتي ؛ أو كَنَى بالإزار هاهنا عن نفسه .

وقال زُهير :

---

(١) يعني بذي الودعات الطفل ، لأنهم يعلقون عليه الودع .

(٢) الأبيات في معجم الأدباء ١١ : ١٣١ ، ١٣٢ ، وأمالي المرتضى ١ : ٤٣ ، ٤٤ ، وكنايات الجرجاني ١٠ .

(٣) معجم الأدباء : « أغضى » ، وذكر بعده :

وَيَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا   سَمْعِي وَمَا بِي غَيْرَهُ وَقْرُ

(٤) البيت مع آخر في كنايات الثعالبي ٣ ، ذكرهما في خبر ، قال : « وأما الكناية بالقلوص ، فكما كتب رجل من مغزى كان فيه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوصيه بنسائه :

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا حَفْصٍ رَسُولاً   فِدًى لَكَ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ إِزَارِي

قَلَائِصَنَا هَدَاكَ اللَّهُ إِنَّا   شُغِلْنَا عَنْكُمُ زَمَنَ الْحِصَارِ

الحافِظُونَ ذِمَامَ عَهْدِهِمُ ... والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزُرِ[1]
السِّتْرُ دون الفاحشات ولا ... يلقاك دون الخيرِ مِنْ سُتُرِ

* * *

ويقولون فى الكناية عن العفيف : ما وضعتْ مُومسة عنده قِناعا ؛ ولا رفع عن مومسة ذيلا .

وقد أحسن ابنُ طباطبا فى قوله :

فَطَرِبْتُ طَرْبَةَ فاسقٍ متهتِّكٍ ... وَعَفَفْتُ عِفَّةَ نَاسِكٍ متحرِّجِ[2]
الله يعـلمُ كيفَ كانت عِفَّتِى ... ما بين خلخالٍ هناكَ ودُمْلُجِ

ومن الكناية عن العفّة قولُ ابن ميادة :

وَمَانِلْتُ مِنْهَا مُحَرَّمًا غَيْرَ أنَّنِى ... أُقَبِّلُ بَسَّامًا من الثَّغْرِ أفلجا[3]
وألثِمُ فاها آخـذاً بقرونها ... وأترُكُ حاجاتِ النُّفوسِ تحرُّجا

فكنى عن الفعل نفسه بحاجات النفوس ، كما كنى أبو نواس عنه بذلك العمل فى قوله :

مَرَّ بِنَا وَالْعُيونُ تَرْمُقُهُ ... تَجْرَحُ مِنْهُ مواضِعَ الْقُبَلِ

---

(١) كذا نسب المؤلف البيتين لزهير ، والثانى فى ديوانه ٩٥ ، من قصيدته التى يمدح فيها هرم بن سنان ، ومطلعها :

لِمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّةِ الحِجْرِ ... أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ دَهْرِ

وليس منها البيت الأول ، وهو فى الكامل ٤٩٥ ، واللآلى ٥٤٨ من أبيات للخرنق أخت طرفة ، بهذه الرواية ، وفى وخزانة الأدب ٤ : ٣٠١ وكنايات الجرجانى ١١ ، والكتاب بهذه الرواية :

النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ ... والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزُرِ

(٢) كنايات الجرجانى ١٠

(٣) كنايات الجرجانى ١١

أفرغَ فى قالب الجمال فما ... يصلح إلا لذلك العَمَلِ

وكما كنى عنه ابن المعتز بقوله :

وَزَارَنِى فى ظَـلامِ اللَّيلِ مُسْتَتِراً ... يستعجلُ الخطوَ من خَوفٍ ومن حَذَرِ

ولاح ضوء هلالٍ كاد يفضحُــه ... مثل القُلامة قـد قُصَّتْ من الظُّفُرِ

فقمت أفرش خَـدِّى فى الطريق لهُ ... ذُلاً وأسحبُ أذيالِى على الأثرِ

فكانَ ما كانَ مِمَّا لستُ أذكرُهُ ... فظنَّ خَيراً ولا تسأل عن الخبرِ

• • •

ومما تطيَّرُوا من ذكره، فكنَّوا عنه قولُهم: « مات » ، فإنهم عبَّروا عنه بعبارات مختلفة داخلة فى باب الكناية ، نحو قولهم : « لعق إصبعه » . وقالوا : « اصفرَّتْ أنامله » لأن اصفرار الأنامل من صفات الموتى ، قال الشاعر[1] :

فقرِّبَانِى بأبِى أنتُما ... مِنْ وَطَنِى قبلَ اصفِرار البنانْ

وَقَبلَ مَنعاىَ إلى نِسوَةٍ ... منزلها حَرَّان والرقَّتانْ[2]

وقال لَبِيد :

وكُلُّ أُناسٍ سوفَ تَدخُلُ بينهمْ ... دُوَيهِيَةٌ تصفرُّ منها الأنامِلُ[3]

يعنى الموت .

ويقولون فى الكناية عنه: صَكَّ لفلانٍ على أبى يحيى ، وأبو يحيى كنية الموت، كُنِىَ عنه بضده ، كما كنوا عن الأسود بالأبيض ، وقال الخوارزمى :

سريعــةُ موتِ العاشقين كأنّما ... يغارُ عليهمْ مِنْ هواها أبو يحيى[4]

---

(١) هو عوف بن محلم الخزاعى ، من قصيدة يمدح فيها عبد الله بن طاهر وأباه ، ذكرها ياقوت فى معجم الأدباء ١٦ : ١٤٣ ، ١٤٤ وأولها :

يابنَ الذِى دَانَ له المَشرِقانْ ... وألبسَ الأمنَ به المغربانْ

إن الثمــانين ـ وبلغتها ـ ... قد أحوجَتْ سَمعى إلى ترجُمان

(٢) كنايات الجرجانى ٤٩ وفيها : « والرقان » .

(٣) ديوانه ٢ : ٢٨

(٤) كنايات الجرجانى ٤٩ ، وثمار القلوب ١٩٧ .

وكنى رسول الله صلى الله عليه وآله عنه بهاذم[1] اللذات، فقال: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات».

وقال أبو العتاهية:

رَأيتُ المنايا قُسِّمَتْ بينَ أنفُسٍ ... ونفسِي سيأتِي بينهنّ نصيبُها[2]

فياهاذِمَ اللَّذاتِ مَامِنْكَ مَهْرَبٌ ... تحاذِرُ نفسِي مِنْكَ ما سَيُصيبُها

وقالوا: حلّقت به العنقاء، وحلّقت به عنقاء مُغرِب، قال:

فلولَا دِفَاعِي اليومَ عنكَ لحلّقَتْ ... بِشِلْوِكَ بَيْنَ القَوْمِ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ[3]

وقالوا فيه: زَلّ الشِّراكُ عن قدمه، قال:

لايسلمون العـــداةَجارَهُمُ ... حتى يَزِلَّ الشِّرَاكُ عن قَدَمِهْ[4]

أى حتى يموت، فيستغنى عن لبس النعل.

فأما قولهم: «زلّت نعله» فيكنّى به تارة عن غلطه وخطئه، وتارة عن سوء حاله واختلال أمره بالفقر، وهذا المعنى الأخير أراده الشاعر بقوله:

سَـأشْكُرُ عَمْراً ماتراخَتْ مَنِيّتِي ... أيادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وإنْ هِيَ جَلَّتِ[5]

---

(١) هاذم، بالذال: أى قاطع.

(٢) ديوانه ٣٠، وكنايات الجرجانى ٤٩

(٣) كنايات الجرجانى ٥٠، وروايته:

إِذَا مَا ابْنُ عَبْدِ اللهِ خَلَّى مَـكَانَهُ ... فَقَدْ حَلَّقَتْ بِالْجُودِ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ

(٤) كنايات الجرجانى ٥٠

(٥) معجم الشعراء للمرزبانى ٣٠٩؛ ونسبها إلى محمد بن سعد الكاتب التميمى، أمالى القالى ١ : ٤٠، ونسبها لبعض الأعراب: وقال أبو عبيد البكرى فى اللآلى: الشعر لأبى الأسود الدؤلى؛ وكان عند عمرو بن سعيد بن العاص؛ فبينا هو يحدثه إذ ظهر كم قميصه من تحت جبته وبه خرق؛ فلما انصرف بعث إليه بعشرة آلاف درهم ومائة ثوب فقال هذا الشعر. وذكر على بن الحسين أن الشعر لعبد الله ابن الزبير الأسدى؛ وأنه أتى عمرو بن أبان؛ فسأله فقال لوكيله: اقترض لنا مالا؛ فقال: مايعطينا التجار؛ فقال: أربحهم؛ فاقترض ثمانية آلاف بإثني عشر ألفا؛ فهو أول من تعين (أى استقرض بالربا، من العينة)؛ فقال فيه ابن الزبير... وذكر الأبيات: اللآلى ١٦٦. وقيل: الشعر لإبراهيم بن العباس الصولى؛ مجموعة المعانى ٦٦، ابن خلكان: ٧ ٢٤٧. والأبيات أيضا فى حماسة أبى تمام - بشرح المرزوقى ٤ : ١٠٨٩ من غير نسبة.

فتى غيرُ محجوبِ الغنى عن صديقِه ... ولا مظهرِ الشكوى إذا النعلُ زلّتِ

رأى خَلّتى من حيث يخفى مكانُها ... فكانت قذى عينيــه حتى تجلّتِ

ويقولون فيــه : شَالَتْ نعامتُه ، قال :

ياليتَ أُمّىَ قَدْ شَالَتْ نَعَامَتُها ... أَيْمَا إلى جنّةٍ أَيْمَــا إلى نارِ[1]

ليست بِشَبْعَى ولو أوردْتُهاهَجَرًا ... ولا بِرَيَّا وَلَوْ حَلّتْ بذِى قَارِ

أى لا يشبِعُها كثرة التمر ولو نزلت هَجَر — وهَجَر كثيرة النخل — ولا تروى ولو نزلت ذا قار ، وهو موضع كثير الماء .

قال ابن دريد : والنعامة خطّ باطنِ القدم فى هذه الكناية .

ويقال أيضا للقوم قد تفرّقوا بجلاء عن منازلهم : شالتْ نعامتُهم ، وذلك لأنّ النعامة خفيفة الطيران عن وجه الأرض ، كأنهم خفّوا عن منزلهم .

وقال ابن السكّيت : يقال لمن يغضب ثم يسكنُ : شالت نعامتُه ثم وقعت .

وقالوا أيضا فى الكناية عن الموت : مضى لسبيله ، واستأثر الله به ، ونقله إلى جواره ، ودُعِى فأجاب ، وقضى نحبَه ، والنَّحْب : النذر ، كأنهم رأوا أنّ الموت لمّا كان حتما فى الأعناق كان نذرا .

وقالوا فى الدعاء عليه: اقتضاه الله بذنبه؛ إشارة إلى هذا ؛ وقالوا : ضَحَا ظلُّه، ومعناه صار ظله شمسا ؛ وإذا صار الظل شمسا فقد عدم صاحبه .

ويقولون أيضا : خلّى فلان مكانه ؛ وأنشد ثعلب للعتبىّ فى السرىّ بن عبدالله :

كأنّ الذى يأتى السرىّ لحاجةٍ ... أباحَ إليه بالذى جاء يطلبُ[2]

إذا ما ابنُ عبد الله خلّى مكانه ... فقد حلّقت بالجودِ عنقاء مُغْرِبُ

---

(١) كنايات الجرجانى ٥٠ ؛ والبيت الأول من شواهد المغنى ١ : ٥٣ (المطبعة الشرقية ١٣٢٨) ؛ وفى حاشية الأمير : « هو لرجل من بنى عبد القيس ؛ يقال له سعد ؛ كان عاقا لأمه ، وكانت بارة به » .

(٢) كنايات الجرجانى ٥٠ .

وقال دُرَيد بن الصمّة :

فإن يكُ عبدُ الله خلّى مكانَه　　فما كانَ وَقّافاً ولا طائشَ اليدِ[1]

وكثير ممن لا يفهم يعتقد أنه أراد بقوله : « خلّى مكانه » فرّ ، ولو كان كذلك لكان هجاء .

ويقولون : وقع فى حياضِ غُتَيم ، وهو اسم للموت[2] .

ويقولون : طار من ماله الثمين ؛ يريدون الثُّمْن ، يقال: ثُمْن وثَمِين ، وسُبْع وسبيع ، وذلك لأنّ الميّت ترث زوجته من ماله الثمن غالبا ، قال الشاعر يذكر جودَه بماله ويخاطب امرأته :

فَلاَ وأبيكِ لا أولى عَلَيْهـا　　لتمنع طالباً منهـا اليمين[3]

فإنى لست منكِ ولستِ منّى　　إذا ما طار من مالى الثمين

أى إذا مت ، فأخذتِ ثُمنكِ من تركتى .

وقالوا : لحق باللطيف الخبير ، قال :

وَمِنَ النّاس مَنْ يُحِبّك حُبّاً　　ظاهِرَ الوُدّ ليس بالتقصيرِ[4]

فإذا ما سألتَـهُ رُبْـعَ فَلْسٍ　　ألحق الوُدّ باللطيف الخبيرِ

وقال أبو العلاء :

لا تَسَلْ عَنْ عِداكَ أين استقرّوا　　لَحِقَ القومُ باللطيف الخبيرِ[5]

---

(١) كنايات الجرجانى ٥٠ .

(٢) كنايات الجرجانى ٥٠ .

(٣) كنايات الجرجانى ٥٠ .

(٤) كنايات الجرجانى ٤٨ ؛ وقال : هذان ينسبان لدعبل ؛ بعد البيت الأول :

وَإذَا مَا خَبَرْتَهُ شَهِدَ الطَّرْ　　فُ على حُبِّه بما فى الضميرِ

وَإذَا مَا بَحَثْتُ قُلْتُ : كَهذَا　　ثِقَةٌ لِى وَرَأْسُ مالٍ كَبِيرِ

(٥) سقط الزند ٢٣٤ ، وكنايات الجرجانى ٤٨ .

ويقولون : قَرَضَ رِباطَه[1] ؛ أى كاد يموت جهدا وعطشا .

وقالوا فى الدعاء عليه : لا عُدَّ مِنْ نفره ؛ أى إذا عُدّ قومُه ؛ فلا عُدَّ معهم ، وإنما يكون كذلك إذا مات ، قال امرؤ القيس :

فَهْوَ لا تَنْمِي رَمِيَّتُهُ ... مالَهُ لا عُدَّ مِنْ نَفَرِهْ[2]

وهذا إنما يريد به وصفَه ؛ والتعجّب منه ؛ لا أنه يدعو عليه حقيقة؛ كما تقول لمن يجيد الطعن : شَلَّتْ يَدُه ؛ ما أحذقه !

* * *

وقالوا فى الكناية عن الدَّفن : أضلُّوه وأضلُّوا به ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[3] ؛ أى إذا دُفنَّا فى الأرض .

وقال المُخبَّل السعدىّ :

أَضَلَّتْ بنو قَيْس بن سعدٍ عَمِيدَهَا ... وَسَيِّدَها فى الدَّهْرِ قَيْسَ بْنَ عاصِمِ[4]

* * *

ويقولون للمقتول : رَكِب الأشقر ، كناية عن الدم ، وإليه أشار الحارث بن هشام المخزومىّ فى شعره ، الذى يعتذر به عن فِراره يوم بَدْر عن أخيه أبى جهل بن هشام حين قتل :

اللهُ يَعْلَمُ ما تَرَكْتُ قِتالَهُمْ ... حَتَّى عَلَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ[5]

---

(١) الرباط هنا : القلب .

(٢) ديوانه ١٢٥ ؛ وفى شرحه : قوله : « فهو لا تنمى رميته » ؛ أى لا تنهض بالسهم وتغيب عنه ، بل تسقط مكانها لإصابته مقتلها ، يقال : نمت الرمية وأنماها الرامى ، إذا مضت بالسهم فغابت به . . . . وقوله : « لا عد من نفره » دعاء عليه على وجه التعجب .

(٣) سورة السجدة ١٠

(٤) اللسان ١٣ : ٤١٩ ، ورواه : « وفارسها » .

(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٨٥ .

وعلمت أنى إن أقاتلْ واحداً أُقتَلْ ولا يضرُرْ عدُوِّىَ مَشْهَدِى[1]

فصددتُ عنهم والأحبة فيهمُ طَمَعاً لهم بعقاب يوم مرصدِ[2]

أراد بدم أشقر ، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه كناية عنه ؛ والعرب تقيم الصفة مقام الموصوف كثيرا ، كقوله تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾[3] ، أى على سفينة ذات ألواح ، وكقول عنترة :

* تَمْكُو فَرِيصَتُه كَشِدْقِ الأَعْلَمِ[4] *

أى كشدق الإنسان الأعلم ، أو البعير الأعلم .

ويقولون : تَرَكَ فلان بِجَعْجَاعٍ ؛ أى قتيل ، قال أبو قيس بن الأسلت :

مَنْ يَذُقِ الحَرْبَ يجِدْ طَعْمَها مُرّاً وتتركه بِجَعْجَاعِ[5]

أى تتركه قتيلا مُخَلًّى بالفضاء .

***

ومما كنوا عنه قولهم للمقيَّد : هو محمول على الأدهم ؛ والأدهم : القيد ، قال الشاعر :

أَوْعَدَنى بالسِّجْن والأداهِمِ رِجْلِى وَرِجْلِى شَثْنَةُ المَنَاسِمِ

وقال الحجاج للغضبان بن القَبَعْثَرَى : لأحملنك على الأدهم ، فتجاهل عليه ؛ وقال : مثل الأمير حمَل على الأدهم والأشهب[6] .

---

(١) ابن هشام : « ولا يبكى عدوى » .

(٢) ابن هشام : « مفسد » .

(٣) سورة القمر ١٣

(٤) من المعلقة ١٩٢ - بشرح التبريزى ، وصدره :

* وَحَلِيلِ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً *

الحليل : الزوج . والغانية : التى استغنت بزوجها ، أو بحسنها ، وقيل : هى الشابة . وتمكو : تصفر . والفريصة : الموضع الذى يرعد من الدابة والإنسان إذا خاف . والأعلم : المشقوق الشفة العليا .

(٥) جمهرة أشعار العرب ١٢٦ . والجعجاع : المكان الذى ينشف فيه الماء .

(٦) كنايات الجرجانى ٤٢

وقد كنوا عن القَيْد أيضاً بالأسمر ، أنشد ابن عرفة لبعضهم :

فما وَجْدُ صُعلوكٍ بصنعاء موثَقٍ ... بساقيه من سُمْرِ القيود كُبُولُ

قليلُ الموالي مُسْلَمٌ بجريرةٍ ... له بعد نَوْماتِ العيون غَليلُ

يقول له البوّاب أنت معذّبٌ ... غَدَاةَ غدٍ أو رائحٌ فقتيلُ

بأكثرَ من وجدي بكم يوم راعَني ... فراقُ حبيبٍ ما إليه سبيلُ

وهذا من لطيف شعر العرب وتشبيهها .

* * *

ومن كناياتهم عنه : ركبَ رَدْعَه ، وأصله في السهم يُرمى به فيرتدع نصلُه فيه ، يقال: ارتدع السهم، إذا رجع النصل في السِّنْخ متجاوزاً ، فقولهم : ركبَ رَدْعه ، أي وَقَص فدخل عنقه في صَدْره ، قال الشاعر وهو من شعر الحماسة[1] :

تقولُ وصَكّتْ صَدْرَها بيمينها ... أبَعْلِيَ هذا بالرَّحا المُتَقاعِسُ[2] !

فقلتُ لها لا تعجلي وتبيّني ... بلائي إذا التفّتْ عليّ الفوارسُ

ألستُ أرُدُّ القِرْنَ يَرْكَبُ رَدْعَه ... وفيه سِنانٌ ذو غِرارينِ يابسُ[3]

لَعَمْرُ أبيكِ الخَيْرِ إنّي لَخَادِمٌ ... لضيفي وإنّي إنْ ركبتُ لفارسُ

وأنشد الجاحظ في كتاب " البيان والتبيين " لبعض الخوارج[4] :

وَمُسَوَّمٍ للموتِ يَرْكَبُ رَدْعَهُ ... بَيْنَ الأسِنَّةِ وَالقَنَا الخَطّارِ

يَدْنُو وترفعُه الرِّماحُ كأنّهُ ... شِلْوٌ تَنَشَّبَ في مخالبِ ضَارِي

---

(١) الكامل ١ : ١٤٢ — بشرح المرصفي ، قال : « ومما يستحسن ويستجاد قول أعرابي من سعد ابن زيد مناة بن تميم ، وكان مملكاً ، فنزل به أضياف ، فقام إلى الرحا فطحن لهم ، فمرت به زوجته في نسوة ، فقالت لهن : هذا بعلي ! فأعلم بذلك فقال . . . » ، وذكر الأبيات : وقد نسب أبو تمام هذه الأبيات إلى المذلول بن كعب العنبري ؛ وانظر الحماسة — بشرح المرزوقي ٦٩٥

(٢) المتقاعس : الذي يخرج صدره ويدخل ظهره .

(٣) الغرار : الحد .

(٤) البيان والتبيين ١ : ٤٠٦ ، قال : « وذكر أبو العيزار جماعة من الخوارج بالأدب والخطب فقال » .

فَتَوى صَرِيعاً والرماحُ تنوشُهُ إن الشُّرَاةَ قَصيرةُ الأعمارِ[1]

* * *

وقد تطيّرت العرب من لفظة البَرَص، فكنوا عنه بالوَضَح، فقالوا: جذيمة الوضّاح، يريدون الأبرص، وكُني عنه بالأبرَش أيضا، وكل أبيض عند العرب وَضاح، ويسمّون اللبن وَضحاً، يقولون: ما أكثر الوَضَح عند بنى فلان[2]!

* * *

ومما تفاءلوا به قولهم للفلاة التى يظن فيها الهلاك: مَفازة، اشتقاقا من الفَوْز وهو النجاة، وقال بعض المحدَثين:

أحبّ الفأل حين رأى كثيراً أبوهُ عن اقتناء المجدِ عاجزْ[3]
فسمّاه لقلّتـه كثيراً كتلقيب المهالكِ بالمفاوزْ

فأما من قال: إن المفازة «مفعلة» من فوّز الرجل، أى هلك، فإنه يخرج هذه اللفظة من باب الكنايات.

ومن هذا تسميتهم اللديغ سَليما، قال:

كأنى من تذكُّرِ ما ألاقى إذا ما أظلم الليل البهيمُ[4]
سليمٌ ملّ منه أقربوه وأسلمه المجاور والحميمُ

---

(١) توى: هلك. تنوشه: تأخذه وتتناوله، وفى البيان والتبيين بعده:

أدباه إمّا جئتهم خطباءه ضمناه كلّ كتيبة جرّار

(٢) كنايات الجرجانى ٥٣
(٣) كنايات الجرجانى ٥٣
(٤) كنايات الجرجانى ٣، ونسبهما إلى بقيلة، وذكر قبله:

أرقتُ ونامَ عنّى مَنْ يلومُ ولكن لم أنم أنا والهمومُ

وقال أبو تمام فى الشيب[1] :

شُعْلَةٌ فى المفارقِ استودَعَتْنِى ... فى صَمِيمِ الأحشاء ثُكْلاً صَمِيماً[2]

تستثيرُ الهمومَ ما اكتنّ منها ... صُعُدا وهى تستثيرُ الهُموما

دِقّةٌ فى الحياةِ تُدْعَى جَلالا ... مِثْلَما سُمِّىَ اللّدِيغُ سَلِيما

غُرّة بَهْمَةٌ ألا إنّمــا كُنــتُ أغَرَّ أيامَ كنتُ بهيما

حَلَّمتِنِى - زعمتِ - وأرانى ... قبل هذا التَّحْلِيمِ كُنْتُ حَلِيما

ومن هذا قولهم للأعور : ممتّع ، كأنهم أرادوا أنه قد مُتِّع ببقاء إحدى عينيه ؛ ولم يُحْرَمْ ضوءهما معا[3] .

***

ومن كناياتهم على العكس قولهم للأسود : ياأبا البيضاء ؛ وللأسود أيضا : ياكافور ، وللأبيض : ياأبا الجون ؛ وللأقرع : ياأبا الجعد .

وسمّوا الغراب أعور لحدّة بصره ، قال ابن ميّادة :

ألا طرقَتْنا أمّ عمرو ودُونَهــا ... فَيافٍ من البَيْدَاء يَعْشى غُرابُها

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٢٣ ، من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف ، ومطلعها :

إنَّ عَهْداً لوْ تَعْلَمَانِ ذميما ... أنْ تَنَامَا عن ليلتى أو تُنِيما

(٢) قال شارح الديوان : « الشعلة : تحتمل وجهين : أحدهما أن يكون من شعلة النار ، والآخر أن يكون من شعلة الفرس ، يقال : فرس أشعل ، إذا كان فى ذنبه بياض . وقال : « شعلة فى المفارق » ، فصنع بذلك ، لأن الشعلة جرت عادتها أن تكون فى الأذناب ، وهى هنا فى المفارق ، فهى مخالفة لتلك . وصميم كل شىء : خالصه » .

(٣) الجرجانى ٣٠ ، وروى فى ذلك بيتين :

ولُقِّبْتُ بالكافِى عَمًى وجَهالَةً ... وإن كانَ أمرُ العجزِ عندكَ أوْضَحَا

كما سُمِّىَ الأعمَى بَصِيراً وسمِّى اللّــديغُ سَلِيماً ، والمخَلّ ممتّعــا

خَصَّ الغراب بذلك لحدَّة نظره ؛ أى فكيف غيره !

* * *

ومما جاء فى تحسين اللفظ ماروى أنَّ المنصورَ كان فى بستان داره والربيع بين يديه، فقال له : ماهذه الشجرة ؟ فقال : « وِفاق » يا أمير المؤمنين ؛ وكانت شجرة خِلَاف ، فاستحسن منه ذلك .

ومثل هذا استحسان الرشيد قولَ عبدالملك بن صالح ، وقد أهدى إليه باكورة فاكهة فى أطباق خيزُران : بعثتُ إلى أمير المؤمنين فى أطباق قُضْبانٍ تحمل من جنَايا باكورة بستانه ماراج وأينع ؛ فقال الرشيد لمن حضر :ما أحسن ما كَنى عن اسم أمِّنا !

ويقال : إن عبد الملك سبق بهذه الكناية ، وإن الهادىَ قال لابن دأب ، وفى يده عصا : ماجنسُ هذه ؟ فقال : من أصول القنا ـ يعنى الخيزران ، والخيزران أمّ الهادى والرشيد معا .

وشبيه بذلك مايقال : إن الحسنَ بن سهل كان فى يده ضِغْثٌ من أطراف الأراك ، فسأله المأمون عنه : ماهذه ؟ فقال : « محاسنك » يا أمير المؤمنين ، تجنُّبا لأن يقول : « مساوئك » ؛ وهذا لطيف .

ومن الكنايات اللطيفة أنّ عبد الملك بعث الشعبىّ إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وهو أمير مصر يومئذ ، لِيَسْبُرَ أخلاقه وسياسته ، ويعود إليه فيخبره بحاله ، فلما عاد سأله فقال : وجدتهُ أحوجَ الناس إلى بقائك يا أمير المؤمنين ؛ وكان عبد العزيز يُضَعَّف .

ومن الألفاظ التى جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وآله من باب الكنايات قوله صلى الله عليه وآله : « بُعثتُ إلى الأسود والأحمر » ، يريد إلى العرب والعجم ، فكنى عن العرب بالسُّود وعن العجم بالحمر ، والعرب تسمى العجمىّ أحمر ، لأنّ الشقرة تغلب عليه .

قال ابن قتيبة : خطب إلى عَقِيل بن علّفة المرّى ابنتَه هشامُ بن إسمعيل المخزوىّ ـ وكان والىَ المدينة ، وخال هشام بن عبد الملك ـ فردّه ، لأنه كان أبيض شديد البياض ـ وكان عَقِيل أعرابيا جافيا غيورا مفرط الغَيْرة ـ وقال :

رَدَدْتُ صحيفةَ القرشىّ لمّا ... أبت أعراقـــه إلا احمرارا

فردّه ، لأنه توسّم فيه أن بعضَ أعراقه ينزع إلى العجم ، لما رأى من بياض لونه وشُقرته[1] .

ومنه قول جرير يذكر العجم :

يُسَمُّونَنا الأعرابَ والعَرَبُ اسْمُنا ... وأسماؤهم فينــــا رقابُ المزاوِدِ[2]

وإنّما يسمونهم رقاب المزاود ، لأنها حمراء .

* * *

ومن كناياتهم تعبيرهم عن المفاخرة بالمساجلة ، وأصلها من السَّجْل ؛ وهى الدّلو الملىء، كان الرجلان يستقيان ، فأيّهما غلب صاحبَه كان الفوز والفخر له ، قال الفضلُ بن العباس ابن عتبة بن أبى لهب بن عبد المطلب :

وَأنَا الأخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِى ... أخضَرُ الجِلْدَةِ مِنْ بَيْتِ العَرَبْ[3]

مَنْ يساجلْنى يُساجِلْ ماجِداً ... يمــلأ الدّلْو إلى عَقْدِ الكَرَبْ[4]

برســـولِ الله وابنَىْ عمّه ... وبعباس بن عبد المطلب

ويقال : إنّ الفرزدق مرّ بالفضل وهو ينشد : « مَنْ يساجلنى » ، فقال : أنا أساجلك ،

---

(١) عيون الأخبار ٤ : ١٢

(٢) كذا ذكره المؤلف ، ولم أجده فى ديوانه ؛ وفى عيون الأخبار (٤ : ١٢) نسبه لرجل من الأعراب .

(٣) الخبر فى الكامل ١ : ١٩٣ ؛ والأبيات فى ستة مع الخبر ، فى الأغانى ٦ : ١٧٢ وهى فى كنايات الجرجانى ٥١ .

(٤) الكرب : حبل يشد على عراق الدلو .

ونزع ثيابه ، فقال الفضل : « برسول الله وابن عمه » ، فلبس الفرزدق ثيابه، وقال: أعض الله مَنْ يساجلك بما نَفَتِ المواسى من بَظْر أمه ؛ ورواها أبو بكر بن دريد : « بما أبقت المواسى » .

وقد نزل القرآن العزيز على مخرج كلام العرب فى المساجلة ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ [1] ، الذَّنُوب : الدلو ، والمراد ما ذكرناه .

وقال المبرد : المراد بقوله : « وأنا الأخضر » ، أى الأسمر والأسود ، والعرب كانت تفتخر بالسمرة والسواد ، وكانت تكره الحمرة والشقرة ؛ وتقول : إنهما من ألوان العجم .

وقال ابن دُرَيد : مراده أن يبقى ربيعٌ أبدا خصيب ، كثير الخير، لأنَّ الخِصْب مع الخضرة ، وقال الشاعر :

قومٌ إذا اخضرّت نعالهمُ يتناهقون تناهُقَ الحُمُرِ [2]

أى إذا أعشبت الأرض اخضرّت نعالهم من وطئهم إياها، فأغار بعضُهم على بعض ، والتناهق هاهنا : أصواتهم حين ينادون للغارة ، ويدعو بعضهم بعضا ، ونظير هذا البيت قول الآخر :

قومٌ إذا نَبَتَ الربيعُ لَهُمْ نبتَت عداوتُهمْ مع البَقْلِ [3]

أى إذا أخصبوا وشبعوا غزا بعضهم بعضا . ومثله قول الآخر :

يابن هشام أهلكَ النّاسَ اللّبَنْ فكلُّهمْ يغدو بسيف وَقَرَنْ [4]

أى تسفهوا لما رأوا من كثرة اللبن والخصب ، فأفسدوا فى الأرض ، وأغار بعضهم على بعض . والقرَن : الجَعْبة .

---

(١) سورة الذاريات ٥٩ .
(٢) كنايات الجرجانى ٥٢ .
(٣) كنايات الجرجانى ٥٢ .
(٤) كنايات الجرجانى ٥٢ .

وقيل لبعضهم : متى يُخاف من شرّ بنى فلان ؟ فقال : إذا ألبنوا .

***

ومن الكنايات الداخلة فى باب الإيماء قول الشاعر :

فَتًى لايرى قَدَّ القميص بخَصرِهِ ولكنّما يُوهِى القميص عَواتِقُه[1]

لمّا كان سلامة القميص من الخرق فى موضع الخَصْر تابعاً لدقة الخصر ، ووهنُه فى فى الكاهل تابعا لعظم الكاهل ، ذكر مادلّ بهما على دقة خصر هذا الممدوح وعظمَ كاهله :

ومنه قول مسلم بن الوليد :

فرعاء فى فَرْعِها لَيلٌ عَلَى قَمَرٍ عَلَى قضيبٍ على حِقْفِ النَّقا الدّهِسِ[2]

كأنّ قلبى وشاحاها إذا خطرتْ وقَلبَها قُلْبها فى الصَّمْت والخَرَسِ

تجرى محبّتُها فى قَلب عاشقها مجرى السَّلامة فى أعضاء منتكسِ

فلما كان قلق الوشاح تابعا لدقة الخَصْر ذكره دالاً به عليه .

ومن هذا الباب قول القائل :

إذا غَرّدَ المُكّاء فى غَيْر روضة فويلٌ لأهل الشاء والحُرُاتِ[3]

أومأ بذلك إلى الجدْب ؛ لأن المُكّاء يألف الرياض ، فإذا أجدبت الأرض سقط فى غير روضة وغرّد ، فالويل حينئذ لأهل الشاء والحُرُ .

ومنه قول القائل :

لعمرى لنعم الحىّ حىّ بنى كعبٍ إذا جُعِل الخَلخال فى موضِع القُلْبِ

---

(١) كنايات الجرجانى ٥٢ ، وفيه : « كواهله » .

(٢) ملحق ديوانه ٢٠ ، وكنايات الجرجانى ٥٢ ، والحقف ، بالكسر : المعوج من الرمل . والدهس : لون يعلوه أدنى سواد .

(٣) المكاء : طائر أبيض نحو القبرة ، يكون بالحجاز ؛ وله صفير .

القُلْب: السوار ؛ يقول : نعم الحيّ هؤلاء إذا ريع الناس وخافوا ، حتى إنّ المرأة لشدّة خوفها تلبَس الخلخال مكانَ السوار ؛ فاختصر الكلام اختصارا شديدا .

ومنه قول الأفوه الأوديّ :

إنّ بَنِي أوْدٍ هُمُ مَــــــــاهُمُ   للحرْب أو للجدْب عامَ الشُّمُوسِ[1]

أشار إلى الجدب وقلّة السحب والمطر ، أى الأيام التى كلّها أيام شمس وصحو ؛ لاغيم فيها ولا مطر .

فقد ذكرنا من الكنايات والتعريضات وما يدخل فى ذلك ويجرى مجراه من باب الإيماء والرّمز قطعة صالحة ، وسنذكر شيئا آخر من ذلك فيا بعد إن شاء الله تعالى ؛ إذا مررنا فى شرح كلامه عليه السلام بما يقتضيه ويستدعيه .

---

(١) ديوانه ١٦ (ضمن مجموعة الطرائف الأدبية) .

[حقيقة الكناية والتعريض والفرق بينهما]

وقد كنا وعدنا أن نذكر كلاما كليًّا فى حقيقة الكناية والتعريض ، والفرق بينهما ، فنقول :

الكناية قسم من أقسام المجاز ؛ وهو إبدال لفظة عَرَض فى النطق بها مانع بلفظةٍ لا مانعَ عن النطق بها ، كقوله عليه السلام : « قوارات النساء » ؛ لمّا وجد الناس قد تواضعوا على استهجان لفظة « أرحام النساء » .

وأما التعريض فقد يكون بغير اللفظ كدفع أسماء بن خارجة الفصّ الفيروز الأزرق من يده إلى ابن مكعبَر الضّبّى إذ كارّه ؛ بقول الشاعر :

* كذا كلّ ضبّىّ من اللؤم أزرقُ[1] *

فالتعريض إذاً هو التنبيه بفعل أو لفظ على معنى اقتضت الحال العدول عن التصريح به .

وأنا أحكى ها هنا كلام نصر الله بن محمد بن الأثير الجزرىّ فى كتابه المسمى " بالمثل السائر " فى الكناية والتعريض[2] ، وأذكر ما عندى فيه ؛ قال :

خلط أربابُ هذه الصناعة الكناية بالتعريض ، ولم يفصلوا بينهما ، فقال ابن سنان[3] : إن قولَ امرئ القيس :

فصِرْنا إلى الحُسنَى ورقّ كلامُنا   ورُضْتُ فذلّتْ صعبةً أىَّ إذلالِ[4]

---

(١) صدره :

* لقدْ زرِقَتْ عيناكَ يابنَ مُكَعْبَرٍ *

وانظر ص٣١ من هذا الجزء

(٢) المثل السائر ٢ : ١٩١ وما بعدها ؛ مع تصرف فى العبارات .

(٣) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ١٢٦   (٤) ديوانه ٣٢ .

من باب الكناية [١] ، والصحيح أنه من باب التعريض .

قال : وقد قال الغانمىّ والعسكرىّ وابن حمدون وغيرهم نحوَ ذلك ، ومزجوا أحدَ القسمين بالآخر .

قال : وقد حدّ قوم الكناية ، فقالوا : هى اللفظ الدالّ على الشىء بغير الوضع الحقيقىّ ؛ بوصفٍ جامع بين الكناية والمكنىّ عنه ، كاللمس والجماع ، فإن الجماعَ اسم لموضوع حقيقىّ ، واللمس كناية عنه ، وبينهما وصف جامع ، إذ الجماع لمسٌ وزيادة ، فكان دالاً عليه بالوضع المجازىّ .

قال : وهذا الحدّ فاسد ؛ لأنه يجوز أن يكون حدًّا للتشبيه والمشبَّه، فإنّ التشبيه هو اللفظ الدالّ على الوضع الحقيقىّ الجامع بين المشبَّه والمشبّه به فى صفة من الأوصاف ؛ ألا ترى إذا قلنا : زيد أسد ، كان ذلك لفظاً دالاً على غير الوضع الحقيقىّ ؛ بوصف جامع بين زيد والأسد ؛ وذلك الوصف هو الشجاعة [٢] .

قال : وأمّا [٣] أصحابُ أصول الفقه ، فقالوا فى حدّ الكناية : إنها اللفظ المحتمل ؛ ومعناه أنها اللفظ الذى يحتمل الدلالة على المعنى ، وعلى خلافه .

وهذا منقوض بالألفاظ المفردة المشتركة ، وبكثير من الأقوال المركبة المحتملة للشىء وخلافه ؛ وليست بكنايات .

قال : وعندى أنّ الكنايات لا بدّ أنْ يتجاذبها جانبا حقيقة ومجاز ؛ ومتى أفردت جاز حملها على الجانبين معا ؛ ألا ترى أنّ اللمس فى قوله سبحانه : ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [٤]

---

(١) فى المثل السائر : « وهذا مثل ضربه للكناية عن المباضعة » .
(٢) فى المثل السائر بعدها : « ومن هنا وقع الغلط لمن أشرت إليه فى الذى ذكرته فى هذه الكناية » .
(٣) المثل السائر : « علماء » .
(٤) سورة النساء : ٤٣ .

يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ؛ وكلٌّ منهما يصح به المعنى ولا يختل[(1] ولهذا قال الشافعيّ : إن ملامسة المرأة تنقض الوضوء والطهارة[1)] .

وذهب غيرُه إلى أنّ المراد باللمس في الآية الجماع ؛ وهو الكناية المجازية ؛ فكلّ موضع يَرِدُ فيه الكناية ، فسبيله هذا السبيل ؛ وليس التشبيه بهذه الصورة ولا غيره من أقسام المجاز ؛ لأنه لايجوز حملُه إلا على جانب المجاز خاصة ؛ ولو حمل على جانب الحقيقة لاستحال المعنى ؛ ألا ترى أنا إذا قلنا : زيد أسد لم يصحّ أن يحمل إلا على الجهة المجازية ؛ وهي التشبيه بالأسد في شجاعته ، ولايجوز حمله على الجهة الحقيقية ، لأنّ «زيدا» لا يكون سَبُعا ذا أنياب ومخالبَ ، فقد صار إذَنْ حدّ الكناية أنها اللفظ الدالّ على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز ؛ بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز .

قال : والدليل على ذلك أنّ الكناية في أصل الوضع أن تتكلّم بشيء وتريد غيره ، يقال : كَنَيْتُ بكذا عن كذا ، فهي تدلّ على ما تكلّمت به ، وعلى ما أردته من غيره فلا يخلو[2] إمّا أن يكونَ في لفظ تجاذبه[(3] جانبا حقيقة وحقيقة ، أو في لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز ، أو في لفظ لا يتجاذبه أمر . وليس لنا قسم رابع[3)] .

والثاني باطل ، لأن ذاك هو اللفظ المشترك ، فإن أطلق من غير قرينة مخصصة كان مبهما غير مفهوم ، وإن كان معه قرينة صار مخصّصا لشيء بعينه ، والكناية أنّ تتكلّم بشيء وتريد غيره ، وذلك مخالف للفظ المشترك إذا أضيف إليه القرينة ، لأنه يختصّ بشيء واحد بعينه ، ولا يتعدّاه إلى غيره ، والثالث باطل أيضا ، لأنّ المجاز لابد له من حقيقة ينقل عنها لأنه فرع عليها .

(1 — 1) المثل السائر : « ولهذا ذهب الشافعي رحمه الله إلى أن اللمس هو مصافحة الجسد ؛ فأوجب الوضوء على الرجل إذا لمس المرأة ؛ وذلك هو الحقيقة في اللمس » .

(2) المثل السائر : « وعلى هذا فلا تخلو » .

(3 — 3) المثل السائر : « تجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ، أو في لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز ، أو في لفظ تجاذبه جانبا : حقيقة وحقيقة ، وليس لنا قسم رابع » .

وذلك اللفظ الدالّ على المجاز ، إما أنْ يكونَ للحقيقة شركة في الدلالة عليه أو لا يكون لها شركة في الدلالة عليه ، كأن اللفظ الواحد قد دلّ على ثلاثة أشياء : أحدها الحقيقة ، والآخران المجازان .

وهذا مخالف لأصل الوضع ، لأن أصل الوضع أن تتكلَّم بشيء وأنت تريد غيره ، وها هنا يكون قد تكلّمت بشيء وأنت تريد شيئين غيرين ، وإن لم يكن للحقيقة شركة في الدلالة ، كان ذلك مخالفاً لأصل الوضع أيضاً ، إذ أصل الوضع أن تتكلم بشيء وأنت تريدُ غيره ، فيكون الذى تكلّمت به دالّا على غيره ، وإذا أخرجت الحقيقة عن أن يكون لها شركة في الدلالة ، لم يكن الذى تكلّمت به ، وهذا محال ، فثبت إذن أنّ الكناية هي أن تتكلم بالحقيقة وأنت تريد المجاز .

قال : وهذا مما لم يسبقني إليه أحد .

* * *

ثم قال : قد يأتي من الكلام ما يجوزُ أن يكون كناية ، ويجوز أن يكون استعارة ، ويختلف ذلك باختلاف النظر إليه بمفرده والنظر إلى ما بعده . كقول نصر بن سيّار [في أبياته المشهورة التي يحرض بها على بني أميّة عند خروج أبي مسلم][1] :

أرَى خَلَلَ الرَّمادِ وَميضَ جَمْرٍ وَيُوشِكُ أنْ يَكُونَ لَهُ ضِرامُ[2]
فإنّ النارَ بالزّندينِ تُورِي وإنّ الحرْبَ أولُها كلامُ[3]

(١) من المثل السائر .
(٢) الأبيات في الأخبار الطوال ٣٤٠ .
(٣) الأخبار الطوال :

* وإن الشر مبدؤه الكلام *

أقول من التعجب : لَيْتَ شعرى أأيقاظٌ أمَيةُ أم نيـــام ؟[1]

فالبيت الأول لو ورد بمفرده لـكان كناية ، لأنه لا يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز[2] ؛ فإذا نظرنا إلى الأبيات بجملتها ؛ كان البيت الأول المذكور استعارة لا كناية .

***

ثم أخذ فى الفرق بين الـكناية والتعريض ، فقال : التعريض هو اللفظ الدالّ على الشىء من طريق المفهوم ؛ لا بالوضع الحقيقىّ ولا بالمجازىّ ؛ فإنّك إذا قلت لمن تتوقع معروفه وصِلَته بغير طلب : أنا محتاج ولا شىء فى يدى ، وأنا عريانٌ والبرد قد آذانى ؛ فإن هذا وأشباهَه تعريضٌ بالطلب ، وليس اللفظ موضوعا للطلب ، لا حقيقة ولا مجازا ؛ وإنما يدلّ عليه من طريق المفهوم بخلاف قوله : ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاء ﴾[3] . وعلى هذا ورد تفسير التعريض فى خِطبة النكاح ، كقولك للمرأة : أنت جميلة ، أو إنّك خلية وأنا عزَب . فإن هذا وشبهه لا يدلّ على طلب النكاح بالحقيقة ولا بالمجاز ، والتعريض أخفى من الـكناية ، لأنّ دلالة الـكناية وَضْعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم المركّب ، وليست وضعية ؛ وإنما يسمى التعريض تعريضا ؛ لأنّ المعنى فيه يُفهم من عُرْض اللفظ المفهوم ، أى من جانبه .

***

(١) الأخبار الطوال : « أقول » ؛ وبعده فى المثل السائر :

فَإِنْ هَبُّوا فَذَاكَ بَقَاءُ مُلْكٍ وَإِنْ رَقَدُوا فَإِنِّى لَا أُلَامُ

وبعده فى الأخبار الطوال :

فَإِنْ يَكُ أَصْبَحُوا وَثَوَوْا نِيَامًا فَقُلْ قُومُوا فَقَدْ حَانَ الْقِيَامُ

(٢) فى المثل السائر بعد هذه الـكلمة : « أما الحقيقة فإنه أخبر أنه رأى وميض جمر فى خلل الرماد ؛ وأنه سيضطرم ؛ وأما المجـاز فإنه أراد أن هنـاك ابتداء شر كامن ، ومثـله بوميض جمر من خلال الرماد » .

(٣) فى المثل السـائر : « بخلاف دلالة اللمس على الجماع » .

قال : واعلم أنّ الكناية تشتمل على اللفظ المفرد ، واللفظ المركّب ؛ فتأتى على هذا مرّة ، وعلى هذا أخرى ؛ وأمّا التعريض فإنه يختصّ باللفظ المركب ، ولا يأتى فى اللفظ المفرد ألبتة ، لأنه لا يُفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ، ولا من جهة المجاز ، بل من جهة التلويح والإشارة ، وهذا أمر لا يستقلّ به اللفظ المفرد ، ويحتاج فى الدلالة عليه إلى اللفظ المركب .

قال : فقد ظهر فيما قلنا فى البيت الذى ذكره ابن سنان مثال الكناية ، ومثال التعريض هو بيت امرىء[1] القيس ؛ لأن غرض الشاعر منه أن يذكر الجماع ؛ إلا أنه لم يذكره بل ذكر كلاما آخر ، فنهم الجماع من عرضه ، لأنّ المصير إلى الحسنى ورقة الكلام لا يدلان على الجماع ، لا حقيقة ولا مجازا .

ثم ذكر أن من باب الكناية قوله سبحانه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ . . .[2] ﴾ الآية .

قال : كنّى بالماء عن العلم ، وبالأودية عن القلوب ، وبالزّبد عن الضلال .

قال : وقد تحقق ما اخترعناه وقدرناه من هذه الآية ؛ لأنه يجوز حملها على جانب الحقيقة ، كما يجوز حملها على جانب المجاز .

قال : وقد أخطأ القرّاء حيث زعم أن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ[3] ﴾ كناية عن أمر النبيّ صلى الله عليه وآله ، وأنه كنى عنه بالجبال .

قال : ووجه الخطأ أنّه لا يجوز أن يتجاذب اللفظَ ها هنا جانبا الحقيقة والمجاز ؛ لأنّ مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال الحقيقية ، فالآية إذاً من باب المجاز لا من باب الكناية .

---

(١) هو بيت امرىء القيس :

فصِرْنا إلى الحُسنى وَرَقَّ كَلامُنا ... وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أيَّ إذْلالِ

(٢) سورة الرعد ١٧ .

(٣) سورة إبراهيم ٤٦ .

قال : ومن الكنايات المستحسنة قوله عليه السلام للحادى بالنساء : « يا أنجشة رِفقا بالقوارير » .

وقول امرأة لرجل قعد منها مقعد القابلة : لا يحلُّ لكَ أنْ تَفُضّ الخاتم إلا بحقّه .

وقول بُدَيْل بن ورقاء الخزاعىّ لرسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ قريشا قد نزلت على ماء الحُدَيبِيَة معها العُوذ المطافيل ، وإنّهم صادوك عن البيت .

قال : فهذه كناية عن النساء والصبيان ، لأنّ العُوذَ المطافيل : الإبل الحديثات النتاج ومعها أولادها .

ومن الكناية ما ورد فى شهادة الزنا ، أن يُشهد عليه برؤية المِيل فى المكحُلة .

ومنها قول عمر لرسول الله صلى الله عليه وآله : هلكتُ يا رسول الله ، قال : « وما أهلكك ؟ » ، قال : حوّلت رحلى البارحة[1] . قال : أشار بذلك إلى الإتيان[2] فى غير المأتى .

ومنها قول ابن سلّام لمن رأى عليه ثوبا معصفرا : « لو أنّ ثوبك فى تنُّور أهلك لكان خيرا لك » .

* * *

قال : ومن الكنايات المستقبحة قول الرضىّ يرثى امرأة :

* إن لم تكن نَصْلا فغِمدُ نُصُولِ *

لأن الوهم يسبق فى هذا الموضع إلى ما يقبح ، وإنما سرقه من قول الفرزدق فى امرأته وقد ماتت بجُمْع :

وَجَفْنِ سِلَاحٍ قَدْ رُزِئْتُ فلم أَنُحْ عَلَيْهِ ، ولم أبعثْ عليه البواكيا[3]

(١) فى المثل السائر بعدها : « فقال له النبي صلى الله عليه وسلم » : أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة .
(٢) فى ا ، ج : « إتيان » .
(٣) ديوانه ٨٨٤ ، وانظر ص ٤٠ من هذا الجزء .

وفى جوفه من دارمٍ ذو حفيظة   لو أنّ المنايا أخطأته لياليا

فأخذه الرضىّ فأفسده ولم يحسن تصريفه .

قال : وأمّا أمثلة التعريض فكثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾[1] ، فقوله : ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ تعريضٌ بأنّهم أحقّ بالنبوّة ، وأنّ الله تعالى لو أراد أنْ يجعلَها فى واحد من البَشَر لجعلها فيهم ؛ فقالوا : هبْ أنّك واحد من الملإ وموازيهم فى المنزلة ، فما جعلك أحقّ بالنبوّة منهم ! ألا ترَى إلى قوله : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ .

هذه خلاصة ما ذكره ابن الأثير فى هذا الباب .

واعلم أنّا قد تكلّمنا عليه فى كثير من هذا الموضع فى كتابنا الذى أفردناه للنقض عليه ؛ وهو الكتاب المسمّى بـ « الفلك الدائر على المثل السائر » فقلنا[2] أولا : إنه اختار حدّ الكناية وشرَع يبرهِنُ على[3] التحديد ، والحدود لا يبرهَن عليها ؛ ولا هِيَ مِنْ باب الدّعاوى التى تحتاج إلى الأدِلّة ؛ لأنّ مَنْ وَضَع لفظ الكناية لمفهوم مخصوص لا يحتاج إلى دليل ، كمَنْ وضع لفظ الجدار للحائط لا يحتاج إلى دليل .

ثم يقال له : لِمَ قلت : إنّه لابدّ من أنْ يتردّد لفظ الكناية بين محلّيْ حقيقةٍ ومجاز ؟ ولِمَ لا يتردّد بين مجازيْن ؟ وما استدللتَ به على ذلك لامعنى له . . .

أما أولاً ؛ فلأنك أردت أن تقول : إمّا أنْ تكون للّفظةِ الدالّة على المجازيْن شركة فى الدلالة على الحقيقة ، أولا يكون لها فى الدلالة على الحقيقة شركة ؛ لأنّ كلامك هكذا يقتضى ، ولا ينتظم إلا إذا قلت هكذا فلم تقله ، وقلت : إمّا أن يكون للحقيقة شركة فى

---

(١) سورة هود ٢٧ .

(٢) الفلك الدائر ١٧٠ وما بعدها ، مع اختلاف فى العبارة .

(٣) ا ، ج : « عن » .

اللفظ الدالّ على المجازين ؛ وهذا قلب للكلام الصحيح وعكس له .

وأمّا ثانيا فلم قلتَ : إنه لا يكون للفظة الدالّة على المجازين شَرِكة فى الدلالة على الحقيقة التى هى أصل لها ؛ فأما قولك هذا فيقتضى أن يكون الإنسان متكلّما بشىء وهو يريد شيئين غيره ؛ وأصلُ الوَضع أن يتكلم بشىء وهو يريد غيره ؛ فليس معنى قولهم : الكناية أن تتكلّم بشىء وأنت تريد غيره ؛ أنكَ تريد شيئا واحدا غيره ؛ كلّا ليس هذا هو المقصود ، بل المقصود أنْ تتكلّم بشىء وأنت تريد ماهو مغاير له ؛ وإن أردت[1] شيئا واحدا[1] أو شيئين أو ثلاثة أشياء أو مازاد ؛ فقد أردت ماهو مغاير له ؛ لأنّ كلّ مغاير لما دلّ عليه ظاهر لفظك فليس فى لفظه غير ما يقتضى الوحدة والإفراد .

وأما ثالثا فلم لا يجوز أن يكون للفظ الدال على المجازين شركة فى الدلالة على الحقيقة أصلا ، بل يدلّ على المجازين فقط ! فأمّا قولك إذا خرجت الحقيقة عن أن يكون لها فى ذلك شركة لم يكن الذى تكلّمت به دالّا على ما تكلّمت به وهو محال ؛ ومرادك بهذا الكلام المقلوب أنه إذا خرجت اللفظة عن أن يكون لها شركة فى الدّلالة على الحقيقة التى هى موضوعة لها فى الأصل لم يكنْ ماتكلم به الإنسانُ دالاً على ماتكلّم به وهو حقيقة ؛ ولا دالا أيضاً على ماتكلّم به وهو مجاز ؛ لأنه إذا لم يدلّ على الحقيقة ، وهى الأصل ؛ لم يجز أن يدلّ على المجاز الذى هو الفرع ؛ لأنّ انتفاء الدلالة على الأصل ؛ يوجب انتفاء الدلالة على الفرع ؛ وهكذا يجب أن يُتأولَ استدلاله ؛ وإلّا لم يكن له معنى محصّل ؛ لأن اللفظ هو الدّال على مفهوماته ؛ وليس المفهوم دالّا على اللفظ ، ولا له شركة فى الدلالة عليه ؛ ولا على مفهوم آخر يعترض اللفظ بتقدير انتقال اللفظ ؛ اللّهمّ إلا أنْ يكون دلالة عقلية ؛ وكلامُنا فى الألفاظ ودلالتها[2] .

(١ ــ ١) ساقط من ب ، وأثبته من ا ، ج .
(٢) ا : « وأدلتها » .

فإذا أصلحنا كلامه على ماينبغى ، قلنا له فى الاعتراض عليه : لم قلتَ إنه إذا خرج اللفظُ عن أن يكون له شركة فى الدّلالة على الحقيقة ؛ لم يكن ماتكلّم به الإنسان دالًّا على ماتكلم به ؟ ولم لا يجوزُ أن يكون للحقيقة مجازان قد كثر استعمالهما حتى نسيتْ تلك الحقيقة ؛ فإذا تكلّم الإنسان بذلك اللفظ كان دالًّا به على أحد ذَيْنِك المجازين ، ولا يكون له تعرُّضٌ مابتلك الحقيقة ، فلا يكون الذى تكلم به غير دالٍ على ماتكلم به ؛ لأن حقيقة تلك اللفظة قد صارتْ ملغاة منسية؛ فلا يكون عدمُ إرادتها موجبا أنْ يكون اللفظ الذى يتكلم به المتكلم غير دالٍ على ماتكلم به ؛ لأنها قد خرجت بترك الاستعمال ؛ عن أنْ تكون هى ماتكلم به المتكلم .

ثم يقال : إنك منعت أن يكون قولنا: «زيدأسد» . كناية ، وقلت:لأنه لايجوز أن يحمل أحد هذا اللفظ على أن « زيدا » هو السبع ذو الأنياب والمخالب ؛ ومنعت من قول الفرّاء إن الجبال فى قوله : ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ كناية عن دعوة محمد صلى الله عليه وآله وشريعته؛ لأنّ أحداً لا يعتقد ولا يتصوّر أنّ مكرَ البشر يزيل الجبال الحقيقية عن أماكنها ، ومنعتَ مِنْ قول مَنْ قال إن قول الشاعر :

* وَلَوْ سَكَتُوا أثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ[(١)] *

من باب الكناية ، لأنّ أحداً لا يتصوّر أنّ الحقائب – وهى جمادات – تُثنى وتشكر .

وقلت : لا بدّ أن يصحّ حمل لفظ الكناية على محلّ الحقيقة والمجاز ، ثم قلت: إنّ

---

(١) لنصيب ؛ من أبيات يمدح فيها سليمان بن عبد الملك وصدره :

* فَعَاجُوا فَأثْنَوا بِالَّذِى أنْتَ أهْلُهُ *

البيان والتبيين ١ : ٨٢ .

قول عبد الله بن سلّام لصاحب الثوب المعصفر : « لو أنك جعلت ثوبك فى تنُّور أهلك » كناية ، وقول الرضىّ فى امرأة ماتت :

« إنْ لَمْ تَكُنْ نَصْلاً فَغِمْدُ نُصُولِ »

كناية ، وإن كانت مستقبحة ، وقول النبىّ صلى الله عليه وآله : « يا أنجشة رفقا بالقوارير » ؛ وهو يحدو بالنساء كناية ؛ فهل يجوز عاقل قطّ أو يتصوّر فى الأذهان أن تكون المرأة غِمْدَ السيف ! وهل « يحيل[1] أحد » قطّ قوله للحادى « رفقا بالقوارير » على أنه يمكن أن يكون نهاه عن العُنف بالزُّجاج ؛ أو يحمل أحدٌ قطّ قول ابن سلّام على أنه أراد إحراق الثوب بالنار ، أو يحمل قطّ أحدٌ قوله : « الميل فى المكحلة » على حقيقتها ، أو يحمل قطّ أحد قوله : « لا يحل لك فضّ الخاتم » على حقيقته ! وهل يشكّ عاقل قطّ فى أنّ هذه الألفاظ ليست دائرة بين الحملين دَوَرَان اللمس والجماع وللمصافحة ، وهذه مناقضة ظاهرة ، ولا جوابَ عنها إلّا بإخراج هذه المواضع من باب الكناية ، أو بحذف ذلك الشرط الذى اشترطته فى حدّ الكناية .

* * *

فأمّا ما ذكره حكايةً عن غيره فى حَدّ الكناية بأنّها اللفظ الدالّ على الشىء بغير الوضع الحقيق ؛ بوصف جامع بين الكناية والمكنىّ عنه ، وقوله : هذا الحدّ هو حدّ التشبيه ؛ فلا يجوز أنْ يكونَ حدّ الكناية .

فلقائل أن يقول : إذا قلنا : زيد أسد ، كان ذلك لفظاً دالاً على غير الوضع الحقيقىّ ، وذلك المدلول هو بعينه الوصف المشترك بين المشبّه والمشبّه به ؛ ألا ترى أنّ المدلولَ هو الشجاعة ؛ وهى المشترك بين زيد والأسد ؛ وأصحاب الحدّ قالوا فى حَدّهم : الكناية هى اللفظ الدالّ على الشىء بغير الوضع الحقيقى ؛ باعتبار وصف جامع بينهما ؛ فجعلوا المدلولَ أمراً

---

(١) ب : « يحمل قط » .

والوصف الجامع أمراً آخر باعتباره وقت الدلالة ، ألا ترى أنّ لفظ ﴿ لَامَسْتُمُ ﴾ يدلّ على الجماع الذي لم يوضع لفظ ﴿ لَامَسْتُمُ ﴾ له ، وإنما يدلّ عليه باعتبار أمر آخر ؛ هو كون الملامسة مقدّمة الجماع ومفضية إليه ! فقد تغاير إذن حدّ التشبيه[1] وحدُّ الكناية، ولم يكن أحدُهما هو الآخر .

* * *

فأما قوله : إن الكناية قد تكون بالمفردات والتعريض لا يكون بالمفردات ، فدعوى ؛ وذلك أنّ اللفظ المفرد لاينتظِمُ منه فائدة ، وإنما تفيد الجملة المركبة من مبتدأ وخبر ، أو من فعل وفاعل ؛ والكناية والتعريض فى هذا الباب سواء ؛ وأقلّ مايمكن أن يفيد فى الكناية قولك : لامست هنداً ، وكذلك أقلّ مايمكن أن يفيد فى التعريض : « أنا عزب » ، كما قد ذكره هو فى أمثلة التعريض . فإن قال : أردت أنه قد يقال : اللّمس يصلح أن يُكْنَى به عن الجماع ، واللمس لفظ مفرد ، قيل له : وقد يقال: التعزّب يصلح أن يعرّض به فى طلب النكاح .

* * *

فأمّا قوله : إن بيت نصر بن سيّار ، إذا نظر إليه لمفرده صَلَح أن يكون كنايةً، وإنّما يخرجه عن كونه كناية ضمُّ الأبيات التى بعدَه إليه ، ويدخله فى باب الاستعارة ، فلزم عليه أن يخرج قول عمر : « حوّلت رَحْلِي » عن باب الكناية بما انضمّ إليه من قوله : « هلكت » ؛ وبما أجابه رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله : « أقبِلْ وأدبِرْ واتق الدُّبر والحَيْضة » ؛ وبقرينة الحال . وكان يجب ألا تُذكر هذه اللفظة فى أمثلة الكنايات .

فأما بيت امرئ القيس فلا وجه لإسقاطه من باب الكناية وإدخاله فى باب

(١) ا ، ج « هو والكناية » .

التعريض ؛ إلا فيما اعتمد عليه ؛ من أنّ من شرط الكناية أن يتجاذبها جانبا حقيقة ومجاز . وقد بيّنا بطلان اشتراط ذلك ؛ فبطل مايتفرّع عليه .

وأما قول بُدَيل بن ورقاء : « معها العُوذُ المَطَافيل » فإنه ليس بكناية عن النساء والأولاد كما زعم ؛ بل أراد به الإبل ونتاجها ؛ فإنّ كتب السِّيَر كلّها متفقة على أن قُريشا لم يخرج معها فى سنة الحديبيَة نساؤها وأولادها ، ولم يحارب رسول الله صلى الله عليه وآله قوماً أحضروا معهم نساءهم وأولادهم ؛ إلا هَوازِن يوم حُنَين ، وإذا لم يكن لهذا الوجه حقيقة ولا وجود ؛ فقد بطل حمل اللفظ عليه .

فأما ماأزرَى به على الرضىّ رحمه الله تعالى من قوله :

* إن لم تكنْ نَصْلًا فغِمْدُ نُصُولِ *

وقوله : هذا مما يسبق الوهم فيه إلى مايستقبَح واستحسانه شعرَ الفرزدق وقوله : إن الرضىّ أخذه منه فأساء الأخذ ، فالوَهْم الذى يسبق إلى بيت الرضىّ يسبق مثله إلى بيت الفرزدق ؛ لأنّه قد جعل هذه المرأة جَفْن السلاح ؛ فإن كان الوَهْمُ يسبق هناك إلى قبيح فهاهنا أيضا يسبق إلى مثله .

وأما الآية التى مثّل بها على التعريض ؛ فإنه قال : إن قوله تعالى : ﴿ مَانَرَاكَ إلَّا بَشَراً مِثْلَنَا ﴾ تعريض بأنّهم أحقّ بالنبوّة منه ، ولم يبين ذلك ؛ وإنما قال : فحوى الكلام أنّهم قالوا له : هب أنّك واحد من الملأ وموازيهم فى المنزلة ، فما جَعَلك أحقّ بالنبوة منهم؟ ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾! وهذا الكلام لايقتضى ماادّعاه أولا من التعريض ؛ لأنه ادّعى أن قوله : ﴿ مَانَرَاكَ إلَّا بَشَراً مِثْلَنَا ﴾ تعريض بأنّهم أحقّ بالنبوّة منه ؛ وما قرّره به يقتضى مساواته لهم ، ولايقتضى كونَهُم أحقّ بالنبوة منه، فبطلَ دعوى الأحقيّة ، التى زعم أنّ التعريض إنما كان[1] بها .

***

(١) ا : « يكون » .

فأما قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا﴾، وقوله: إن هذا من باب الكناية وأنه تعالى كَنَى به عن العلم والضلال وقلوب البشر، فبعيد، والحكيم سبحانه لا يجوز أن يخاطب قوماً بلغتهم؛ فيعمّى عليهم، وأن يصطلح هو نفسه على ألفاظ لا يفهمون المراد بها، وإنما يعلمها هو وحده؛ ألا ترى أنه لا يجوز أن يحمل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[1] على أنه أراد أنا زينّا رءوس البشر بالحواس الباطنة والظاهرة المجعولة فيها؛ وجعلناها بالقوى الفكرية والخيالية المركبة فى الدّماغ راجمة وطاردة للشُّبه المضلّة؛ وإنّ مَنْ حمل كلام الحكيم سبحانه على ذلك فقد نسبه إلى الإلغاز والتعمية؛ وذلك يقدح فى حكمته تعالى. والمراد بالآية المقدم ذكرُها ظاهرُها، والمتكلف لحملها على غيرها سخيفُ العقل؛ ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾[2]؛ أفترى الحكيم سبحانه يقول: إن الذهب والفضة زبداً مثل الجهل والضلال! ويبين ذلك قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[2]؛ فضرب سبحانه الماء الذى يبقى فى الأرض فينتفع[3] به الناس، والزّبد الذى يعلو فوقَ الماء فيذهب جفاء مثلاً للحق والباطل، كما صرّح به سبحانه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾[2]؛ ولو كانت هذه الآية من باب الكنايات — وقد كنى سبحانه بالأودية عن القلوب، وبالماء الذى أنزله من السماء عن العلم، وبالزّبد عن الضلال — لما جعل تعالى هذه الألفاظ أمثالا، فإن الكناية خارجة عن باب المثل، ولهذا لا نقول إن قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ من باب المثل، ولهذا أفرد هذا الرجل فى كتابه باباً آخر غير باب الكناية، سمّاه باب المثل، وجعلهما قسمين متغايرين فى علم البيان، والأمر فى هذا

---

(١) سورة الملك ٥

(٢) سورة الرعد ١٧

(٣) ا: « لينفع ».

الموضع واضح ، ولكنّ هذا الرجل كان يحبّ هذه الترّهات ، ويُذهِب وقته فيها ، وقد استقصينا فى مناقضته والردّ عليه فى كتابنا الذى أشرنا إليه .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « كُلَّمَا نَجَمَ منهم قَرْنٌ قطع » ، فاستعارة حسنة ، يريد : كلّما ظهر منهم قوم استؤصلوا ، فعبّر عن ذلك بلفظة « قَرْن » كما يقطع قَرْن الشّاة إذا نجم ؛ وقد صح إخبارُه عليه السلام عنهم أنّهم لم يهلكوا بأجمعهم فى وقعة النّهروان ، وأنّها دعوة سيدعو إليها قوم لم يخلقوا بعد ، وهكذا وقع وصحّ إخباره عليه السلام أيضاً أنه سيكون آخرهم لصوصاً سَلّابين ؛ فإن دعوة الخوارج اضمحلّت ، ورجالها فنيت ، حتى أفضى الأمرُ إلى أن صارَ خَلَفُهم قُطّاع طريق ، متظاهرين بالفسوق والفساد فى الأرض .

[مقتل الوليد بن طريف الخارجىّ ورثاء أخته له]

فمن انتهى أمره منهم إلى ذلك الوليد بن طريف الشيبانىّ[1] ، فى أيام الرّشيد بن المهدىّ ، فأشخص إليه يَزيد بن مزيد الشيبانىّ فقتله ، وحمل رأسه إلى الرشيد ، وقالت أخته ترثيه ، وتذكر أنّه كان من أهل التُّقى والدين ، على قاعدة شعراء الخوارج ، ولم يكن الوليد كما زعمت :

أيَا شَجرَ الخَابُورِ مالَكَ مُورِقًا ... كَأنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ[2]

فَتًى لايُحِبّ الزادَ إلّا مِنَ التُّقَى ... ولا المَالَ إلا مِنْ قَنًا وسيوفِ

---

(١) انظر ترجمة الوليد بن طريف فى ابن خلكان ٢ : ١٧٩

(٢) هى الفارعة بنت الوليد ؛ من قصيدة طويلة ؛ نقلها ابن خلكان فى ترجمة الوليد ، وقال : « وكان للوليد المذكور أخت تسمى الفارعة — وقيل فاطمة — تجيد الشعر وتسلك سبيل الخنساء فى مراثيها لأخيها صخر ، فرثت الفارعة أخاها بقصيدة أجادت فيها ؛ وهى قليلة الوجود ؛ ولم أجد فى مجاميع كتب الأدب إلا بعضها ؛ حتى إن أبا على القالى لم يذكر منها فى أماليه سوى أربعة أبيات ، فاتفق أنى ظفرت بها كاملة فأثبتها لغرابتها وحسنها ؛ وهى هذه » . وأورد القصيدة ومنها أبيات فى أمالى القالى ٢ : ٢٨٤ ، واللآلى ٩١٣ ، وشرح شواهد المغنى ٥٥ .

ولا الذُّخْرَ إلا كلّ جرداء شَطْبَةٍ ... وكلّ رقيق الشَّفرَتَين خفيفِ [1]
فَفَدَناكَ فِقدانَ الربيع وليتنا ... فَدَيناك من سَادَاتِنــا بألوفِ

وقال مُسلم بن الوليد يمدح يزيد بن مزيد، ويذكر قتله الوليد :

والمارقُ ابنُ طريفٍ قد دَلَفتَ لَهُ ... بعارضٍ للمنايا مُسْبِلٍ هَطِلِ [2]
لو أن شيئاً بَكَى مما أطاف به ... فازَ الوليد بِقِدْحِ النَّاضِلِ الخَصِلِ [3]
ما كان جمعُهُم لَمّا لقيتَهُمُ ... إلا كرِجْلِ جَرادٍ ريعَ مُنْجَفِلِ [4]
فاسلمْ يزيدُ فما في المُلك من أَوَدٍ ... إذا سلمتَ، ولا في الدين من خَلَلِ

* * *

[خروج ابن عمرو الخثعميّ وأمره مع محمد بن يوسف الطائيّ]

ثم خرج في أيام المتوكل ابنُ عمرو الخثعميّ بالجزيرة فقطَعَ الطريق، وأخاف السبيل وتسمّى بالخلافة، فحاربه أبو سعيد محمد بن يوسف الطائيّ الثغريّ الصامتيّ؛ فقتل كثيراً من أصحابه، وأسرَ كثيراً منهم ونجا بنفسه هارباً، فمدحه أبو عُبادة البحتريّ، وذكر ذلك فقال :

كُنّا نُكَفِّرُ من أُميَّةَ عُصْبَةً ... طَلَبُوا الخلافةَ فَجْرَةً وفُسُوقا [5]
وَنَلومُ طلحــةَ والزبيرَ كِلَيْهِما ... وَنَعنِّفُ الصِّدِّيقَ وَالفَارُوقا
ونقول: تيمٌ أقربت وعَدِيُّها ... أمراً بعيداً حيثُ كانَ سَحِيقا
وهمُ قريشُ الأبطحونَ إذا انتموا ... طابُوا أُصُولاً في العُلاَ وَعُرُوقا

(١) الجرداء: الفرس القصيرة الشعر. والشطبة: السبطة اللحم.
(٢) ديوانه ١٨، وفيه: «بعسكر للمنايا».
(٣) الخصل: المصيب. (٤) الديوان: «كَثَلِّ نعام».
(٥) ديوانه ٢: ١٤٥٤؛ من قصيدة أولها:

أأفاقَ صبٌّ مِن هوًى فَأُفيقا ... أمْ خانَ عَهْدًا أمْ أطاعَ شَفيقا

حتّى غدَتْ جُشَمُ بن بكر تبتغِي ... إرْثَ النبيّ وتدّعِيـــه حُقُوقا
جاءوا براعيهمْ ليتّخـــذوا به ... عَمْداً إلى قطع الطريق طريقـا
عَقَدُوا عِمَامَتَه برأس قَنَــاتِهِ ... ورأوْه برّاً فاستحـــال عقوقا
وأقامَ يُنفِذ فى الجزيرة حكمَه ... ويظنُّ وَعْدَ الـكاذبين صدوقا
حتى إذا ما الحيّةُ الذكرانكفى ... من أرْزَنٍ حَرِباً يمجُّ حَرِيقَا[1]
غضبان يلقى الشمس منه بهامةٍ ... يُعْشِى العيون تألّقاً وبُرُوقا
أوْفَى عليه فظلَّ من دَهش يظن البَرّ بحراً والفضاء مَضِيقــــا
غـــدرت أمانيه به وتمزّقَتْ ... عَنْــــه غيابةُ سُكْرِهِ تمزيقاَ
طلعتْ جيادُك من رُبا الجودىّ قد ... حُمّلْنَ من دَفْعِ المنون وُسُوقا
فدعا فريقاً من سُيوفِك حتفهم ... وشَدَدْتَ فى عِقْدِ الحديد فريقا
ومضى ابن عَمْرو قد أساء بعمره ... ظنّا يمزّق مهرَه تمزيقــــا
فاجتاز دِجْــلة خائضاً وكأنها ... قَعْبٌ على باب الـكحيل أُريقا
لو خاضها عُلَيق أو عوج إذاً ... ماجوّزت عُوجاً ولا عليقـــا
لولا اضطرابُ الخوف فى أحشائه ... رسب الحُباب به فمات غريقا
لو نفّسته الخيـــلُ لفتة ناظرٍ ... ملأ البـــلادَ زلازلا وفتوقا
لثنَى صُدُورالخيل تكشف كُرْبَةً ... ولوَى رماحَ الخطّ تفرج ضيقا[2]
ولبـكرت بَـكْرٌ وراحت تَغلِبٌ ... فى نصر دعوته إليــه طُرُوقا
حتى يعودَ الذئب ليثاً ضيغماً ... والغصن ساقاً والقرارة نِيقاً

(١) أرزن : موضع ، والحرب : الغضبان .
(٢) رواية الديوان :
لثنَى صُدُورَ الشُمرِ تـكشفُ كُرْبَةً ... ولَوَى رُءوسَ الخَيْلِ تفرج ضيقا

هَيْهاتَ مارس فيلقا متيقظاً ... قَلِقاً إذا سكن البليد رَشِيقا
مستسلفاً جعل الغَبُوق صَبُوحَه ... وَمَرَى صبوح غدٍ فكان غَبُوقا

وهذه القصيدة من ناصع شعر البحترى ومختاره .

* * *

[ذكر جماعة ممن كان يرى رأى الخوارج]

وقد خرج بعد هذين جماعة من الخوارج بأعمال كِرْمان وجماعة أخرى من أهل عُمان لا نباهة لهم، وقد ذكرهم أبو إسحق الصابى فى الكتاب " التاجى " [1] وكلهم بمعزل عن طرائق سلفهم؛ وإنما وَكْدُهم وقصدهم إخافة السبيل، والفساد فى الأرض، واكتساب الأموال من غير حِلّها. ولا حاجة لنا إلى الإطالة بذكرهم. ومن المشهورين برأى الخوارج الذين تَمّ بهم صدق قول أمير المؤمنين عليه السلام : إنهم نُطف فى أصلاب الرجال وقرارات النساء؛ عِكْرمة مولى ابن عباس، ومالك بن أنس الأصبحى الفقيه، يروى عنه أنه كان يذكر عليا عليه السلام وعثمان وطلحة والزبير، فيقول : والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر .

ومنهم المنذر بن الجارود العبدىّ ، ومنهم يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج .

وروى أنّ الحجاج أُتِىَ بامرأة من الخوارج وبحضرته مولاه يزيد بن أبى مسلم؛ وكان يستسرّ برأى الخوارج ، فكلّم الحجاج المرأة فأعرضت عنه ، فقال لها يزيد : الأمير ـ ويلك ـ يكلّمك ! فقالت : بل الويل لك أيها الفاسق الردىء! والردىء عند الخوارج هو الذى يعلم الحقّ من قولهم ويكتمه .

ومنهم صالح بن عبد الرحمن صاحب ديوان العراق .

وممن ينسب إلى هذا الرأى من السلف جابر بن زيد وعمرو بن دينار ومجاهد .

وممن ينسب إليه بعد هذه الطبقة أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمىّ ، يقال : إنه كان يرى رأى الصُّفْرية .

---

(١) كتاب التاجى فى أخبار دولة بنى بويه ، ذكره ابن النديم .

ومنهم اليمان بن رباب ، وكان على رأى البيهسيّة[1] ، وعبد الله بن يزيد ومحمد بن حرب ويحيى بن كامل ، وهؤلاء إباضيّة[2] .

وقد نسب إلى هـذا المذهب أيضاً من قبل أبو هارون العبدى ، وأبو الشعثاء ، وإسماعيل بن سميع ، وهبيرة بن بريم .

وزعم ابن قتيبة أن ابن هبيرة كان من غُلاة الشّيعة .

ونُسِب أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد إلى رأى الخوارج لإطنابه فى كتابه المعروف بـ " الكامل " فى ذكرهم وظهور الميلِ منه إليهم .



(١) البيهسية : أصحاب أبى بيهس الهيصم بن جابر ؛ كان الحجاج طلبه فى أيام الوليد فهرب إلى المدينة ؛ فطلبه بها عثمان بن حيان ، فظفر به وحبسه ؛ وكان يسامره إلى أن ورد كتاب الوليد بأن يقطع يديه ورجليه ثم يقتله ؛ ففعل به ذلك . وبقية أخباره وأقواله فى الشهرستانى ١١٣ .

(٢) الإباضية : أصحاب عبدالله بن إباض ؛ خرج فى أيام مروان ؛ وانظر أخباره وأقواله فى الشهرستانى ١ : ١٢١ .

(٦٠)

الأصل

وقال عليه السلام فى الخوارج :

لَا تُقَاتِلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِى ؛ فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ .

قال الرضىّ رحمه الله :

يَعْنى معاويةَ وأصحابه .



الشرح :

مراده أن الخوارج ضلّوا بشبهة دخلت عليهم ؛ وكانوا يطلبون الحقّ ؛ ولهم فى الجملة تمسّك بالدين ، ومحاماة عن عقيدة اعتقدوها ، وإن أخطئوا فيها ؛ وأما معاوية فلم يكنْ يطلبُ الحقّ ؛ وإنما كان ذا باطل ، لا يحامى عن اعتقاد قد بناه على شبهة ، وأحواله كانت تدلّ على ذلك ؛ فإنه لم يكن من أرباب الدين ، ولا ظهر عنه نُسُك ؛ ولا صلاحُ حال ، وكان مترَفاً يُذهِب مالَ الفىء فى مآربه ؛ وتمهيد مُلكه ، ويصانع به عن سلطانه ؛ وكانت أحوالهُ كلها مؤذنةً بانسلاخه عن العدالة ، وإصراره على الباطل ؛ وإذا كان كذلك لم يجزْ أن ينصُر المسلمون سلطانه ، وتحارَبُ الخوارج عليه وإن كانوا أهل ضلال ؛ لأنهم أحسن حالا منه ؛ فإنهم كانوا ينهوْن عن المنكر ، ويروْن الخروج على أئمة الجور واجبا .

وعندأصحابنا أنّ الخروجَ على أئمة الجورواجبٌ ،وعند أصحابنا أيضاأنّ الفاسقَ المتغلب

بغير شبهة يعتمد عليها لا يجوز أن ينصر على مَنْ يخرج عليه ممن ينتمى إلى الدين ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ؛ بل يجب أن ينصر الخارجون عليه وإن كانوا ضالِّين فى عقيدة اعتقدوها بشبهة دينية دخلتْ عليهم ، لأنهم أعدَلُ منه ، وأقربُ إلى الحقّ ، ولا ريب فى تلزّم الخوارج بالدين ، كما لا ريْبَ فى أنّ معاوية لم يظهر عنه مثل ذلك .



عود إلى أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم (*)

ذكر أبو العباس المبرد فى الكتاب " الكامل " أنّ عُرْوة بن أُدَيّة أحد بنى ربيعة بن حنظلة ـ ويقال إنه أول من حَكَّم ـ حضر حرب النَّهْروان ، ونجا فيها فيمن نجا ، فلم يزل باقياً مدة من خلافة معاوية ، ثم أُخِذَ فأُتى به زياد ومعه مولى له ، فسأله عن أبى بكر وعمر ، فقال خيراً ، فقال له : فما تقول فى عثمان وفى أبى تراب ؟ فتولّى عثمان ست سنين من خلافته ، ثم شهد عليه بالكفر ، وفعلُ فى أمر علىّ عليه السلام مثلَ ذلك إلى أن حكَّم ثم شهد عليه بالكفر . ثم سأله عن معاوية فسبّه سبّاً قبيحا ، ثم سأله عن نفسه ، فقال : أوّلك لريبة ، وآخرك لِدَعوة ، وأنتَ بعدُ عاصٍ ربك . فأمر فضربت عنقه ، ثم دعا مولاه ، فقال : صف لى أموره ، فقال : أأُطْنِبُ أم أختصر ؟ قال : بل اختصر ، قال : ما أتيته بطعام فى نهار قطّ ولا فرشتُ له فِراشاً فى ليل قطّ (١) .

* * *

قال : وحُدِّثت أنّ واصلَ بن عطاء أبا حُذَيفة أقبل فى رُفقة ، فأحسّوا بالخوارج ، فقال واصل لأهل الرُّفقة : إنّ هذا ليس من شأنِكم فاعتزلوا ، ودَعونى وإيّاهم ـ وقد كانوا قد أشرفوا على العطب ـ فقالوا : شأنك ، فخرج إليهم ، فقالوا : ما (٢) أنت وأصحابك ؟ فقال : قوم مُشركون مُستَجيرون بكم ، ليسمعُوا كلام الله ؟ ويفهموا حدوده ، فقالوا : قد أجَرْناكم قال : فعلِّمُونا ؟ فجعلوا يعلِّمونهم أحكامهم ؟ وواصل يقول : قد قبلت أنا ومن معى ، قالوا : فامضوا مُصاحَبين فإنكم إخواننا ، فقال : ليس ذاك إليكم ؟ قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (٣) .

(*) انظر ماسلف من أخبارهم فى الجزء الرابع .

(١) الكامل ٣ : ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) ا : « من » .

(٣) سورة التوبة ٦ .

فأبلغونا مأمننا . فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا: ذاك لكم ، فساروا معهم بجمعهم، حتى أبلغوهم المأمن[1] .

* * *

وقال أبو العباس : أُتِيَ[2] عبدُ الملك بن مرْوان برجل من الخوارج، فبحثه فرأى منه ماشاء[3] فهما وعلما ، ثم بحثه [4]فرأى منه ماشاء أدباً وذهناً[4] ، فرغب فيه ،فاستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه ، فرآه مستبصرا محقّقا ، فزاده فى الاستدعاء ، فقال : تغنيك الأولى عن الثانية ، وقد قلتَ وسمعتُ ، فاسمع أقل ، قال : قل ، فجعل يبسُط من قول الخوارج ويزيّن له من مذهبهم بلسان طلق ، وألفاظ بيّنة ، ومعان قريبة . فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته[5] وفضله : لقد كاد يوقَع فى خاطرى أنّ الجنة إنّما خلقت لهم ، وأنى أوْلى العباد بالجهاد معهم ؛ ثم رجعت إلى ماثبّت الله عليّ من الحجّة ، وقرّر فى قلبى من الحقّ ،فقلت [له][6] : الدنيا والآخرة لله، وقد سلّطنا الله فى الدنيا ، ومكّن لنا فيها، وأراك لست تجيبنا إلى مانقول ؛ والله لأقتلنك إن لم تطع . فأنا فى ذلك ؛ إذ دُخل عليّ بابنى مرْوان .

قال أبو العباس : وكان مرْوان أخا يزيد بن عبد الملك لأمّه ، [أمّهما][6] عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، وكان أبيًّا عزيزَ النفس ، فدُخل به على أبيه فى هذا الوقت باكيًا

---

(١) الكامل ٣ : ١٦٤ ، ١٦٥ .
(٢) ا ، ج : « أتى رجل » .
(٣) ب : « ما شاء » .
(٤ – ٤) ساقط من ب .
(٥) ا ، ج : « على معرفة وفضل » .
(٦) من الكامل .

لضرب المؤدِّب إياه ، فشقّ ذلك على عبد الملك ، فأقبل عليه الخارجيّ وقال : [له] [1] : دَعْه يبكِ ؛ فإنه أرحبُ لشدقه ، وأصحّ لدماغه ، وأذهبُ لصوته ، وأحرى ألّا تأبى عليه عينُه إذا حضرته طاعة [2] واستدعى عَبْرَتها .

فأعجب ذلك من قوله عبدَ الملك ، وقال له متعجّبا : أما يشغَلُك ما أنت فيه ويعرضك عن هذا ؟ فقال : ماينبغى أن يشغل المؤمنَ عن قول الحقّ شىء ، فأمر بحبسه ، وصفح عن قتله ، وقال بَعْدُ معتذراً إليه : لولا أن تُفْسِدَ بألفاظك أكثرَ رعيّتى ماحبستك ، ثم قال عبد الملك : لقد شكّكنى ووهّمنى حتّى مالت بى عصمة الله ؛ وغير بعيد أن يستهوِىَ مَنْ بَعْدى [3] .



[مرداس بن حُدَير]

قال أبو العباس : وكان من المجتهدين [4] من الخوارج البلجاء ، وهى امرأة من بنى حَرَام ابن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم .

وكان مرداس بن حُدَير أبو بلال ، أحد بنى ربيعة بن حنظلة ناسكا ، تعظّمه الخوارج ، وكان كثيرَ الصواب فى لفظه مجتهدا ، فلقيه غَيْلان بن خَرَشَةَ الضّبى ، فقال : ياأبا بلال ، إنّى سمعت الأمير البارحة ـ يعنى عبيد الله بن زياد ـ يذكر البلجاء ، وأحسبها ستؤخذ ، فمضى إليها أبو بلال فقال : إن الله قد وسّع على المؤمنين فى التقيّة [5] فاستترى ؛ فإن هذا

---

(١) من الكامل

(٢) ب : « طاعة الله »

(٣) الكامل ٢ : ٢٣١ ، ٢٣٢

(٤) الكامل : « المجتهدات » ، وكلاهما صواب

(٥) التقية : حفظ النفس عما يستطاع من المكروه .

المُسرِفَ على نفسه الجبّار العنيد قد ذكركِ ، قالت : إنْ يأخذ نى فهو أشقى به ؛ فأمّا أنا فما أحبّ أن يعنَت إنسان بسببى[1] ؛ فوجّه إليها عبيد الله بن زياد ، فأُتِى بها فقطع يديْها ورجليها ، ورمى بها فى السوق ، فمرّ بها أبو بلال والناس مجتمعون ، فقال : ما هذا ؟ قالوا: البلجاء ، فعرّج إليها فنظر ثم عضّ على لحيته ، وقال لنفسه : لهذه أطيبُ نفسا من بقيّة الدنيا منك يامرداس .

قال : ثم إن عبيد الله أخذ مِرْدَاساً فحبسه ،[2] فرأى صاحب السجن منه شدّة اجتهاده، وحلاوة منطقه ، فقال له : إنّى أرى لك مذهبا حسنا[2] ، وإنى لأحبّ أن أولِيَكَ معروفا ، أفرأيتك إن تركتُك تنصرف ليلًا إلى بيتك أتدّلج[3] إلىّ ؟ قال : نعم ، فكان يفعل ذلك به[2] .

ولجّ عبيد الله فى حَبْس الخوارج وقتلهم ، وكُلِّم فى بعضهم فأبى وقال : أقمعُ[4] النفاق قبل أن ينجُم ؛ لَكلامُ هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع[5] .

فلما كان ذاتَ يوم قَتَل رجل من الخوارج رجلًا من الشُّرْطة ، فقال ابن زياد : ما أدرِى ما أصنع بهؤلاء ! كلما أمرتُ رجلا بقتل رجل منهم فتكوا بقاتله ، لأقتلنّ مَنْ فى حبسى منهم . وأخرج السّجان مرداسا إلى منزله كما كان يفعل ، فأتى مرداسا الخبر ، فلما كان فى السَّحَر ، تهيّأ للرجوع إلى السجن ، فقال له أهله : اتق الله فى نفسك ؛ فإنك إذا رجعتَ قُتلتَ ، فأبى وقال : والله ما كنتُ لألقى الله غادرا ! فرجع إلى السجان ، فقال : إنّى قد علمت ما عزَم عليه صاحبُك ، قال : أعلمت ، ثم جئت[6] !

* * *

(١) ب : « ق ».
(٢ – ٢) ا ، ج : « فرأى منه الحباس مذهبا حسنا ».
(٣) تدلج : تسير أول الليل .
(٤) كذا فى الكامل ؛ وفى الأصول كلمة غير واضحة .
(٥) اليراع : القصب ، واحدته يراعة .
(٦) الكامل : « ورجعت » .

قال أبو العباس : ويروى أنّ مرداسا مرّ بأعرابيّ يهنأ[1] بعيرا له ، فهرج[2] البعير ، فسقط مرداس مغشيًّا عليه ، فظنّ الأعرابيّ أنه صُرِع ، فقرأ في أذنه ، فلما أفاق قال له الأعرابيّ : إني قرأت في أذنك ، فقال مِرْداس : ليس بي ماخفته عليّ ، ولكني رأيت بعيراً هَرِج من القطران، فذكرت به قَطِران جهنم، فأصابني مارأيت، فقال الأعرابيّ: لاجَرَم ! والله لاأفارقك أبدا .

قال أبو العباس : وكان مِرْداس قد شهِدَ مع عليّ عليه السلام صِفّين ، ثم أنكر التحكيم ، وشهد النّهْروان ؛ ونجا فيمن نجا ؛ ثم حبسه ابنُ زياد ؛ كما ذكرناه ، وخرج مِنْ حبسه ، فرأى جِدّ ابن زياد في طلب الشُّراة ،فعزم على الخروج ؛ فقال لأصحابه : إنه والله مايسعُنا المقام مع هؤلاء الظالمين ، تجرى علينا أحكامُهم ، مجانبين للعدل ، مفارقين للقصد[3] ؛ والله إنّ الصبر على هذا لعظيم ، وإنّ تجريد السيف وإخافة الناس لعظيم ، ولكنا ننتبذ عنهم ، ولا نجرّد سيفا ، ولا نقاتل إلا مَنْ قاتلنا . فاجتمع إليه أصحابُه زُهاء ثلاثين رَجُلا ، منهم حُرَيْث بن حَجَل وكَهمس بن طَلْق الصّرِيميّ ، وأرادوا أن يولّوا أمرَهم حُرَيْثا فأبى ، فولّوا أمرَهم مِرْداسا ، فلما مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن رباح الأنصاريّ ـ وكان له صديقا ـ فقال : ياأخي ، أين تريد ؟ قال : أريد أن أهرب بديني ودين أصحابي مِنْ أحكام هؤلاء الجوَرة ، فقال : أعلِم بكم أحد ؟ قال : لا، قال: فارجع؛ قال: أوتخاف عليّ نُكْرا[4]؟ قال: نعم ؛وأن يؤتى بك .قال : لاتخف؛ فإني لاأجرّد سيفا، ولا أخيف أحدا ، ولا أقاتل إلّا مَنْ قاتلني .

ثم مضى حتى نزل آسَك ، وهي مابين رامَهُرمز وأرّجان ، فمرّ به مالٌ يُحمل إلى ابن

---

(١) هنأ البعير ، طلاه بالهناء،والهناء: القطران .

(٢) هرج : تحير وسدر من حرارة القطران .

(٣) الكامل: «القصد» ؛ وهوقول الحق

(٤) ا ، ج : «نكيرا» ، وفي الكامل : «مكروها» .

زياد ، وقد قارب أصحابه الأربعين ، فحطّ ذلك المال ، وأخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ، وردّ الباقي على الرُّسل ، وقال : قولوا لصاحبكم : إنا قبضنا أعطياتنا ، فقال بعض أصحابه : علام نَدَع الباقي ؟ فقال : إنهم يقيمون هــذا الفيء ؛ كما يقيمون الصلاة فلا نقاتلهم على الصلاة .

قال أبو العباس : ولأبي بلال مرداس في الخروج أشعار ، اخترت منها قوله :

أبعدَ ابنِ وَهْبٍ ذِي النَّزاهة والتُّقى ... ومَنْ خاضَ في تلكَ الحرُوبِ المهالِكا[1]

أحبّ بقاء أو أرجّى سَــلامَةً ... وقد قتلُوا زيدَ بن حِصْنٍ ومَالِكا

فيارَبِّ سَلِّمْ نيَّتِي وبَصِــيرَتي ... وهبْ لِي التُّقى حتى ألاقِيَ أولائكا

* * *

قال أبو العباس : ثم إنّ عُبيد الله بن زياد ، نَدَبَ جيشاً إلى خُراسان ، فحكى بعضُ مَنْ كان في ذلك الجيش ،قال : مررنا بآسَك ،فإذا نحن بهم ستة وثلاثين رَجُلاً ، فصاح بنا أبو بلال : أقاصدون لقتالنا أنتم ؟ قال : وكنتُ أنا وأخي قد دخلنا زَرْباً[2] ، فوقف أخي ببابه ، فقال :السلام عليكم ، فقال مِرْداس : وعليكم السلام ،ثم قال لأخي :أجئتم لقتالنا؟ قال : لا ، إنما نريد خُراسان ، قال : فأبلغوا مَنْ لقيتم أنا لم نخرج لنفسد في الأرض ، ولا لنروِّع أحداً،ولكن هرباً من الظلم . ولسنا نقاتل إلا مَنْ يقاتلنا ، ولا نأخذ من الفيء إلا أعطياتنا، ثم قال : أنُدِب لنا[3] أحد ؟ قلنا : نعم ، أسلم بن زُرْعة الكلابيّ ، قال:فمتى ترونَه يصل إلينا ؟ قلنا : يوم كذا وكذا ، فقال أبو بلال : حَسْبنا الله ونعم الوكيل !

قال أبو العباس:وجَهّز عبيد الله بن زياد أسلم بن زُرْعة في أسرع مدّة ، ووجّهه إليهم

---

(١) يريد عبيد الله بن وهب الراسبي ؛ أحد بني راسب ؛ بطن من الأزد ؛ زعيم الخوارج في مبدأ أمرهم .

(٢) الزرب : مكمن يحتفره الصائد يتوارى فيه ليختل الصيد .

(٣) الكامل : « إلينا » .

فى ألفين ، وقد تتامّ أصحابُ مرداس أربعين رجلا ، فلما صار أسلم إليهم صاح به أبو بلال: اتق الله يا أسلم ، فإنا لا نُريد فساداً[1] فى الأرض ، ولا نحتجر فيئاً ، فما الذى تريد؟ قال: أريد أن أردّكم إلى ابن زياد ، قال: إذن يقتلنا، قال : وإن قتلكم ! قال: تشركه فى دمائنا، قال : إنى أدين بأنه محقّ وأنتم مبطلون ؛ فصاح به حُريث بن حَجْل : أهو محقٌّ ، وهو يطيع الفَجرة ، وهو أحدهم ؛ ويقتل بالظِّنَّة ويخصّ بالفىْء ، ويجور فى الحكم ! أما علمت أنه قتل بابن سُعاد أربعة برآء ؛ وأنا أحد قتلته ، وقد وضعتُ فى بطنه دراهم كانت معه .

ثم حملوا على أسلم حملة رجل واحد ، فانهزم هو وأصحابه من غير قتال ، وكاد يأسره مَعْبَد أحد الخوارج ،فلما عاد إلى ابن زياد غَضِب عليه غضباً شديداً،وقال وَيْلك ! أتمضى فى ألفين ، فتنهزم بهم من حملة أربعين ! فكان أسْلَمُ يقول : لأن يذمّنى ابن زيادٍ وأنا حىٌّ ، أحبُّ إلى أن يمدحنى وأنا ميت .

وكان إذا خرج إلى السوق،أو مَرّ بصبيان صاحوا به:أبو بلال وراءك!وربما صاحوا به : يامعبد خذه،حتى شكا إلى ابن زياد ، فأمر الشُّرَط أن يكفّوا الناس عنه ، ففى ذلك يقول عيسى بن فاتك ، من بنى تيم اللات بن ثعلبة أحد الخوارج :

فلما أصبحوا صَلَّوْا وقامُوا ... إلى الجُرْد العتاقِ مُسَوّمِيناَ[2]

فلمّا استجمعُوا حَمَلُوا عليهم ... فظَلّ ذوو الجَعائلِ يُقتَلُونا[3]

بقيّةَ يومِهِمْ حتى أتاهُمْ ... سوادُ الليل فيه يُرَاوِغُونا

يقولُ بَصيرُهُمْ لَمّا أتاهُمْ ... فإنّ القومَ ولّوْا هارِبيناَ

ألفَا مؤمنٍ فيكم زَعَمْتُمْ ... ويهزمُكم بآسك أرْبَعُونا !

(١) الكامل « لانريد قتالا » ، ب : « لانريد فساداً فى الأرض » .

(٢) الجرد : جمع أجرد ؛ وهو من الخيل القصير الشعر ، والعتاق : النجائب ؛ الواحد عتيق . مسومين: معلمين بعلامة الحرب .

(٣) الجعائل : جمع جعيلة أو جعالة ؛ وهى ما يأخذه العامل من الأجرة .

كذبتم ليس ذاك كما زعمتمْ ... ولكنّ الخوارجَ مؤمنونا
هم الفئة القليلة غيرَ شكٍّ ... على الفئة الكثيرة ينصرونا

***

قال أبو العباس : أما قول حُريث بن حَجْل : « أما علمت أنه قتل بابن سُماد أربعة برآء وأنا أحد قتلته » ، فابن سماد هو المثلّم بن مسروح[1] الباهليّ ، وسماد اسم أمّه؛ وكان من خبره أنه ذُكر لعبيد الله بن زياد رجل من سَدوس ، يقال له خالد بن عبّاد ، أو ابن عُبادة، وكان من نُساك الخوارج، فوجّه إليه فأخذه،فأتاه رجل من آل ثور[2] فكذّب عنه وقال: هو صهري وفي ضِمْنِي ، فخلّى عنه ، فلم يزل الرجل يتفقده حتى تغيّب ، فأتى ابن زياد فأخبره؛ فلم يزل يبعث إلى خالد بن عبّاد حتى ظفر به ، فأخذه ، فقال : أينَ كنت في غيبتك هذه؟ قال : كنتُ عند قوم يذكرون الله ويسبّحونه ، ويذكرون أئمة الجوْر ، فيتبرءون منهم. قال : ادللني عليهم، قال: إذن يَسْعَدُوا وتشقى؛ ولم أكن لأروّعهم؛ قال :فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فقال : خيراً ، قال :فما تقول في عثمان وفي معاوية ، أتتولاهما ؟ فقال :إن كانا وليّين لله فلست معاديهما ؛ فأراغه مراراً ليرجع عن قوله فلم يفعل ، فعزم على قتله ، فأمر بإخراجه إلى رَحْبة تعرف برَحْبة الزّسي[3] وقتله بها ، فجعل الشُّرطة يتفادوْن من قتله ويروغون عنه توقّيا لأنه كان متقشّفاً[4] عليه أثر العبادة ، حتى أتى المثلّم بن مسروح[1] الباهليّ ، وكان من الشُّرطة ، فتقدم فقتله ، فائتمر به الخوارج أن يقتلوه ؛ وكان مغرَماً باللِّقاح[5] يتبعها ، فيشتريها من مظانّها ، وهم في تفقّده ، فدسّوا إليه رجلا في هيئة الفتيان عليه ردْعٌ[6]

---

(١) ب : « مَشرح » .

(٢) ثور : هو كِندة .

(٣) الكامل : « الزينبي » .

(٤) الكامل : « شاسفا » والشاسف : المهزول .

(٥) اللقاح : النوق ، واحدتها لقحة ؛ وهي الحلوب .

(٦) ردع الزعفران : اللطخ به .

زعفران ، فلقيه بالمِرْبد[١] وهو يسأل عن لِقْحة صفِي[٢] ، فقال له الفتى : إن كنت تبتغي[٣] فعندي ما يغنيك عن غيره ، فامض معي . فمضى المثلّم معه على فرسه ، يمشي الفتى أمامه حتى أتى به بني سَعْد ، فدخل داراً ، وقال له : أدخل عليَّ فرسك ؛ فلما دخل وتوغّل في الدار أغلَق الباب ، وثارت به الخوارج ، فاعتوره حُرَيث بن حَجْل وكَهْمس بن طَلْق الصَّرِيمي ، فقتلاه ، وجعلا دراهم كانت معه في بطْنه ، ودفناه في ناحية الدار ، وحكّا آثار الدم وخلّيا فرسه في الليل ، فأصيب في الغد في المِرْبد وتجسّس عنه الباهليّون ؛ فلم يروا له أثراً ، فاتهموا بني سَدُوس به ، فاستعدوْا عليهم السّلطان ، وجعل السّدوسيّة يحلفون ؛ فتحامل ابن زياد مع الباهليين ، فأخذ من السّدوسيّين أربع ديات ، وقال : ما أدري ما أصنع بهؤلاء الخوارج! كلما أمرت بقتل رجل اغتالوا قاتله . فلم يعلم بمكان المثلّم حتى خرج مرادس وأصحابه ، فلما واقفهم ابن زُرْعة الكلابي صاح بهم حُرَيث ، وقال : أهاهنا من باهلة أحد؟ قالوا : نعم ، قال : يا أعداء الله ، أخذتم للمثلم[٤] من بني سَدُوس أربع ديات ، وأنا قتلته ، وجعلت دراهم كانت معه في بطنه ، وهو في موضع كذا مدفون ، فلما انهزم ابن زُرْعة وأصحابه صاروا إلى الدار ، فأصابوا أشلاءه[٥] ؛ ففي ذلك يقول أبو الأسود :

وَآلَيْتُ لَا أَغْدُو إِلَى رَبِّ لِقْحَةٍ ... أُسَاوِمُهُ حَتَّى يَئُوبَ الْمُثَلَّمُ[٦]

---

(١) المربد : كل مكان حبست فيه الإبل ومنه مربد البصرة .

(٢) الصفي : الغزيرة اللبن .

(٣) الكامل : « تبلغ » .

(٤) الكامل : « بالمثلم » .

(٥) الكامل ٣ : ٢٧٤ .

(٦) بعده كما في رغبة الآمل :

وَقَالَ لَهُ كَوْمَاءُ حَمْرَاءُ جَلْدَةٌ ... وَقَارَبَهُ فِي السَّوْمِ وَالْقَتْلَ يَكْتُمُ

فَأَصْبَحَ قَدْ عُمِّيَ عَلَى النَّاسِ أَمْرُهُ ... وَقَدْ بَاتَ يَجْرِي فَوْقَ أَثْوَابِهِ الدَّمُ

وَقَدْ كَانَ فِيمَا كَانَ مِنْهُ بِمَعْزِلٍ ... وَلَكِنْ حَيْنُ الْمَرْءِ لِلْمَرْءِ مُسْلِمُ

قال أبو العباس : فأما[1] ما كان من مِرْداس ، فإنّ عبيد الله بن زياد نَدَب إليه الناس ، فاختار عَبّاد بن أخضر المازنيّ ـ وليس بابن أخضر ؛ بل هو عَبّاد بن علقمة المازنيّ وكان أخضر زوج أمه ؛ وغلّب عليه ـ فوجّهه إلى مرداس وأصحابه فى أربعة آلاف فارس ، وكانت الخوارج قد تنحّتْ من موضعها ، بدر ابجراد من أرض فارس ؛ فصار إليهم عَبّاد ، فكان التقاؤهم فى يوم جمعة ، فناداه أبو بلال : اخرج إلىّ يا عبّاد ، فإنى أريد أن أحاورك ، فخرج إليه ، فقال : ما الذى تبغى ؟ قال : أنْ آخذ بأقفيتكم فأردّكم إلى الأمير عبيد الله بن زياد ، قال : أو غير ذلك ؟ أن نرجع ؛ فإنا لا نخيفُ سبيلا ، ولا نَذْعَرُ مسلماً ، ولا نحارب إلا مَنْ يحاربنا ، ولا نجبى إلا ما حَمَيْنا . فقال عَبّاد : الأمر ماقلت لك ، فقال له حُرَيث بن حَجْل : أتحاول أنْ تردّ فئة من المسلمين إلى جَبّار عنيد ضالّ ! فقال لهم : أنتم أولى بالضلال منه ، وما من ذاك من بدّ .

قال : وقدم القعقاع بن عطية الباهلىّ من خراسان ، يريد الحج ، فلما رأى الجمعين قال : ما هذا ؟ قالوا : الشُّراة ؛ فحمل عليهم ونَشِبَت الحرب بينهم ؛ فأخذت الخوارج القعقاع أسيراً ؛ فأتوا به أبا بلال ، فقال له : مَنْ أنت ؟ قال : ما أنا من أعدائك ؛ إنما قدمت للحجّ ، فجهلت وغُرِرْت ؛ فأطلقه ، فرجع إلى عباد وأصلح مِنْ شأنه ، وحمل على الخوارج ثانية ، وهو يقول :

أُقَاتِلُهُمْ وَلَيْسَ عَلَيَّ بَعْثٌ ... نَشَاطاً ليسَ هَذا بالنشاطِ

أَكُرُّ على الحروريّين مُهْرِى ... لأحملَهم على وَضَحِ الصِّراطِ

فحمل عليه حُرَيث بن حَجْل السدوسيّ وكَهْمَسُ بن طَلْق الصَّريميّ ، فأسراه وقتلاه ، ولم يأتيا به أبا بلال . ولم يزل القوم يجتلِدُون حتى جاء وقت صلاة الجمعة ، فناداهم أبو بلال : يا قوم ، هذا وقتُ الصلاة ، فوادعونا حتى نصلّى وتصلوا ، قالوا : لك ذاك ، فرمى القوم

---

(١) الكامل ٣ : ٢٠٣ وما بعدها

أجمعون بأسلحتهم ، وعمدوا للصلاة ، فأسرع عباد ومَنْ معه وقضَوْا صلاتهم ، والحرورية مبطئون ، فيهم ما بين راكع وساجد ، وقائم فى الصلاة وقاعد ، حتى مالَ عليهم عبّاد ومن معه ، فقتلوهم جميعاً ؛ وأُتِيَ برأس أبى بلال .

قال : ويرى الشراة أنّ مرداسا أبا بلال لما عقَدَ على أصحابه ، وعزم على الخروج رفع يديْه ، فقال : اللهم إن كان ما نحن فيه حقًّا فأرنا آية ، فرجف البيت .

وقال آخرون : فارتفع السقف .

ويقال : إنّ رجلا من الخوارج ذكر ذلك لأبى العالية الرياحىّ ؛ يعجّبه من الآية ، ويرغّبه فى مذهب القوم ، فقال أبو العالية : كاد الخسف ينزِل بهم ، ثم أدركتهم نظرة من الله .

قال : فلما فرغ عَبادٌ من الجماعة أقبل بهم فصلب رءوسهم ، وفيهم داود بن شبيب ، وكان ناسكا ، وفيهم حبيبة البكرىّ من عبد القيس ؛ وكان مجتهدا ؛ ويروى عنه أنه قال : لما عزمت على الخروج فكّرت فى بناتى ، فقلت ذات ليلة : لأمسكنّ عن نفقتهنّ حتى أنظر ؛ فلما كان فى جوف الليل استسقت بنيّةٌ لى ، فقالت : يا أبت اسقنى ، فلم أجبها ، وأعادت ، فقامت أختٌ لها فسقتها ، فعلمت أنّ الله عز وجلّ غير مضيّعهنّ ، فأتممت عزمى .

وكان فى القوم كَهْمس ، وكان من أبرّ الناس بأمّه ؛ فقال لها : يا أمه ؛ لولا مكانك لخرجتُ ، فقالت : يا بنىّ ، وهبتك لله

ففى مقتلهم يقول عيسى بن فاتك الخطىّ :

ألا فى الله لا فى الناس سالتْ ... بداودٍ وإخوته الجُذُوع

مَضَوْا قتلاً وتمزيقاً وصَلْباً ... تَحُومُ عليهمُ طَيْرٌ وُقُوعُ

إذا ما الليلُ أظلم كابدُوه ... فيسفرُ عنهمُ وهمُ رُكوعُ

أطار الخوفُ نومَهمُ فقاموا ... وأهلُ الأرض فى الدنيا هُجُوع

وقال عمران بن حِطّان :

ياعين بَكّى لمرادسٍ ومصرعِه	يارب مرادس اجعلنى كمرادسِ
تركتنى هائما أبكى لمرزئة[1]	فى منزلٍ موحشٍ من بعد إيناسِ
أنكرتُ بعدك من قد كنت أعرفه	ما الناسُ بعدك يامرادسُ بالناسِ
إمّا شربت بكأسٍ دار أوّلُها	على القرون فذاقوا جرعة الكاسِ
فكلّ مَنْ لم يذُقْها شاربا عجلاً	يُسْقَى بأنفاسٍ وِرْدٍ بعد أنفاسِ

وقال أيضاً :

لقدْ زادَ الحياة إلىّ بغضاً	وحُبّاً للخروج أبو بلالِ[2]
أحاذِر أن أموتَ على فراشى	وأرجو الموت تحت ذُرا العَوالى[3]
فمن يكُ همّه الدنيا فإنّى	لَهَا ـ واللهِ ربّ البيت ـ قالِ

* * *

[عمران بن حِطّان]

وقال أبو العباس : وعمران هذا ، أحدُ بنى عمرو بن يسار بن ذهل بن ثعلبة بن عُكابة ابن صَعْب بن علىّ بن بكر بن وائل ، وكان رأسَ القَعَدِ من الصُّفرية وفقيههم وخطيبهم وشاعرهم ؛ وشعره هذا بخلاف شعر أبى خالد القنانىّ وكان من قَعَد الخوارج أيضا . وقد كان كتب قطرىّ بن الفجاءة المازنىّ يلومه على القُعود :

(١) الكامل : « لمرزئة » .

(٢) الأبيات فى الكامل ٣ : ١٦٨

(٣) فى الكامل بعده :

وَلَوْ أَنِّى عَلِمْتُ بِأَنَّ حَتْفِى كَحَتْفِ أَبِى بِلَالٍ لَمْ أُبَالِ

أبا خالدٍ أيقِنْ فلستَ بخالدٍ ... وما جعَلَ الرحمنُ عذراً لقاعدِ
أتزعم أنّ الخارجيَّ على الهُدَى ... وأنت مقيمٌ بين لصٍّ وجاحدِ

فكتب إليه أبو خالد :

لقد زادَ الحياةَ إليّ حُبًّا ... بناتِى إنَّهنَّ من الضِّعافِ[1]
أحاذِرُ أن يَرَيْنَ الفقرَ بعدى ... وأن يَشْرَبْنَ رَنْقًا بعد صافِ
وأنْ يَعْرَيْنَ إن كُسِيَ الجوارى ... فتنبو العينُ عن كرمٍ عِجافِ
ولولا ذاكَ قد سوَّمْتُ مُهْرِى ... وفى الرَّحمن للضعفاء كافِ

***

وقال أبو العباس : ومما حدثنى به[2] العباس بن أبى الفرج الرياشىّ ، عن محمد بن سلام أنّ عمران بن حِطّان لما طَرَدَهُ الحجّاج ، جعل يتنقل فى القبائل ، وكان إذا نزل بحىّ انتسب نسبا يقرب منهم ، فى ذلك يقول :

نزلنا فى بنى سعدِ بن زيدٍ ... وفى عكٍّ وعامر عَوْبَثانِ[3]
وفى لخم وفى أُدَدِ بن عمرو ... وفى بكرٍ وحىّ بنى الغُدَانِ

ثم خرج حتى لقى رَوْح بن زِنْباع الجُذامىّ ، وكان رَوْح يَقْرِى الأضياف ، وكان مسايراً لعبد الملك بن مروان ؛ أثيراً[4] عنده . وقال ابن عبد الملك فيه : مَنْ أُعطِىَ مثل ما أُعطِىَ أبو زُرْعة ! أُعطِىَ فقه الحجاز ودهاء أهل العراق وطاعة أهل الشام .

وانتمى عمران إليه أنّه من الأزد ، فكان رَوْح لا يسمع شعرا نادراً ، ولا حديثاً غريبا

---

(١) الكامل ٣ : ١٦٧ .
(٢) الكامل ٣ : ١٦٨ وما بعدها .
(٣) عوبثان بن زاهر بن مراد ؛ جد بداء بن عامر (القاموس)
(٤) أثيرا : مكرما ؛ من آثره : إذا أكرمه .

عند عبد الملك ، فيسأل عنه عمران إلا عرفه وزاد فيه . فقال رَوْح لعبد الملك : إنّ لى ضَيفاً ما أسمع من أمير المؤمنين خبراً ولا شعراً إلا عرفه وزاد فيه ؛ فقال : أخبرنى ببعض أخباره، فأخبره وأنشده ؛ فقال : إنّ اللغة لغة عدنانية ، ولا أحسبه إلا عِمْران بن حِطّان ؛ حتى تذاكروا ليلةً البيتين اللذين أولهما : «ياضربة(١) . . . » .

فلم يدر عبد الملك لمن هما ، فرجع رَوْح فسأل عمران عنهما ، فقال : هذا الشعر لعِمْران ابن حِطّان يمدح عبدالرحمن بن ملجم. فرجع رَوْح إليه فأخبره،فقال: ضيفك عمران بن حِطّان؛ فاذهب فجئنى به ؛ فرجع إليه فقال : أمير المؤمنين قد أحبّ أن يراك ، فقال له عمران : قد أردتُ أن أسألك ذاك فاستحييتُ منك، فاذهب فإنّى بالأثر؛فرجع روح إلى عبدالملك فخبّره، فقال : أما إنك سترجع فلا تجده ، فرجع فوجد عمران قد احتمل ، وخلّف رقعة فيها :

يا رَوْحُ كَمْ من أخى مَثْوًى نزلْتُ به ... قد ظَنَّ ظَنَّكَ مِنْ لَخْمٍ وَغَسَّانِ

حتّى إذا خفتُهُ زايلتُ منزلَهُ ... من بعدِ ما قيل عِمْران بن حِطّانِ

قد كنتُ جارَكَ حولاً لا يروّعُنِي ... فيه طوارقُ مِنْ إنْسٍ ولا جانِ

حتى أرَدْتَ بِىَ العظْمَى فأدركَنِي ... ما أدْرَكَ النَّاسَ من خوف ابن مَرْوانِ

فاعذِرْ أخاك ابنَ زنباع فإنّ له ... فى الحادثاتِ هَنَاتٍ ذَاتَ ألوانِ

يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذايَمَنٍ ... وإن لقيتُ مَعَدِّيًّا فعدْنانى

---

(١) البيتان كما أوردهما فى الكامل :

يا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا ... إلاَّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِى الْعَرْشِ رِضْوَانَا

إنّى لأذكره حيناً فأحسبهُ ... أوفَى البريّةِ عندَ اللهِ ميزانا

وفى زيادات الكامل : « قلبه الفقيه الطبرى فقال :

يا ضَرْبَةً مِنْ شَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا ... إلاَّ لِيَهْدِمَ مِنْ ذِى الْعَرْشِ بُنْيَانَا

إنّى لأَذْكُرُهُ يَوْمًا فَأَلْعَنُهُ ... إيهًا وَأَلْعَنُ عِمْرَانَ بنَ حطّانا =

لو كُنْتُ مُسْتَغْفِراً يَوْماً لِطَاغِيةٍ كُنْتَ الْمُقَدَّمَ فِي سِرِّي وإعْلاَنِي
لَـكِنْ أَبَتْ ذَاكَ آيَاتٌ مُطَهَّرَةٌ عِنْدَ التِّلاوَةِ فِي طَهَ وَعِمْرَانِ

ثم ارتحل ؛ حتى نزل بزُفر بن الحارث أحد بني عَمْرو بن كلاب ؛ فانتسب له أوزاعياً [١] ، وكان عمران يطيل الصلاة ؛ فكان غِلمان بني عامر يضحكون منه ، فأتاه رجل ممن كان عند رَوْح ، فسلّم عليه ، فدعاه زفر فقال له : مَنْ هذا ؟ فقال : رجل من الأزد ، رأيته ضيفاً لروح بن زنباع ؛ فقال له زفر : ياهذا ، أزدياً مرة وأوزاعياً أخرى ! إن كنت خائفاً أمّنّاك ، وإن كنت فقيراً جبَرْناك ، فلما أمسى خلّف في منزله رقعة ، وهرب فوجدوا فيها :

إنَّ التي أصْبَحَتْ يَعْيَا بِهـا زُفَرٌ أعْيَتْ عَيَاءً على رَوْحِ بن زِنْبَاعِ [٢]
مازالَ يسألُني حَوْلًا لأخـبرَهُ والنَّاسُ مَا بَيْنَ مَخْـدُوعٍ وخَدّاعِ
حتى إذا انقطعتْ مِـنِّي وسائلُهُ كَفَّ السُّؤال ولم يُولَعْ بإهلاعِ
فاكْفُفْ لسانَكَ عن لومِي وَمَسْألَتِي ماذا تريدُ إلى شَيْخٍ بلا راعِ ! [٣]
فاكْفُفْ كَمَا كَفَّ عَنِّي إنني رجـلٌ إما صميمٌ وإما فَقْعَـةُ الْقَاعِ

= وقال محمد بن أحمد الطيب يرد على عمران بن حطان :

يَاضَرْبَةً مِنْ غَـدُورٍ صارَ ضَارِبُهَا أشْقَى البرِيةِ عِنْـدَ اللهِ إنسَانَا
إذَا تَفَـكَّرْتُ فِيـهِ ظَلْتُ أَلْعَنُهُ وَأَلْعَنُ الْـكَلْبَ عِمْرَانَ بنَ حِطَّانَا

(١) أوزاعي : منسوب إلى أوزاع ؛ أبي بطن من همدان .
(٢) في الكامل : « قال أبو العباس : أنشدنيه الرياشي :

« أعْيَا عَيَاهَا على رَوْحِ بْنِ زِنْبَاعِ »

وأنكره كما أنكرناه ؛ لأنه قصر الممدود ؛ وذلك في الشعر جائز ؛ ولا يجوز مد المقصور .
(٣) في الكامل : « إلى شيخ لأوزاع » ؛ والبيت في ترتيب الكامل ورد بعد تاليه .

أمّا الصَّلاة فإنّى غيرُ تاركِها ... كلُّ امرئٍ للذى يُعنَى بهِ ساعِ
أكرِمْ بروحِ بن زنباعٍ وأسرتِهِ ... قومٌ دعا أوّليهم للعُلا داعِ
جاورتُهُم سَنَةً مِمّا أُسَرُّ به ... عِرضى صَحيحٌ ونومى غيرُ تَهجاعِ
فاعلَمْ فإنّكَ مَنعِىٌّ بواحدةٍ ... حَسْبُ اللبيبِ بهذا الشَّيبِ من داعِ[1]

ثمّ ارتحل حتى أتى عُمان؛ فوجدهم يعظّمون أمر أبى بلال، ويظهر[2] فيهم، فأظهر أمرَه فيهم، فبلغ ذلك الحجاج، فكتب فيه إلى أهل عُمان؛ فهرب حتى أتى قوما من الأزد فى سواد الكوفة، فنزل بهم، فلم يزل عندهم حتى مات، وفى نزوله فيهم يقول:

نزَلنا بحمدِ اللهِ فى خيرِ منزلٍ ... نُسَرُّ بما فيهِ من الإنسِ والخَفَرْ[3]
نزَلنا بقومٍ يجمعُ اللهُ شملَهُمْ ... وليسَ لهم دعوَى سوَى المجدِ يُنتَصَرْ
منَ الأزدِ إنّ الأزدَ أكرمُ أسوةٍ[4] ... يمانيةٌ طابُوا إذا انتسبَ البشرْ[5]
فأصبحتُ فيهم آمنًا لا كمعشرٍ ... أتونى فقالوا: من ربيعةَ أو مُضَرْ
أم الحىِّ قحطانٍ فتلكم سفاهةٌ[6] ... كما قال لى رَوحٌ وصاحبُه زُفَرْ
وما منهما إلا يسرُّ بنسبةٍ[7] ... تقرّبنى منه وإن كان ذا نَفَرْ[8]
فنحنُ عبادُ الله، واللهُ واحدٌ ... وأولى عبادِ الله باللهِ مَنْ شَكَرْ

***

(١) فى الأصول: «من داع»، وما أثبته من الكامل.
(٢) الكامل: «ويظهرونه».
(٣) الإنس، بكسر الهمزة مصافاة المودة.
(٤) الكامل: «أكرم معشر».
(٥) الكامل: «إذا نسب».
(٦) الكامل. ب: «ولكن سفاهة»
(٧) بنسبة؛ أى بانتساب.
(٨) ذو نفر؛ أى من ذى العزة والمنعة.

قال أبو العباس : ومن الخوارج مَنْ مَشى فى الرمح وهو فى صدره خارجا من ظهره؛ حتى خالط طاعِنَهُ فضربه بالسيف فقتله ؛وهو يقول : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾[1] .

ومنهم الذى سأل عليه عليه السلام يوم النَّهروان المبارزة فى قوله :

أطعنهم ولا أرى عليًّـــا ولو بدا أوْجرتهُ الخطِّيـا[2]

فخرجَ إليه علىّ فضربَه بالسيف فقتله ؛ فلما خالطه السيف قال : « ياحبذا الروْحة إلى الجنة »[3] .

ومنهم ابن ملجم ، وقطع الحسن بن علىّ يديه ورجليه وهو فى ذلك يذكر الله، ثم عمد إلى لسانه فقطعه فجزع ؛ فقيل له فى ذلك قال : أحببتُ ألا يزال لسانى رَطْبا من ذكر الله .

ومنهم القوم الذين وثب رجل منهم على رُطَبة[4] سقطت من نخلة، فوضعها فى فيه ، فلفظها تورعاً .

ومنهم أبو بلال مرادس ، الذى ينحِلُه من الفِرق لتقشّفه وتصرّمه وصحة عبادته ، وصلابة نيّته .

أما المعتزلة فتنتحله وتقول : إنّه خرج منكِراً لجور السلطان ، داعيا إلى الحق ،وإنه من أهل العَدْل ، ويحتجون لذلك بقوله لزياد ، وقد كان قال فى خُطبته على المنبر : والله لآخذنّ المحسن بالمسىء،والحاضرَ بالغائب ،والصحيح بالسقيم ؛ فقام إليه مرداس فقال : قد سَمِعْنا ماقلت أيها الإنسان ؛ وما هكذا قال الله تعالى لنبيه إبراهيم ؛ إذ يقول :

---

(١) سورة طه : ٨٤

(٢) أو جرته الخطيا ؛ أى طعنته بالرمح فى فيه ، او صدره .

(٣) الخبر بتفصيل أوسع فى الكامل ٣ : ٤٣ (٤) الرطبة : نضيج البسر قبل أن يتمر .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1] ، ثم خرج عليه عقيب هذا اليوم .

وأما الشيعة فتنتحله ؛ وتزعم أنه كتب إلى الحسين بن علي : إني والله لستُ من الخوارج ؛ ولا أرى رأيهم ، وإني على دين أبيك إبراهيم .

***

[المستوردِ السعديّ]

ومنهم المستورِد ؛ أحد بني سعد بن زيد بن مَناة ؛ كان ناسكاً مجتهداً ؛ وهو أحدُ من ترأّس على الخوارج في أيام عليّ ، وله الخطبة المشهورة التي أولها : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا بالعدْل تخفِق راياته ، وتلمَعُ معالِمُه ، فبلّغنا عن ربِّه ، ونصح لأمّته ؛ حتى قبضه الله تعالى مخيّراً مُختاراً .

ونجا يوم النُّخَيلة من سَيف عليّ ؛ فخرج بعد مدّة على المُغيرة بن شعبة ـ وهو والى الكوفة ـ فبارزَه معقِل بن قيس الرِّياحيّ ، فاختلفا ضربتين ، فخرّ كلّ واحد منهما ميتا .

ومن كلام المستورد : لو ملكتُ الدنيا بحذافيرها ، ثم دُعيت إلى أنْ أستفيدَ بها خطيئة ما فعلت .

ومن كلامه : إذا أفضيتُ بسرِّي إلى صديق فأفشاه لم ألُمْه ؛ لأنّي كنت أولى بحفظه .

ومن كلامه : كن أحرصَ على حفظ سرّك منك على حَقْن دمك .

وكان يقول : أوّلُ ما يدلّ على عيب[2] عائب الناس معرفته بالعيوب ، ولا يعيب إلا مَعيب .

---

(١) سورة النجم ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) الكامل : « عليه » .

وكان يقول : المالُ غير باقٍ عليك ، فاشترِ به من الحمد والأجر ما يبقى عليك [1] .

* * *

[حوثرة الأسديّ]

قال أبو العباس [2] : وخرج من الخوارج على معاوية بعد قتل عليّ حوثرة الأسديّ ، وحابس الطائيّ ، خرجا في جمعهما ، فصارا إلى مواضع أصحاب النُّخَيْلة [2] ، ومعاوية يومئذ بالكوفة قد دخلها في عام الجماعة [3] ، وقد نزل الحسنُ بن عليّ ، وخرج يريد المدينة ، فوجّه إليه معاويةُ - وقد تجاوز في طريقه - يسأله أن يكونَ المتولّيَ لمحاربة الخوارج ؛ فكان جوابُ الحسن : والله لقد كففتُ عنك لحقنِ دماء المسلمين ؛ وما أحسب ذلك يسعني ؛ أفأقاتل عنك قوماً أنت والله أولى بالقتال منهم !

قلت : هذا موافق لقول أبيه : « لا تقاتلوا الخوارجَ بعدي ، فليس مَنْ طلب الحقّ فأخطأه ، مثلَ مَنْ طلب الباطل فأدركه » ، وهو الحقّ الذي لا يُعْدَلُ عنه وبه يقول أصحابنا ؛ فإنّ الخوارج عندهم أعذرُ من معاوية ، وأقلُّ ضلالاً ، ومعاوية أولى بأن يحارَب منهم .

قال أبو العباس : فلما رجع الجواب إلى معاوية أرسل إلى حوثرة الأسديّ أباه ، وقال له : اذهب فاكفني أمرَ ابنك ، فصار إليه أبوه ، فدعاه إلى الرجوع فأبى ، فأداره [4] فصمّم ، فقال : يا بنيّ ، أجيئك بابنك ؛ فلعلّك تراه فتحنّ إليه ! فقال : يا أبت ؛ أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلّب فيها على كعوب الرمح ؛ أشوقُ منّي إلى ابني !

(١) الكامل ٣ : ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٢ ـ ٢) الكامل : « فأول من خرج بعد قتل علي عليه السلام حوثرة الأسدي ؛ فإنه كان متنحيا بالبندنيجين ؛ فكتب إلى حابس الطائي يسأله أن يتولى أمر الخوارج حتى يسير إليه بجمعه ، فيتعاضدا على مجاهدة معاوية فأجابه ؛ فرجعا إلى موضع أصحاب النخيلة » .

(٣) الكامل : « بعد أن بايعه الحسن والحسين » .

(٤) الكامل : « فأداره » .

فرجع إلى معاوية فأخبره فقال: يا أبا حوثرة ، لقد عتا بحقّ هذا جدًّا . ثم وجه إليه جيشاً أكثره أهل الكوفة ، فلما نظر إليهم حوثرة ، قال لهم : يا أعداء الله ؛ أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدّوا سلطانه، وأنتم اليوم تقاتلون معه لتشدّوا سلطانه ا فخرج إليه أبوه ، فدعاه إلى البراز ، فقال : يا أبتِ ؛ لك في غيري مندوحة ، ولي في غيرك مذهب ، ثم حمل على القوم وهو يقول :

اكْرُرْ عَلَى هذِي الجموعِ حَوْثَرَهْ فمن قليـــلٍ ماتَنَالُ المَغفِرَهْ

فحمل عليه رجل من طيّئ فقتله ، فلما رأى أثر السجود قد لوّح جبهته ندم على قتله[1] .

[الرُّهَيْن المرادي]

وقال الرُّهَيْن المرادىّ أحد فقهاء الخوارج ونسّاكها[2] :

يا نفسُ قَدْ طَالَ في الدُّنيا مُرَاوغَتِي لا تأمَنَنَّ لصَرْفِ الدَّهْرِ تنغيصـــاً

إنى لبــائعُ مايَفْنَى لباقيـــة إن لم يَعُقْنِي رَجاءُ العيش تربيصاً[3]

وأســألُ الله بيعَ النفسِ محتسِباً حتى ألاقىَ في الفِرْدَوْسِ حُرْقوصـــا

وابنَ المنيحِ ومِرْدَاســاً وإخوَته إذْ فارقوا هــذه الدُّنيا خَمِيصا

***

قال أبو العباس : وأكثرهم لم يكن يبالي بالقتل ، وشيمتهم استعذابُ الموت ، والاستهانة بالمنيّة .

ومنهم المازنيّ بالأمراء ؛ وقد قُدِّم إلى السيف؛ ولّى زياد شيبانَ بن عبدالله الأشعرىّ ـ صاحب مقبُرة بنى شيبان ـ بابَ عثمان وما يليه بالبصرة، فجدّ في طلب الخوارج، وأخافهم ، فلم

---

(١) الكامل ٣ : ٣٣٩ ، ٣٤٠

(٢) في الكامل : « وكان رجلا من مراد ؛ وكان لايرى القعود عن الحرب ، وكان في الدهاء والمعرفة والشعر والفقه بقول الخوارج بمنزلة عمران بن حطان ، وكان عمران بن حطان في وقته شاعر قعد الصفرية ورئيسهم وفقيههم » .

(٣) التربيص : الانتظار ؛ وهو تمييز محول عن الفاعل ؛ أى لم يعوقنى الأمل في الحياة .

يزلْ على ذلك حتى أتاه ليلةً وهو متّكئٌ بباب داره رجلان من الخوارج، فضرباه بأسيافهما فقتلاه، فأُتِيَ زياد بعد ذلك برجل من الخوارج، فقال: اذهبوا به فاقتلوه متكئاً كما قتل شيبان متكئاً، فصاح به الخارجيّ: ياعدلاه! يهزأ به[١].

* * *

[عبّاد بن أخضر المازنيّ]

قال: وأما عبّاد بن أخضر قاتل أبي بلال مرداس بن أُدَيّة ـ وقد ذكرنا قصّته ـ فإنه لم يزلْ بعد قتله مرداساً محموداً في المِصْر موصوفاً بما كان منه؛ حتى ائتمر جماعة من الخوارج أن يقتلوه، فذمَرَ[٢] بعضُهم بعضاً على ذلك، فجلسوا له يوم جُمعة بعد أن أقبل على بغلته، وابنُه رديفه؛ فقام إليه رجلٌ منهم فقال له: أسألك [عن][٣] مسألة؟ قال: قل، قال: رأيتَ رجلا قتل رجلا بغير حقّ، وللقاتل جاه وقَدْر وناحية من السلطان؛ ولم يُعْدِ عليه السلطانَ لجوره؛ ألوليّ ذلك المقتول أن يقتل[٤] القاتل إن قدر عليه؟ فقال: بل يرفعه إلى السلطان. قال: إنّ السلطان لا يُعدِي عليه لمكانه منه، ولعظم جاهه عنده، قال: أخاف عليه إن فتك به [فتك به السلطان][٥]. قال: دعْ ماتخافه من السلطان، أيلحقه تَبِعة[٦] فيما بينه وبين الله؟ قال: لا؛ فحكَّم هو وأصحابُه ثم خبَطوه[٧] بأسيافهم، ورمى عبّاد بابنه فنجا، وتنادى الناس: قُتِل عبّاد، فاجتمعوا فأخذوا أفواه الطُّرق ـ وكان مقتل [عبّاد في سكّة][٧] بني مازن عند مَسْجِد بني كُليب بن يَرْبوع، فجاء معبد بن أخضر، أخو عبّاد ـ وهو معبد

---

(١) الكامل ٣ : ٢٦٣ .
(٢) الذمر : اللوم .
(٣) من الكامل .
(٤) الكامل : « أن يفتك » .
(٥) من الكامل .
(٦) التبعة : مايلحقه من الإثم .
(٧) الكامل : « وخبطوه » .

ابن علقمة؛ وأخضر زوج أمهما ـ فى جماعة من بنى مازن، وصاحوا بالناس : دعونا وثأرنا، فأحجم الناس، فتقدم المازنيّون، فحاربوا الخوارج حتى قتلوهم جميعاً ، لم يفلِتْ منهم أحد إلا عبيدة بن هلال ، فإنه خرّق خصًّا ونفذ فيه ، فنى ذلك يقول الفرزدق :

لَقَدْ أَدْرَكَ الأوتارَ غيرُ ذميمةٍ ... إذا ذُمَّ طُلّابُ التِّراتِ الأخاضرُ

هُمُ جرّدُوا الأسيافَ يوْمَ ابنِ أخضرٍ ... فنالُوا الّتِى مافَوْقَها نالَ ثائرُ

أقادُوا به أُسْداً لَهَا فى اقتحامِها ـ إذَا بَرَزَتْ نحو الحرُوب ـ بصائرُ[1]

ثم هجا كُليب بن يَرْبوع ؛ رهط جرير بن الخطَفَى ، لأنه قُتِل بحضرة مسجدهم ولم ينصروه ؛ فقال فى كلمته هذه :

كَفِعْلِ كُلَيْبٍ إذ أخَلّتْ بجارِها ... ونصرُ اللئيم مُعْتِمٌ وهو حاضرُ

وما لِكليبٍ حين تُذكَر أوّلٌ ... وما لِكُلَيْبٍ حين تُذكَرُ آخرُ

قال : وكان مقتل عبّاد بن أخضر وعُبيدالله بن زياد بالكوفة ، وخليفته على البصرة عُبيد الله بن أبى بَكْرة ، فكتب إليه يأمره ألّا يدع أحداً يُعرف بهذا الرأى إلا حبسه ، فجدّ فى طلب مَنْ تغيّب عنه ، وجعل يتتبعهم ويأخذهم ، فإذا شفع إليه أحد منهم كفله ، إلى أن يقدَم به على ابن زياد ، حتى أتوه بعُرْوة بن أُديّة فأطلقه ، وقال : أنا كفيلك؛ فلما قدم ابن زياد أخذ مَنْ فى الحبس، فقتلهم جميعاً ، وطلب الكفلاء بمن كفلوا به ، فكل مَنْ جاء بصاحبه أطلقه وقتل الخارجىّ ، ومن لم يأت بمن كَفل به منهم قتله .

ثم قال لابن أبى بَكْرة : هات عُروة بن أُديّة ، قال : لا أقدر عليه ، قال : إذاً والله أقتلك ؛ فإنك كفيله . فلم يزل يطلبه حتى دُلّ عليه فى سَرَب[2] العلاء بن سويّة المِنقرىّ ، فكتب بذلك إلى عبيد الله بن زياد ، فقرأ عليه كتابه[3] فقال : إنّا قد أصبناه فى شَرَب

---

(١) أقادوا به أسداً : قتلوهم به .
(٢) السرب : الطريق أو المسلك .
(٣) الكامل : « الكتاب »

المَلاء، فتهانف[1] به عبيدالله[2] وقال: صحّفت ولؤمت، إنما هو «في سَرَب الملاء»، ولوددت أنه كان ممّن شرب[3] النبيذ. فلما أقيم عروة بين يديه، قال: لم جهّزتَ[4] أخاك علىّ؟ يعنى أبا بلال، فقال: والله لقد كنتُ به ضنينا، وكان لى عِزًّا، ولقد أردت له ماأريد لنفسى، فعزم عزماً فمضى عليه، وما أحبّ لنفسى إلا المقام وترك الخروج. فقال له: أفأنت على رأيه؟ قال: كلّنا نعبد ربًّا واحداً، قال: أما والله لأمثّلنّ بك، قال: اختر لنفسك من القِصاص ماشئت؛ فأمر به فقطعوا يديه ورجليه؛ ثم قال له: كيف ترى؟ قال: أفسدْتَ علىّ دنياى، وأفسدتُ عليك آخرتك؛ فأمر به فصُلِب على باب داره[5].

* * *

[أبو الوازع الراسبىّ]

قال أبو العباس: وكان أبو الوازع الراسبىّ من مجتهدى الخوارج ونُسّاكها، وكان يذمّ نفسَه ويلومها على القعود، وكان شاعرا، وكان يفعل ذلك بأصحابه، فأتى نافعَ بن الأزرق وهو فى جماعة من أصحابه، يصف لهم جَوْرَ السلطان وفساد العامة، وكان نافع ذا لسان عَضْب واحتجاج وصَبْر على المنازعة، فأتاه أبو الوازع، فقال له: يانافع، إنك

---

(١) قال المبرد: فتهانف؛ حقيقته تضاحك به ضحك هزء وسخرية؛ قال عمر بن ربيعة:

فَتَهَانَفْنَ وَقَــــــدْ قُلْنَ لَهَا ... حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدّْ

(٢) فى الكامل بعدها: «وكان كثير المحاورة، عاشقا للكلام الجيد؛ مستحسنا للصواب منه، لايزال يبحث عن عذره؛ فإذا سمع الكلمة الجيدة عرج عليها. ويروى أنه قال فى عقب مقتل الحسين بن على عليه السلام لزينب بنت على رحمها الله، وكانت أسن من حمل إليه منهن، وقد كلمته فأفصحت وأبلغت، وأخذت من الحجة حاجتها؛ فقال لها: إن تكونى بلغت من الحجة حاجتك فقد كان أبوك خطيباً شاعراً؛ فقالت: ماللنساء والشعر، وكان هذا ألكن يرتضخ لغة فارسية، وقال لرجل مرة واتهمه برأى الخوارج: أهروري منذ اليوم».

(٣) الكامل: «ممن يشرب النبيذ».

(٤) العبارة فى الكامل: «فلما أقيم عروة بن أدية بين يديه؛ حاوره، وقد اختلف الناس فى خبره؛ وأصحه عندنا أنه قال له: جهزت أخاك على».

(٥) الكامل ٣: ٢٠٦ — ٢٠٩

أعطيتَ لسانا صارما ، وقلبا كليلا ، فلوَدِدْت أنّ صرامةَ لسانك كانت لقلبك ، وكلالَ قلبك كان للسانك ؛ أتحضّ على الحقّ وتقعد عنه ! وتقبّح الباطل وتقيم عليه ! فقال نافع : يا أبا الوازع ؛ إنما ننتظر الفرص ؛ إلى أن تجمع من أصحابك من تَنْكِي به عدوّك ، فقال أبو الوازع :

لِسانُكَ لا تَنْكِى بهِ القومَ إنما تنالُ بكفيكَ النَّجاةَ من الكَرْبِ
فجاهِدْ أناساً حاربُوا اللهَ واصطبِرْ عسَى اللهُ أن يخزِى غَوىّ بنى حرب (١)

يعنى معاوية . ثم قال : والله لا ألومُك ونفسى ألوم ، ولأغدُوَنّ غدوة لا أنثنى بعدها أبدا . ثم مضى فاشترى سيفا ، وأتى صَيْقلاً (٢) كان يذمّ الخوارج ، ويدلّ على عوراتِهم ، فشاوره فى السيف ، فحمِده ، ثم [قال] (٣) : اشحذه ، فشحذه حتى إذا رضِيَه ، خبَط به الصّيقل فقتله ، وحمل على الناس فهربوا منه ، حتى أتى مقبرة بنى يشكر ، فدفع عليه رجل حائط سترِه فشدَخه ، وأمر ابن زياد بصلبه (٤) .

***

[عمران بن الحارث الراسبىّ]

قال أبو العباس : ومن نُسّاكهم الذين قُتِلوا فى الحرب عمران بن الحارث الراسبىّ ، قُتِل يوم دُولاب ، التقى هو والحجاج بن باب الحِميَرىّ ـ وكان الأمير يومئذ على أهل البصرة ، وصاحب رايتهم ـ فاختلفا ضربتين فخرّا ميتين ، فقالت أمّ عمران ترثيه :

اللهُ أيّد عِمـــــرانا وطهّرهُ وكان عمرانُ يَدْعُو اللهَ فى السَّحَرِ

---

(١) فى الكامل : « يخزى » .
(٢) الصيقل : شحاذ السيوف وجلاؤها .
(٣) من الكامل .
(٤) الكامل ٣ : ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

يدعُوه سِرًّا وإعلانا ليرزُقَه … شهادةً بيدىْ مِلحَادةٍ غُــدَرِ
وَلَّى صَحَابتُه عَن حرِّ مَلْحَمَةٍ … وَشَدَّ عمرانُ كالضِّرغامة الذَّكَرِ [١]

* * *

قال : وممّن قتل من رؤسائهم يوم دولاب نافع بن الأزرق – وكان خليفتهم – خاطبوه بإمرة المؤمنين ، فقال رجل منهم يرثيه :

شَمِتَ ابنُ بَدْرٍ والحوادِثُ جَمَّةٌ … والجائرون بنافعِ بن الأزرقِ [٢]
والموتُ حَتْمٌ لا محالةَ وَاقِـعٌ … مَنْ لا يصبِّحهُ نهاراً يَطْرُقِ [٣]
فلئِنْ أميرَ المؤمنين أصابَهُ … رَيْبُ المَنُونِ فَمَنْ يُصِبْهُ يَغْلَقِ [٤]

وقال قَطَرِيّ بن الفُجَاءة يذكر يوم دَوْلاب [٥] :

لَعَمْرُكَ إنّى فى الحَياةِ لَزَاهِدٌ … وَفى العَيشِ مالم ألقَ أمّ حَكِيمِ [٦]
مِنَ الخَفِرَاتِ البيضِ لم يُرَ مِثلُها … شِفَاءٌ لِذى بثٍّ وَلا لِسَقِيمِ

---

(١) الكامل ٣ : ٢٩٦

(٢) الأغانى ٦ : ١٤٧ (٣) طرقه يطرقه ، إذا أتاه ليلا .

(٤) يغلق : لاينجو ؛ وأصله من قولهم : غلق الرهن فى يد المرتهن ، إذا لم يقدر على فكاكه واستخلاصه .

(٥) دولاب ، بفتح أوله وآخره باء موحدة ، وأكثر المحدثين يروونه بالضم ، وقد روى بالفتح فى عدة مواضع ، ودولاب هنا : قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ ، كانت بها وقعة بين أهل البصرة وأميرهم مسلم بن عنبس بن كريز ؛ قتل فيها نافع بن الأزرق (ياقوت) .

(٦) الأغانى ٦ : ١٤٨ (طبعة الدار) ، معجم البلدان ٤ : ١٠٤ وأم حكيم : امرأة من الخوارج ؛ وكانت من أشجع الناس ، كانت تحمل على الناس وترتجز :

أَحمِلُ رَأْساً قَدْ سَئِمتُ حَمْلَهُ … وَقَدْ مَلِلْتُ دَهْنَهُ وَغَسْلَهُ

* أَلا فَتًى يَحْمِلُ عَنّى ثِقْلَهُ *

وكانوا يفدونها بالآباء والأمهات ، وكانت من أجمل النساء وجها ، وأحسنهم بدينهم تمسكا . (رغبة الآمل ٧ : ٢٤٧) .

لعمرك إنى يومَ ألطِم وجهها … على نائبات الدهرِ جِدُّ لئيم (١)
فلو شهدتْنا يومَ دُولابَ شاهدتْ … طعانَ فتًى فى الحربِ غيرِ ذميم (٢)
غداةَ طفَتْ علْماءِ بكرُ بن وائلٍ (٣) … وعُجْنا صدورَ الخيلِ نحو تميم (٤)
وكان بعبدِ القيسِ أولُ جدِّنا … وأحلافِها من يحصُبٍ وسليم
وظلَّتْ شيوخُ الأزدِ فى حومةِ الوغى … تعومُ فمن مستنزَلٍ وهزيم (٥)
فلم أرَ يوماً كان أكثرَ مُقعَصاً … يمجُّ دماً من فائظٍ وكليم (٦)
وضاربةٍ خدًّا كريماً على فتى … أغرَّ نجيبِ الأمهاتِ كريم

---

(١) فى ياقوت بعد هذا البيت :

إذا قلتُ : يصبُو القلبُ أو ينتهِى المُنى … أبى القلبُ إلا حبَّ أمِّ حكيمِ
منعَّمةٌ صفراءُ حلوٌ دلالُها … أبيتُ بها بعدَ الهدوِّ أهيمُ
قطوفُ الخطا مخطوطةُ المتنِ زانَها … مع الحُسنِ خلقٌ فى الجمالِ عميمُ

(٢) قال المبرد : قوله : « ولو شهدتنا يوم دولاب » ، فلم ينصرف « دولاب » ؛ فإنما ذاك لأنه أراد البلدة ، ودولاب : أعجمى معرب » .

(٣) فى الأصول : « فى الماء » ؛ وصوابه من الكامل والأغانى وياقوت . قال المبرد : « وقوله : غداة طفت علماء بكر بن « وائل » ، وهو يريد : « على الماء » ؛ فإن العرب إذا التقت فى مثل هذا الموضع لامان استجازوا حذف إحداهما استثقالا للتضعيف ، لأن ما بقى دليل على ما حذف ؛ فيقولون : « علماء بنو فلان » ، كما قال الفرزدق :

وما سُبِقَ القيسىُّ مِن ضعفِ حيلةٍ … ولكنْ طفَتْ علْماءِ قُلْفةُ خالدِ

(٤) رواية هذا البيت وتاليه فى الأغانى :

غداةَ طفتْ علْماءِ بكرِ بن وائلٍ … وألَّافُها من حِميَرٍ وسليمِ
ومالَ الحجازيُّونَ نحوَ بلادِهمْ … وعُجْنا صدورَ الخيلِ نحوَ تميمِ

(٥) يقال : استُنزل فلان ؛ إذا حط عن قدره . الشطر الثانى فى الكامل وياقوت :

* تعومُ وظلْنا فى الجلادِ نعومُ *

(٦) مقعصا ، من أقعصه برمحه ؛ إذا طعنه فمات مكانه ، والفائظ ، من فاظ يفوظ ويفيظ : مات .

أصيبَ بدُولابٍ ولم تكُ مَوْطِنًا ... له أرضُ دولَابٍ وأرضُ حَميمِ (١)

فلو شهدتْنا يوم ذاك وخَيلُنا ... تُبيح الكفّار كلَّ حَريمِ

رأت فتيةً باعوا الإله نفوسَهُم ... بجنّات عَدْن عنده ونعيمِ

* * *

[عبد الله بن يحيي طالب الحق]

ومن رؤساء الخوارج وكبارهم عبد الله بن يحيي الكنديّ الملقّب طالب الحق، وصاحبه المختار بن عوْف الأزديّ صاحب وقعة قُدَيد (٢) ؛ ونحن نذكر ماذكره أبو الفرج الأصفهانيّ من قصتهما فى كتاب " الأغانى " (٣) مختصرا محذوفا منه مالا حاجة بنا فى هذا الموضع إليه .

قال أبو الفرج : كان عبد الله بن يحيي من حَضْرَموت ، وكان مجتهدا عابدا ، وكان يقول قبل أن يخرج : لقيني رجلٌ فأطال النظرَ إليّ وقال : ممّن أنت ؟ قلت : من كِنْدة ، فقال : من أيّهم ؟ فقلت : من بنى شيطان ، فقال : والله لتَملكنّ وتبلُغَنّ وادِيَ (٤) القُرَى ؛ وذلك بعد أنْ تَذهب إحدى عينيك ؛ وقد ذهبت وأنا أتخوّف ما قال ، وأستخير الله .

فرأى باليمن جَوْرا ظاهرا ، وعَسْفا شديدا ، وسيرة فى الناس قبيحة ، فقال لأصحابه : إنه لا يحلّ لنا المقام على ما نرى ؛ ولا الصبرَ عليه . وكتب إلى جماعة من الإباضيّة بالبصرة وغيرها ، يشاورهم فى الخروج ، فكتبوا إليه : إن استطعت ألّا تقيم يوما واحدا فافعل ؛

(١) كذا فى الأصول ، وفى الكامل والأغانى وياقوت : « دير حيم » ، وهو موضع بالأهواز .
(٢) قديد : موضع قرب مكة .
(٣) الأغانى ٢٠ : ٩٧ وما بعدها ساسى ، و ٢٣ : ١١١ (بيروت) وما بعدها ملخصا متصرفا .
(٤) وادى القرى : بين المدينة والشام .

فإنّ المبادرة بالعمل الصالح أفضلُ ؛ ولستَ تدرِى متى يأتى أجلُك ؛ ولله بَقِيّة خَيْر من عباده ؛ يبعثهم إذا شاء بنصر دينه ، ويختصّ بالشهادة منهم مَنْ يشاء .

وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدىّ وبلج بن عُقْبة المسعودىّ فى رجال من الإباضيّة ، فقدموا عليه حضرموت فحرّضوه على الخروج ، وأتوه بكتب أصحابه يُوصونه ويُوصون أصحابَه : إذا خرجتم فلا تَغُلُّوا، ولا تَغدِرُوا، واقتدوا بسلفكم الصالحين، وسيروا بسيرتهم ؛ فقد علمتم أنّ الذى أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم .

فدعا عبدُ الله أصحابه فبايعوه، وقصدوا دار الإمارة ؛ وعلى حضرموت يومئذ إبراهيم ابن جَبَلة بن مخرمة الكندىّ فأخذه ، فحبسه يوما ثم أطلقه ، فأتى صنعاء ، وأقام عبدالله بحضرموت ، وكثر جمعه ، وسَمَّوْه « طالبَ الحق » .

وكتب إلى مَنْ كان من أصحابه بصنعاء : إنّى قادم عليكم ؛ ثم استخلف على حَضْرموت عبدَالله بن سعيد الحضْرمىّ، وتوجّه إلى صنعاء — وذلك فى سنة تسع وعشرين[1] ومائة — فى ألفين، والعامل على صنعاء يومئذ القاسم بن عمرو أخو يوسف بن عمرو الثّقَفىّ ؛ فجرَت بينه وبين عبدالله بن يحيى حروب ومناوشات ، كانت الدّولة فيها والنصرة لعبدالله بن يحيى ؛ فدخل إلى صنعاء ، وجَمع ما فيها من الخزائن والأموال فأحرزها .

فلما استولى على بلاد اليمن خَطب، فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، وذَكّر وحذّر ؛ ثم قال : إنا ندعوكم أيّها الناس إلى كتاب الله وسنة نبيّه، وإجابة مَنْ دعا إليهما. الإسلام دينُنا، ومحمد نبيُّنا، والكعبة قبلتُنا، والقرآن إمامنا. رضينا بالحلال حلالا لا نبتغى به بدلا ، ولا نشترى به ثمنا، وحرّمنا الحرام، ونبذناه وراء ظُهورنا؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإلى الله المشتكى ، وعليه المعوّل ؛ مَنْ زنَى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شَرِب الخمر فهو كافر؛ ومن شكّ فى أنه كافر فهو كافر. ندعوكم إلى فرائض بيّنات؛ وآياتٍ محكمات؛

(١) كذا فى الأغانى .

وآثار نقتدي بها، ونشهد أن الله صادق فيما وعد، وعَدْل فيما حكم، وندعو إلى توحيد الربّ واليقين بالوعْد والوعيد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، والمداوة لأعداء الله. أيّها الناس، إنّ مِنْ رحمة الله أن جَعَل فى كلّ فَترة بقايا من أهل العلم، يدعُون مَنْ ضَلّ إلى الهدى، ويصبرون على الألم فى جنب الله؛ ويُقتلون على الحقّ فى سالف الأيام، شهداء فما نسيَهم ربُّهم؛ وما كان ربك نسيّا. أوصيكم بتقوى الله وحُسْن القيام على ما وُكّلتم بالقيام عليه؛ وقابلوا الله حُسْنا فى أمره وزجره أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

قال: وأقام عبدُ الله بن يحيى بصنعاء أشهرًا، يحسِنُ السِّيرة فى الناس، ويُلين جانبَه لهم، ويكفّ الأذَى عنهم؛ وكثر جمعُه؛ وأتته الشُّراة مِنْ كلّ جانب؛ فلمّا كان فى وقت الحج وجّه أبا حمزة المختار بن عوف، وبَلْج بن عُقبة، وأبرهة بن الصّباح إلى مكة؛ والأمير عليهم أبو حمزة فى ألف؛ وأمره أن يقيمَ بمكة إذا صدر الناس، ويوجّه بَلْجًا إلى الشام، فأقبل المختار إلى مكة يوم التّروية؛ وعليها وعلى المدينة عبد الواحد بن سليمان بن عبدالملك فى خلافة مَرْوان بن محمد بن مروان، وأمّ عبدالواحد بنت عبدالله بن خالد بن أسيد، فكره عبدُالواحد قتالَهم، وفزِع النّاس منهم حين رأوْهم، وقد طلعوا عليهم بعَرفة، ومعهم أعلام سُود فى رءوس الرّماح؛ وقالوا لهم: مالكم وما حالكم؟ فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان والتبرّئ منهم، فراسلهم عبدُالواحد فى ألّا يعطّلوا على الناس حَجّهم. فقال أبو حمزة: نحن بحجّنا أضنّ، وعليه أشحّ؛ فصالحهم على أنّهم جميعا آمنون بعضهم من بعض؛ حتى ينفِر الناس النّفْر الأخير؛ وأصبحوا من الغد، ووقفوا[1] بحيال عبدالواحد بعرَفة، ودفع عبد الواحد بالنّاس؛ فلما كانوا بمِنًى؛ قيل لعبدالواحد: قد أخطأت فيهم؛ ولو حملت عليهم الحاجّ ما كانوا إلّا أكلة رأس[2].

(١) الأغانى: «فوقفوا».
(٢) أكلة رأس، أى عددهم قليل يكفيهم رأس واحد.

وبعث عبد الواحد إلى أبي حمزة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وعبيد الله بن عمر بن حفص العُمَريّ ، وربيعة بن عبد الرحمن ؛ ورجالاً أمثالهم ؛ فلما قَرُبوا من أبي حمزة أخذتْهم مَسالحه[1] فأدخلوا على أبي حَمْزة ، فوجدوه جالسا ؛ وعليه إزار قَطَرِيّ[2] قد ربطه بحوره في قفاه ، فلما دنوا ؛ تقدّم إليه عبد الله بن الحسن العلويّ ، ومحمد بن عبد الله العثمانيّ ؛ فنسبهما[3] ، فلمّا انتسبا له عَبَس في وجوههما ، وأظهر الكراهيَة لهما ، ثم تقدّم إليه بعدهما البَكريّ والعمريّ فنسبهما فانتسبا له ، فهشّ إليهما وتبسّم في وجوههما ، وقال : والله ما خرجْنا إلا لنسير سيرة أبويكما ، فقال له عبد الله ابن حَسن : والله ما جئناك لتفاخر بين آبائنا ؛ ولكنّ الأميرَ بعثنا إليك برسالة ، وهذا ربيعة يخبركها ، فلما أخبره ربيعة ، قال له : إنّ الأمير يخاف نَقْضَ العهد ؛ قال : معاذ الله أن تنقض العهد ، أو نخيس[4] به ! والله لا أفعل ولو قطعت رقبتي هذه ؛ ولكن إلى أن تنقضيَ المدنة بيننا وبينكم .

فخرجوا من عنده ، فأبلغوا عبد الواحد ، فلما كان النّفر الأخير ، نَفَرَ عبد الواحد وخلّى مكةَ لأبي حمزة ؛ فدخل بغير قتال ، فقال بعضُ الشعراء يهجو عبد الواحد[5] :

زارَ الحجيجَ عصابةٌ قد خالَفُوا ... دينَ الإله ففرّ عبدُ الواحدِ
ترك الإمـارة والمواسمَ هاربًا ... ومضى يخبِّط كالبعير الشاردِ
فلو أنّ[6] والده تخير أمَّهُ ... لصفَت خلائقه بعِرْق الوالد

---

(١) المسالح : جمع مسلحة ؛ وهي هنا : القوم يحملون السلاح .
(٢) في الأغاني : « قطواني » .
(٣) نسبهما : أي سألهما أن ينتسبا .
(٤) خاس بالعهد : أي غدر ونكث .
(٥) في الأغاني : « قال هارون : وأنشدني يعقوب بن طلحة الليثي أبياتا هجا بها عبد الواحد لشاعر لم يحفل باسمه » .
(٦) الأغاني : « لو كان والده »

ثم مضى عبدُ الواحد حتى دخل المدينة ودعا بالديوان ، فضرَب على الناس البَعْث ، وزادهم فى العطاء عشرة عشرة ؛ واستعمل على الجيش عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان فخرجوا ، فلقيتْهم جُزُر منحورة ؛ فتشاءم الناس بها ؛ فلما كانوا بالعقيق[١] عَلِق لواء عبد العزيز بسَمُرة[٢] فانكسر الرمح ؛ فتشاءموا بذلك أيضا .

ثم ساروا حتى نزلوا قُدَيْداً ، فنزل بها قوم معتزلون ؛ ليسوا بأصحاب حرب ؛ وأكثرهم تجار أغمار ؛ قد خرجوا فى المصبّغات والثياب الناعمة واللهو ، لا يظنون أن للخوارج شوكة ، ولا يشكّون فى أنهم فى أيديهم .

وقال رجل منهم من قريش : لو شاء أهلُ الطائف لكفَوْنا أمرَ هؤلاء ؛ ولكنهم داهنوا فى دين الله ؛ والله لنظفرَنّ ولنسيرنّ إلى أهل الطائف فلنسبِيَنّهم ؛ ثم قال : مَنْ يشترى مِنّى من سَبْى أهلِ الطائف ؟

قال أبو الفرج : فكانَ هذا الرّجل أوّلَ المنهزمين ؛ فلما وصل المدينة ؛ ودخل داره ؛ أراد أن يقول لجاريته : أغلق الباب ؛ قال لها : « غاق باق » دهشا ، فلقّبه أهلُ المدينة بعد ذلك « غاق باق » ؛ ولم تفهم الجارية قوله ، حتى أومأ إليها بيده ، فأغلقت الباب .

قال : وكان عبد العزيز يعرِض الجيش بذى الحُلَيفة[٣] ، فمرّ به أمية بن عنبَسة بن سعيد بن العاص ، فرحّب به وضحك إليه ، ثم مرّ به عُمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير فلم يكلّمه ؛ ولم يلتفت إليه ، فقال له عمران بن عبد الله بن مطيع ــ وكان ابن خالته ، أمّاهما ابنتا عبد الله بن خالد بن أسيد ــ : سبحان الله ! مرّ بك شيخ من شيوخ قريش ؛ فلم تنظر

---

(١) عقيق المدينة ، قيل : هما عقيقان : الأكبر مما على الحرة إلى قصر المراجل ؛ والأصغر ماسفل عن قصر المراجل . (مراصد الاطلاع)

(٢) السمرة : شجرة العضاه .

(٣) ذو الحليفة : موضع من تهامة بين حاذاة وذات عرق

إليه ولم تكلمه ، ومرّ بك غلام من بنى أميّة فضحكتَ إليه ولاطفته ! أما والله لو التقى الجمعان لعلمت أيّهما أصبر !

قال : فكان أمية بن عنبة أوّلَ مَن انهزم وركب فرسَه ومضى ، وقال لغلامه : ياجيب ، أما والله لئن أحرزت(١) هذه الأكلب من بنى الشُّراة إنى لعاجز .

وأما عمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير فقاتل يومئذ حتى قتل ، وكان يحمِل ويتمثّل :

وإنى إذا ضَنّ الأميرُ بإذنه على الإذنِ من نفسى إذاشئتُ قادرُ

والشعر للأغرّ بن حماد اليشكرى (٢) .

قال : فلما بلغ أبا حمزة إقبالُ أهل المدينة إليه ، استخلفَ على مكةَ أبرهة بن الصبّاح، وشخص إليهم ، وعلى مقدمته بلج بن عُقبة .

فلما كان فى الليلة التى وافاهم فى صبيحتها ، وأهل المدينة نزول بقُدَيْد ، قال لأصحابه: إنكم ملاقُو القوم غداً ،وأميرهم فيما بلغنى ابنُ عثمان ،أوّل مَنْ خالف سُنّة الخلفاء وبدّل سنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد وضَح الصُّبح لذى عينين ، فأكثِروا ذكرَ الله وتلاوةَ القرآن ،ووطِّنوا أنفسكم على الموت . وصبّحهم غداة الخميس لتسع خلوْن من صفر سنة ثلاثين ومائة .

قال أبو الفرج : وقال عبد العزيز لغُلامه فى تلك الليلة : ابغنا عَلَفًا ، قال : هو غال، فقال : ويحك البواكى علينا غداً أغلى،وأرسل أبو حمزة إليهم بلج بن عقبة ليدعوَهم،فأتاهم فى ثلاثين راكباً فذكّرهم الله ، وسألهم أن يكفُّوا عنهم،وقال لهم : خلُّوا سبيلنا إلى الشام،لنسير

(١) كذا فى ب ،وفى ج : « لواجتوزت نفسى » ، وفى الأغانى : « أجرزت نفسى » .
(٢) فى شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٤٧٣ : الشعر ينسب إلى عبد الله بن سبرة الجرشى »

إلى مَنْ ظلمكم ، وجار فى الحكم عليكم ، ولا تجعلوا حدّنا بكم ، فإنا لا نريد قتالكم ، فشتمهم أهلُ المدينة ، وقالوا : يا أعداء الله ، أنحن نخليكم ، ونترككم[1] تفسدون فى الأرض!

فقالت الخوارج : يا أعداء الله ، أنحن نفسد فى الأرض ! إنّما خرجنا لنكفَّ الفساد ، ونقاتل مَنْ قاتلنا منكم ، واستأثر بالفىء ! فانظروا لأنفسكم ، واخلعوا مَنْ لم يجعل الله له طاعة ، فإنه لا طاعةَ لمخلوق فى معصية الخالق ، فادخُلوا فى السّلْم ، وعاونوا أهل الحقّ .

فناداه عبد العزيز : ما تقول فى عثمان ؟ قال : قد برئ منه المسلمون قَبْلى ، وأنا متّبع آثارهم ، ومقتدٍ بهم ، قال : ارجع إلى أصحابك فليس بيننا وبينكم إلا السيف ، فرجع إلى أبى حمزة فأخبره ، فقال : كُفّوا عنهم ، ولا تقاتلوهم حتى يبدءوكم بالقتال ، فواقفُوهم ولم يقاتلوهم ، فرمى رجلٌ مِنْ أهل المدينة بسَهْمٍ فى عسكر أبى حمزة ، فجرح منهم رجلا ، فقال أبو حمزة : شأنكم الآن فقد حلّ قتالُهم ، فحملوا عليهم ، فثبتَ بعضُهم لبعض ، وراية قريش مع إبراهيم بن عبد الله بن مطيع ، ثم انكشف أهلُ المدينة ، فلم يتبعوهم ، وكان على عامتهم صخر بن الجهم[2] بن حذيفة العدوىّ ، فكبّر وكبّر الناس معه ، فقاتلوا قليلا ، ثم انهزموا فلم يُبعِدوا حتى كبّر ثانية ، فثبت معه ناس وقاتلوا ، ثم انهزموا هزيمة لم يَبْقَ بعدها منهم باقية . فقال علىّ بن الحصين لأبى حمزة : اتبع آثار القوم ، أو دَعْنى أتبعهم ، فأقتُل المدبر ، وأذَفّف[3] على الجريح ، فإن هؤلاء شرٌّ علينا من أهل الشام ، ولو قد جاءك أهلُ الشام غداً لرأيتَ مِنْ هؤلاء ما تكره ، قال : لا أفعل ، ولا أخالف سيرة أسلافنا .

وأخذ جماعةً منهم أسرَى ، وأراد إطلاقهم ، فمنعه علىّ بن الحصين ، وقال : إنّ لكلّ

---

(١) الأغانى : « وندعكم » .
(٢) الأغانى : « ضمير بن صخر » .
(٣) يذفف على الجريح : يقضى عليه .

زمان سيرة ، وهؤلاء لم يؤمَروا وهم هراب ؛ وإنما أسِروا وهم يقاتلون ؛ ولو قتلوا في ذلك الوقت لم يحرُمْ قتلهم ، فهكذا الآن(١) ؛ قتلُهم حلال . ودعا بهم(١) ؛ فكان إذا رأى رجلاً من قريش قتله ؛ وإذا رأى رجلا من الأنصار أطلقه .

قال أبو الفرج : وذلك لأن قريشاً كانوا أكثرَ الجيش ، وبهم كانت الشوكة . وأتى محمد بن عبد العزيز بن عمرو بن عثمان ، فنسَبه ، فقال : أنا رجل من الأنصار ، فسأل الأنصار فأقرت بذلك ، فأطلقه ؛ فلما ولّى قال : والله إني لأعلم أنه قرشيّ ، ولكن قد أطلقته .

قال : وقد بلغت قتلَى قُدَيْد ألفين ومائتين وثلاثين رجلاً ؛ منهم من قريش أربعمائة وخمسون رجلا ، ومن الأنصار ثمانون رجلا ، ومن الموالى وسائر الناس ألف وسبعمائة رجل .

قال : وكان في قتلَى قريش من بني أسد بن عبد العزّى بن قصي أربعون رجلا .

قال : وقُتِل يومئذ أميّة بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، خرج مقنّعاً ، فلم يكلّم أحداً ، وقاتل حتى قُتِل ؛ ودخل بَلْج المدينة بغير حرب ، فدخلوا في طاعته ، وكفّ عنهم ، ورجع إلى مُلْكه ، وكان على شُرْطته أبو بكر بن عبد الله بن عمر ، من آل سراقة ، فكان أهل المدينة ، يقولون : لعن الله السُّراقيّ ، ولعن الله بَلْجاً العراقيّ . وقالت نائحة أهل المدينة [تبكيهم](٢) :

ما للزمانِ وما لِيَهْ ... أفنَتْ قُدَيْدُ رجاليَهْ

فلأبكيَنّ سريرةً ... ولأبكيَنّ علانيَهْ

ولأبكينّ على قُدَيْـ ... ـدَ بسوء ما أولانيَهْ(٣)

ولأعْوِيَنّ إذا خَلَوْ ... تُ مع الكلاب العاويَهْ

* * *

(١ ـ ١) ساقط من ج

(٢) من الأغاني

(٣) في الأغاني : « أبلانيه » .

[أبو حمزة الشارى]

قال أبو الفرج: ولما سار عبدُ الواحد بن سليمان بن عبد الملك إلى الشام ، وخلّف المدينة لبَلْج ، أقبلَ أبو حمزة من مكة حتى دخلها ، فرقِيَ المنبر ، فحمِد الله وقال : ياأهلَ المدينة، سألنا كم عن وُلاتكم هؤلاء ، فأسأتم لعمرى واللهِ القولَ فيهم ، وسألنا كم : هل يَقتلون بالظنِّ ؟ فقلتم : نعم ، وسألنا كم : هل يستحِلّون المال الحرام والفرج الحرام ؟ فقلتم : نعم ، فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم ، فانشدُوا اللهَ وحدَه أن يَتنحّوْا عنا وعنكم ليختار المسلمون لأنفسهم ؛ فقلتم : لا نفعل ، فقلنا لكم : تعالوْا نحن وأنتم نلقاهم ؛ فإن نظهر نحن وأنتم[1] يأتِ مَن يقيم لنا كتاب الله وسنة نبيّه ، ويعدِل فى أحكامكم ، ويحملكم على سنة نبيكم ، فأبيتم وقاتلتمونا ، فقاتلنا كم وقتلنا كم ، فأبعدكم الله وأسحقكم يا أهلَ المدينة ! مررتُ بكم فى زمن الأحول هشام بن عبد الملك ، وقد أصابتكم عاهة فى ثمارِكم ، فركبتم إليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم ، فكتب بوضعه عن قوم من ذوى اليسار منكم ، فزاد الغنىَّ غنًى ، والفقير فقرا[2] . وقلتم : جزاه الله خيرا ، فلا جزاه خيراً ولا جزا كم !

* * *

قال أبو الفرج . فأما خطبتا أبى حمزة المشهورتان اللتان خطب بهما فى المدينة ؛ فإن أحداهما قوله :

تعلَمُون[3] ياأهلَ المدينة ، أنّا لم نخرج من ديارِنا وأموالنا أشَراً ولا بطراً ، ولا عبثا ولا لهوا ؛ ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ، ولا لثأرقديم نِيلَ منا ؛ ولكنّا لما رأينا مصابيح الحق قد أطفِئَتْ ؛ ومعالم العدْل قد عُطِّلَتْ ، وعُنِّفَ القائم[4] بالحق ، وقتل القائم بالقسط ، ضاقت علينا الأرضُ بما رحُبت، وسمعنا داعياً[5] يدعو إلى طاعة الرحمن، وحكم القرآن ، فأجبنا داعى الله ، ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[6] .

---

(١) فى الأصول : « فإن يظهروا يأت » ، وما أثبته من الأغانى ٩ : ١٠٧ .
(٢) فى الأصول : « فرد الغنى غنياً ، والفقير فقيراً » ، وما أثبته من الأغانى .
(٣) الأغانى : « تعلموا » . (٤) الأغانى : « القائل »
(٥) يريد بالداعى عبد الله بن يحيى . (٦) سورة الأحقاف ٣٢ .

فأقبلنا من قبائلَ شتّى ، النفرُ[1] منّا على البعير الواحد ، وعليه زادُهم ، يتعاورون لحافاً واحداً ؛ قليلون مستضعفون في الأرض ، فآوانا اللهُ وأيدّنا بنصره ، وأصبحنا ـ والله المحمود ـ من أهل فضله ونعمته[2] . ثم لقِينا رجالُكم بقُدَيْد ؛ فدعوناهم إلى طاعة الرّحمن ، وحكم القرآن ، فدعَوْنا إلى طاعة الشيطان ، وحُكم مَرْوان ؛ فشتّان ـ لعمر الله ـ ما بين الغيّ والرشد ! ثم أقبلوا يزفّون[3] ويهرعون ؛ قد ضرب الشيطان فيهم بجرّانه[4] ، وصدّق عليهم إبليس ظنّه ، وأقبل أنصار الله عصائبَ وكتائب ؛ بكل مهنّدٍ ذي رَوْنق ، فدارت رحانا واستدارت رحاهم ، بضربٍ يرتاب منه المبطلون .

وايمُ الله يا أهلَ المدينة ؛ إن تنصروا مَرْوان وآلَ مروان فيسحِتَكم[5] الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا ، ويَشْفِ صدور قوم مؤمنين .

يا أهل المدينة ، الناس منّا ونحن منهم ، إلا مشركاً عابد وثَن ، أو كافراً من أهل الكتاب ؛ أو إماماً جائراً .

يا أهل المدينة ؛ مَنْ يزعم أن الله تعالى كلّف نفساً فوق طاقتها ، وسألها عمّا لم يؤتها فهو لنا حَرْب .

يا أهل المدينة ، أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله في كتابه على القويّ والضعيف ؛ فجاء تاسع ليس له منها سَهْم ، فأخذها جميعاً لنفسه ؛ مكابراً محارباً لربه ، ماتقولون فيه ، وفيمن عاونه على فعله ؟

يا أهل المدينة ، بلغني أنكم تنتقِصون أصحابي ، قلتم : هم شبابٌ أحداث ، وأعراب جُفاة ، ويحكم يا أهل المدينة ! وهل كان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلا شباباً

---

(١) النفر : جماعة الرجال ؛ من ثلاثة إلى عشرة .
(٢) الأغاني : « وأصبحنا ـ والله حميد ـ بنعمته إخواناً » .
(٣) يزفون : يسرعون ؛ وأصله في الظليم .
(٤) جران البعير : مقدم عنقه .
(٥) يسحتكم : يستأصلكم .

أحداثا ! نعم والله إنّ أصحابى لَشباب مكتهلون[١] فى شبابهم ؛ غضيضة عن الشرّ أعينُهم، ثقيلة عن الباطل أقدامُهم[٢] ؛ قد باعوا أنفساً تموت غداً بأنفس لاتموت أبداً ؛ قد خلطوا كَلالهم بكلالهم ، وقيام ليلهم بصيام نهارهم ، محنيّة أصلابُهم على أجزاء القرآن ؛ كلّما مرّوا بآية خوف شهقوا خوفا من النار ، وكلّما مرّوا بآية رجاء شهقوا شوقاً إلى الجنة ، وإذا نظروا إلى السيوف وقد انتُضِيَتْ ، وإلى الرماح وقد أُشرِعَتْ ، وإلى السهام وقد فُوّقت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت ـ استخفّوا وعيدَها عند وعيد الله ، وانغمسوا فيها . فطوبى لهم وحسن مآب ! فكم من عين فى منقار طائر طالما بكى بها صاحبُها من خَشْية الله ! وكَمْ من يدٍ قد أُبينتْ عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا وساجداً فى طاعة الله ! أقول قولى هـذا وأستغفر الله ، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب .

• • •

وأما الخطبة الثانية ، فقوله :

ياأهل المدينة ، مالى رأيتُ رَسْمَ الدين فيكم عافياً ، وآثاره دارسة لاتقبلون [عليه][٣] عظة ، ولا تفقهون من أهله حُجّة ، قد بليت فيكم جِدّته ، وانطمستْ عنكم سُنّته ، ترون معروفه منكراً ، والمنكرَ من غيره معروفا ، فإذا انكشفتْ لكم العِبَر ، وأوضحت لكم النُّذُر ، عَمِيَتْ عنها أبصاركم ، وصَمّت عنها آذانكم ، ساهين فى غمرة ، لاهين فى غفلة ، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نُشِر ، وتنقبض عن الحقّ إذا ذُكِر ، مستوحشة من العلم ، مستأنسة بالجهل ، كلّما وردت عليها موعظة زادتها عن الحقّ نفوراً ، تحملون قلوباً فى صدوركم كالحجارة أو أشدّ قسوة من الحجارة ؛ فهى لاتلين بكتاب الله ؛ الذى لو أُنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله !

(١) مكتهلون : أى قد أحرزوا رزانة الكهول .
(٢) ج : « أرجلهم » .
(٣) من الأغانى

يأهلَ المدينة ، إنه لا تُغني عنكم صحّةُ أبدانكم إذا سَقِمت قلوبكم ، قد جعل الله لكلّ شيء سببا غالبا عليه ؛ لينقاد إليه مطيع أمره ، فجعل القلوب غالبة على الأبدان ، فإذا مالت القلوبُ مَيْلاً كانت الأبدان لها تبعا ، وإنّ القلوب لاتلينُ لأهلها إلا بصحتها ، ولا يصححها إلا المعرفة بالله ؛ وقوة النية ونفاذ البصيرة ؛ ولو استشعرت تقوى الله قلوبُكم، لاستُعمِلت في طاعة الله أبدانُكم .

يأهل المدينة ؛ داركم دارُ الهجرة ، ومثوى الرسول صلى الله عليه وسلّم ، لما نَبَتْ به دارُه، وضاق به قراره ، وآذاه الأعداء وتجهّمت له ، فنقله الله إليكم ؛ بل إلى قومٍ لعمرى لم يكونوا أمثالكم ، متوازرين مع الحقّ على الباطل ، مختارين الآجل على العاجل ؛ يصبرُون للضراء رجاء ثوابها، فنصروا الله وجاهدوا في سبيله، وآزروا[1] رسوله صلى الله عليه وسلّم، واتبعوا النّور الذي أنزل معه ؛ وآثروا الله على أنفسهم ؛ ولو كان بهم خصاصة ، فقال الله تعالى لهم ولأمثالهم، ولمن اهتدى بهديهم : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2] . وأنتم أبناؤهم ومَنْ بقى من خلفهم ، تتركون أن تقتدوا بهم، أو تأخذوا بسنّتهم ، عُمْى القلوب صم الآذان. اتبعتم الهوى فأرداكم عن الهدَى ، وأسهاكم[3] عن مواعظ القرآن ، لا تزجركم[3] فتنزجرُون، ولا تعظكم فتتعظون ؛ ولا توقظكم فتستيقظون ، لبئس الخلَفُ أنتم من قوم مَضَوْا قبلكم ! ماسرتم سيرتهم ، ولا حفظتم وصيتهم ، ولا احتذيتم مثالهم ؛ لو شُقّت عنهم قبورهم فعرضت عليهم أعمالكم لعجِبُوا كيف صُرِف العذاب عنكم ! ألا ترون إلى خلافة الله وإمامة المسلمين كيف أضيعت ؛ حتى تداولها بنو مَرْوان ؛ أهل بيت اللعنة ، وطرداء رسول الله، وقوم [من][4] الطُّلَقاء، ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ولا التابعين بإحسان ! فأكلوا مال الله أكلا، وتلعّبوا بدين الله لعبا ؛ واتخذا عباد الله عبيداً ، يورثُ الأكبرُ منهم ذلك الأصغر ؛ فيالها

(١) الأغانى : « وآووا » . (٢) سورة الحشر ٩ والتغابن ١٦ .
(٣ - ٣) الأغانى : « وأسهاكم ، فلا مواعظ القرآن تزجركم » .
(٤) من ج .

أمّة ما أضعفها وأضيعها ! ومضوا على ذلك مِنْ سيّئ أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله ، قد نبذوه وراء ظهورهم ، فالعنوهم لعنهم الله لعنا ؛ [كما يستحقونه] [١] .

ولقد ولِيَ منهم عمر بن عبدالعزيز فاجتهد ولم يكَدْ ، وعجز عن الذى أظهر ، حتى مضى لسبيله . قال : ولم يذكره بخير ولا بشرّ . ثم قال : وولِيَ بعده يزيد بن عبدالملك ، غلام سفيهٌ ضعيف ، غير مأمون على شيء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشُدَّه ، ولم يؤنَسْ رشده ، وقد قال الله عزّ وجلّ : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [٢] وأمرُ أمة محمد صلى الله عليه وأحكامها وفروجها ودماؤها أعظمُ عند الله من مال اليتيم ؛ وإن كان عند الله عظيما ، غلام مأبونٌ فى فَرْجه وبطنه ، يأكل الحرام ، ويشرب الخمر ، ويلبس بُرْدَين قد حيكا من غير حلِّهما ، وصرفت أثمانهما فى غير وجهها ، بعد أن ضُرِبت فيهما الأبشار [٣] ، وحُلِقَتْ فيهما الأشعار ؛ استحلّ مالم يحلّه الله لعبد صالح ، ولا لنبيّ مرسل ؛ فأجلس حَبَابة عن يمينه ، وسلّامة عن يساره ، يغنّيانه بمزامير الشيطان ، ويشرب الخمر الصُّراح ، المحرّمة نصًّا بعينها ؛ حتى إذا أخذت منه مأخذها ، وخالطت روحَه ولحمه ودمه ؛ وغلبت سَوْرتُها على عقله ، مزّق بُرْدَيه ، ثم التفت إليهما ، فقال : أتأذنان لى بأن أطير ! [٤] نعم فطِرْ إلى النّار ، طِرْ إلى لعنة الله ، طِرْ إلى حيث لا يردّك الله [٤] .

ثم ذكر بنى أميّة وأعمالَهم ، فقال : أصابوا إمْرة ضائعة ، وقوماً طَغاماً جهّالاً لا يقومون لله بحق ، ولا يفرقون بين الضّلالة والهدى ؛ ويرون أنّ بنى أمية أربابٌ لهم ؛ فملكوا الأمر ، وتسلّطوا فيه تسلُّطَ ربوبية ؛ بطشهم بطش الجبابرة ، يحكمون بالهوى ، ويقتلون على الغَضَب ويأخذون بالظّنّ ، ويعطّلون الحدود بالشفاعات ، ويؤمّنون الخَوَنة ، ويعصون ذوى

---

(١) من ب . (٢) سورة النساء ٦

(٣) الأبشار : جمع بشر ؛ وهو جمع بشرة ؛ ظاهر الجلد ؛ أى ضرب الناس فى جباية الأموال .

(٤ — ٤) الأغانى : « نعم فطر إلى النار ، إلى لعنة الله ونارِه حيث لا يردك الله » .

الأمانة ، ويتناولون الصَّدقة من غير فرضها ؛ ويضعونها غير موضعها ؛ فتلك الفِرْقة الحاكمة بغير ما أنزل الله ، فالعنوهم لعنهم الله .

قال : ثم ذكر شيعة آل أبي طالب ، فقال : وأما إخواننا من الشيعة — وليسوا[1] بإخواننا فى الدِّين ؛ لكنى سمعت الله يقول : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[2] — فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وآثرت الفرقة على الله ، لا يرجعون إلى نظر نافذ فى القرآن ، ولا عقل بالغ فى الفِقْه ، ولا تفتيش عن حقيقة الثواب ؛ قد قلدوا أمورَهم أهواءهم ، وجعلوا دينَهم العصبيّة لحزب لزموه وأطاعوه ، فى جميع ما يقوله لهم : غَيًّا كان أو رشداً ، ضلالةً كان أو هدى ؛ ينتظرون الدُّوَل فى رَجْعة الموتى ، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ، ويدّعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم واحدهم ما فى بيته[3] ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه ، أو يحويه جسمه ؛ ينقمون المعاصىَ على أهلها ، ويعملون بها ولا يعلمون المخرج منها ، جفاة فى دينهم ، قليلة عقولهم ، قد قلّدوا أهل بيت من العرب دينَهم ؛ وزعموا أنّ موالاتهم لهم تُغنيهم عن الأعمال الصالحة ، وتنجّيهم من عقاب الأعمال السيئة ، قاتلهم الله أنى يؤفكون !

فأىّ الفِرَق بأهل المدينة تتبعون ؛ أم بأىّ مذاهبهم تقتدون ! ولقد بلغنى مقالُكم فى أصحابى وما عبتموه من حداثة أسنانهم ، ويحكم ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلا أحداثا ! نعم إنهم لشباب مكتهلون[4] فى شبابهم ، غضيضة عن الشرّ أعينهم ، ثقيلة فى الباطل أرجلُهم ، أنضاء[5] عبادة ، قد نظر الله إليهم فى جوف الليل ، محنيّة أصلابهم على أجزاء القرآن كلّما مرّ أحدُهم بآية فيها ذكرُ الجنة بكى شوقا ، وكلّما مرّ بآية فيها ذكر النار شهق خوفا ؛ كأنّ زفير جهنم بين أذنيه ؛ قد أكلتِ الأرضُ جباههم وركبهم ،

(١) كذا فى ا ، ب ، وفى ج : « فليسوا » .
(٢) سورة الحجرات ١٣
(٣) وفى رواية الأغانى : « لا يعلم أحدهم ما فى داخل بيته » .
(٤) ج : « يتكهلون » .
(٥) أنضاء : جمع نضو ؛ وهو المهزول .

ووصلوا كَلال ليلهم بكَلال نهارهم ؛ مصفرّة ألوانهم ، ناحلة أبدانهم ؛ من طول القيام ؛ وكثرة الصيام ، يُوفون بعهد الله ، منجِزون لوعد الله ، قد شرَوْا أنفسهم في طاعة الله؛ حتى إذا التقت الكتيبتان[١]؛ وأبرقت سيوفُهما ، وفوّقت[٢] سهامهما ، وأشرِعَتْ[٣] رماحهما ، لقوا شَبا[٤] الأسنة وزِجاج السهام[٥] وظُبى السيوف ، بنحورهم ، ووجوههم وصدورهم فمضى الشابُّ منهم قُدُما ، حتى اختلفتْ رجلاه على عُنق فرسه ؛ واختضبت محاسنُ وجهه بالدماء ، وعُفِّر[٦] جبينه بالتراب والثرى ، وانحطّت عليه الطير من السماء ، ومزّقته سباع الأرض ؛ فكم من عينٍ في منقار طائر طالما بكَى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله! وكم من وجهٍ رقيق ؛ وجبين عتيق[٧] قد فلِق بعَمَد الحديد .

ثم بكى فقال : آه ، آه ! على فراق الإخوان ، رحمة الله تعالى على تلك الأبدان ؛ اللهم أدخل أرواحها الجنان !

•••

قال أبو الفرج : وسار أبو حمزة ، وخلّف بالمدينة المفضّل الأزديّ في جماعة من أصحابه ، وبعث مروان بن محمد عبدَ الملك بن عطية السعديّ في أربعة آلاف من أهل الشام ؛ فيهم فرسان عسكره ووجوهم لحرب أبي حمزة وعبد الله بن يحيى طالب الحق وأمر ابنَ عطية بالجدّ في السير ، وأعطى كلّ رجل من الجيش مائة دينار ، وفرسا عربيا ، وبغلا لثقله ، فخرج ابن عطية حتى إذا كان بالمعلّى . فكان رجل من أهل وادي القرى ، يقال له العلاء

(١) ج : « الفئتان » .
(٢) فوق السهم : جعل له فوقا ؛ وهو موضع الوتر من السهم ؛ أي أعدت للرمي .
(٣) أشرعت : سددت .
(٤) شبا : جمع شباة ؛ وهي حد كل شيء .
(٥) الزجاج : جمع زج ؛ وهو نصل السهم . وفي الأغاني : « وشائك السهام » .
(٦) عفر : أصابه العفر ؛ وهو التراب .
(٧) عتيق : كريم .

ابن أفلح أبي الغيث ؛ يقول : لقيني في ذلك اليوم وأنا غلام رجلٌ من أصحاب ابن عطية ؛ فقال لي : ما اسمُك ياغلام ؟ فقلت:العلاء ، فقال : ابنُ مَنْ ؟ قلت:ابن أفلح، قال : أعربيّ أم مولى ؟ فقلت : مولى ، قال : مولى مَنْ ؟ قلت : مولى أبي الغيث ، قال: فأين نحن ؟ قلت : بالملّى ؛ قال : فأين نحن غداً ؟ قلت : بغالب[1] ؛ قال : فأ كلني حتى أردفني خَلْفه؛ومضى حتى أدخلني على ابن عطية،وقال له: أيها الأمير ، سلِ الغلام مااسمه؟ فسأل وأنا أردّ عليه القول ؛ فسرّ بذلك ، ووهب لي دراهم .

قال أبو الفرج:وقدم أبو حمزة،وأمامه بَلْج بن عقبة في ستمائة رجل ؛ ليقاتل عبدالملك ابن عطية ، فلقيَه بوادي القرى،لأيام خَلَت من جمادى الأولى سنة ثلاثين ومائة،فتواقفوا، ودعاهم بَلْج إلى الكتاب والسنة ، وذكَر بني أمية وظُلْمهم ، فشتمه أهلُ الشام،وقالوا : يا أعداء الله ، أنتم أحقُّ بهذا ممن ذكرتم.فحمل بَلْج وأصحابه عليهم ، وانكشفت طائفة من أهل الشام ، وثبت ابنُ عطية في عُصْبة صبروا معه ، فناداهم : ياأهل الشام ؛ ياأهل الحفاظ ! ناضِلوا عن دينكم وأميرِكم ،[2] واصبروا وقاتلوا قتالا شديداً [2]،فقتل بلْج وأكثرُ أصحابه ، وانحازت قطعة من أصحابه نحو المائة إلى جبل اعتصموا به ، فقاتلهم ابنُ عطية ثلاثة أيام ؛ فقتل منهم سبعين رجلا ، ونجا منهم ثلاثون .

فرجعوا إلى أبي حمزة وهو بالمدينة،وقد اغتمّوا وجزعوا من ذلك الخبر ، وقالوا : فررنا من الزّحف ، فقال لهم أبو حمزة : لا تجزعوا فإنا لكم فئة[3] ، وإليّ تحيزتم .

وخرج أبو حمزة إلى مكة،فدعا عمر بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب أهل المدينة إلى قتال المفضل ، خليفة أبي حمزة على المدينة ، فلم يجد أحداً[4] ، لأن القتل قد كان أسرع في الناس،وخرج وجوه أهل البلد عنه[5]،فاجتمع إلى عمر البربر والزّنوج وأهل السوق والعبيد،

---

(١) غالب : موضع بالحجاز .

(٢ ــ ٢) الأغاني : « فبكروا وصبروا صبرا حسنا » .

(٣) الفئة : الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضها إلى بعض في التعاضد .

(٤) الأغاني : « كثير أحد » .

(٥) كذا في الأغاني ، وفي ب : « وجوه أهل البدعة » .

فقاتل بهم الشُّراة، فقتل المفضّل وعامة أصحابه،وهرب الباقون ، فلم يبق منهم أحد،فقال في ذلك سُهيل مولى زينب بنت الحكم بن أبي العاص :

ليت مروان رآنا يوم الاثنين عشيّة
إذ غسلنا العارَ عنّا وانتضينا المَشْرَفيّة

قال : فلما قدم ابن عطية أتاه عمر بن عبدالرحمن ، فقال له : أصلحك الله ! إني جمعت قَضّي وقَضيضي ، فقاتلتُ هؤلاء الشُّراة فلقّبه أهل المدينة : قضّي وقَضيضي » .

قال أبو الفرج،وأقام ابن عطية بالمدينة شهرا ، وأبو حمزة مقيم بمكة ، ثم توجّه إليه، فقال عليّ بن الحصين العبديّ لأبي حمزة : إني كنتُ أشرت عليك يوم قُديد وقبله أن تقتُل الأسرى فلم تفعل ؛ حتى قتلوا المفضّل وأصحابنا المقيمين معه بالمدينة ، وأنا أشير عليك الآن أن تضع السيف في أهل مكة ، فإنهم كفرة فجرة ، ولو قد قدم ابن عطية لكانوا أشدّ عليك من أهل المدينة،فقال : لا أرى ذلك؛لأنهم قددخلوا في الطاعة،وأقرّوا بالحكم، ووجب لهم حقّ الولاية .

فقال : إنهم سيغدرون ، فقال : ﴿ وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [١] .

وقدم ابن عطيّة مكة فصيّر أصحابه فرقتين ، ولقيَ الخوارج من وجهين ، فكان هو بإزاء أبي حمزة في أسفل مكة ، وجعل طائفة أخرى بالأبطح بإزاء أبرهة بن الصباح،فقتل أبرهة ؛ كَمَنَ له ابن هبار وهو على خيل دمشق،فقتله عند بئر ميمون،والتقى ابن عطية بأبي حمزة ، فخرج أهلُ مكة بأجمعهم مع ابن عطية ، وتكاثر الناس على أبي حمزة ، فقتل على فم الشِّعب ، وقتلت معه امرأته وهي ترتجز :

أنا الجديعــاء وبنتُ الأعْلَمْ مَنْ سالَ عن اسْمِي فاسْمِي مَرْيَمْ [٢]

---

(١) سورة الفتح ١٠ .
(٢) الأغاني : « الجعيداء » .

* بعثُ سوارِىَ بعضْبِ مِخْذَمٍ (١) *

وقتلت الخوارج قتلاً ذريعا ، وأُسِرَ منهم أربعمائة ؛ فقال لهم ابن عطية : وَيْلَكم ! ما دعاكم إلى الخروج مع هذا ؟ فقالوا : ضمن لنا « الكنّة » ، يريدون « الجنة » (٢) ، فقتلهم كلهم ، وصلب أبا حمزة وأبرهة بن الصّباح (٣) على شِعْب الخَيف ، ودخل علىّ بنُ الحصين داراً من دور قريش ، فأحدق أهل الشام بها فأحرقوها ، فرمى بنفسه عليهم وقاتل ؛ فأسِر وقُتِل وصلب مع أبى حمزة ، فلم يزالوا مصلوبين حتى أفضى الأمرُ إلى بنى هاشم (٤) ، فأنزلوا فى خلافة أبى العباس .

* * *

قال أبو الفرج : وذكر ابن الماجشون أنّ ابن عطيّة لما التقى بأبى حمزة ، قال أبو حمزة لأصحابه : لا تقاتلوهم حتى تختبروهم ، فصاحوا فقالوا : يا أهل الشام ، ماتقولون فى القرآن ؟ [والعمل به (٥)] ؟ فقال ابن عطية : نضعه فى جَوْف الجُوالق ، قالوا : فما تقولون فى اليتيم ؟ قالوا : نأكل ماله ونفجر بأمه ؛ فى أشياء بلغنى أنهم سئلوا عنها ؛ فلما سمعوا كلامَهم قاتلوهم حتى أمسَوْا ، فصاحت الشُّراة : ويحك يابن عطية ! إنّ الله جلّ وعزّ قد جعل الليل سكنا فاسكن ونسكن ؛ فأبى وقاتلهم حتى أفناهم .

قال : ولما خرج أبو حمزة من المدينة خَطَب ، فقال : يا أهلَ المدينة ؛ إنا خارجون لحرب مروان ، فإنْ نظهرْ عليه نعدلْ فى أحكامكم ، ونحملْكم على سنّة نبيكم ؛ وإن يكُنْ ما تمنّيتم لنا ، فسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون .

---

(١) مخذم : قاطع .

(٢) بعدها فى الأغانى : « وهى لغتهم » .

(٣) فى الأغانى : « ورجلين من أصحابهم » .

(٤) فى الأغانى : « إلى بنى العباس » .

(٥) من الأغانى .

قال : وقد كان اتبعه على رأيه قومٌ من أهل المدينة وبايعوه ، منهم بشكست[1] النحويّ ، فلما جاءهم قتلُه وثب الناس على أصحابه فقتلوهم ؛ وكان ممن قتلوه بشكُسْت النحويّ ، طلبوه فرقِيَ فى درجة دارٍ ؛ فلحقوه فأنزلوه ، وقتلوه وهو يصيح : ياعباد الله ، فيم تقتلوننى ! فقيل فيه :

لقد كان بشكُسْت عبدُ العزيز ... منَ أهلِ القراءة والمَسْجِدِ
فبعداً لبشكست عبد العزيز ... وأما القُرآنُ فـــلا تَبْعَدِ

* * *

قال أبو الفرج : وحدّثنى بعضُ أصحابنا أنه رأى رجلاً واقفا على سَطْحٍ يرمى بالحجارة قوم أبى حمزة بمكة ، فقيل له : ويلك ! أتدرى من ترمى مع اختلاط الناس ؟ فقال : والله ما أبالى مَنْ رميت ، إنما يقع حَجَرى فى شامٍ أو شارٍ[2] ؛ والله ما أبالى أيهما قتلت .

* * *

قال أبو الفرج : وخرج ابنُ عطية إلى الطائف ، وأتى قتلُ أبى حمزة إلى عبد الله ابن يحيى طالب الحق ؛ وهو بصنعاء ، فأقبل فى أصحابه يريد حرب ابنِ عطية ، فشخص ابن عطية إليه ، والتقوا ، فقتل بين الفريقين جمعٌ كثير ؛ وترجّل عبدُ الله بن يحيى فى ألف رجل ، فقاتلوا حتى قُتِلوا كلُّهم ؛ وقتل عبد الله بن يحيى ؛ وبعث بنُ عطية رأسَه إلى مروان بن محمد ؛ وقال أبو صخر الهذلىّ ، يذكر ذلك :

قَتَلْنا عُبَيْدا والّذِى يكتنى الكُنَى ... أبا حَمْزَة القارِى المصلّى اليمانيا[3]
وأبرهة الكندىّ خاضت رماحُنا ... وبَلْجاً منحناه السُّيوف المَوَاضِيا

---

(١) هو عبد العزيز القارى ، الملقب بشكست المدنى النحوى الشاعر ؛ أخذ من أهل المدينة ؛ وكان يذهب مذهب الشراة ، ويكتم ذلك ، فلما ظهر أبو حمزة خرج معه . إنباه الرواة ٢ : ١٨٣ .

(٢) الأغانى : « إنما هو شام أو شار » .

(٣) أوردها صاحب الأغانى ؛ وفيه : « قتلنا دعيبا . . . القاوى المضل »

وما تركت أسيافُنا منذ جُرِّدَتْ · لمروان جبّارا على الأرض عاصيا

وقال عمرو بن الحصين العنبرى ، يرثى أبا حمزة وغيره من الشُّراة ، وهذه القصيدة من مختار شعر العرب :

هبّتْ قُبَيْلَ تبلّجِ الفجرِ · هِنْد تقـول ودمعُها يجرِى[1]
إذ أبصرتْ عيْنى وأدمُعَها · تنهلّ واكفةً على النحرِ :
أنّى اعتراكَ وكنتَ عهدى لا · سَرِب الدموعِ وكنتَ ذا صبرِ !
أقذًى بعينِك لا يفارقها · أم عائرٌ ، أم مالها تذرِى !
أم ذِكْرُ إخوانٍ فُجِعتَ بهمْ · سَلَكوا سبيلَهمُ على قدرِ
فأجبتُها بل ذِكْرُ مصرعِهمْ · لا غيره عبراتُها تجرِى
يارَبِّ أسلِكْنى سبيلَهمُ · ـ ذا العرش ـ واشدُدْ بالتُّقَى أزرِى
فى فتيةٍ صبروا نفوسَهم[2] · للمشرفيّةِ والقنا السُّمْرِ
تالله ما فى الدهرِ مثلُهم · حتّى أكونَ رهينةَ القبرِ[3]
أوفَى بذمّتِهمْ إذا عقدُوا · وأعفَّ عندَ العُسْرِ واليُسْرِ
متأهّبون لكلّ صالحةٍ · ناهُونَ مَنْ لاقَوْا عن النُّكْرِ[4]
صُمُتٌ إذا حضرُوا مجالسَهمْ · من غيرِ ما عِىٍّ بهم يُزْرِى[5]
إلّا تجيئُهمُ فإنّهمُ · رُجُفُ القلوب بحضرة الذِّكْرِ[6]

(١) أبيات منها فى معجم الشعراء ٨ ؛ .
(٢) معجم الشعراء : « شرطوا » .
(٣) الأغانى : « تالله ألقى الدهر مثلهم » .
(٤) الأغانى : « متأملين » .
(٥) الأغانى :

صُمُتٌ إذا احتضروا مجالسَهمْ · وزنٌ لقـولِ خطيبهمْ وَقْرُ

(٦) الأغانى : « إلا تجيبهم » .

متأوِّهُونَ كأنَّ جَمْرَ غَضًا ... للموتِ بين ضُلُوعِهِمْ يَسْرِي (١)
فهمُ كأنّ بهم جَوًى مرضٌ ... أوْ مَسَّهم طَرَفٌ من السِّحْرِ
لا ليلُهم ليلٌ فيلبسهم ... فيه غواشي النَّوم بالسُّكْرِ
إلا كَرًى خَلْسًا وآونةً ... حذرَ العقاب فهُمْ على ذُعْرِ
كَمْ مِنْ أخٍ لكَ قدْ فُجِعْتَ بِهِ ... قوَّامِ ليلتِهِ إلى الفَجْرِ
متأوِّهًا يَتْلُو قَوَارِعَ مِنْ ... آيِ الكِتَابِ مُفَزَّعِ الصَّدْرِ (٢)
ظمآنَ وَقْدَةَ كلِّ هاجِرَةٍ ... تَرَّاكَ لَذَّتِهِ عَلَى قَدْرِ
رَفَّاضَ ماتَهْوَى النُّفُوسُ إذا ... رُغَبُ النفوسِ دَعَتْ إلى المِزْرِ (٣)
وَمُبَرَّأً مِنْ كُلِّ سَيِّئَةٍ ... عَفَّ الهوى ذَامِرَةً شَزْرِ (٤)
والمصطلِي بالحربِ يُوقدها ... بحسامِهِ في فِتْيَةٍ زُهْرِ (٥)
يختاضها بأفلَّ ذي شُطَبٍ ... عضبِ المضاربِ ظاهرِ الأثْرِ (٦)
لا شيءَ يلقاه أسرَّ له ... مِنْ طَعْنَةٍ في ثُغْرَةِ النَّحْرِ
منهارةٍ منه تجيشُ بما ... كانتْ عواصِمُ جَوْفِهِ تَجْرِي (٧)

---

(١) الأغاني : « للموت بين ضلوعهم » ، وبعده :

تلقاهُمُ إلاَّ كأنَّهُمُ ... لخشوعِهِمْ صَدَرُوا عن الحشْرِ

(٢) في الأصول : « مفرح » ؛ وما أثبته من الأغاني ؛ وفيه بعده :

نَصِبٌ تجيشُ بناتُ مُهْجَتِهِ ... من خوف جيشِ مشاشةِ القِدْرِ

(٣) في الأغاني : « تراك ماتهوى » ، والمزر : النبيذ من الشعير أو الحنطة .

(٤) هذا البيت لم يذكر في الأغاني .

(٥) الأغاني :

والمصطلِي بالحربِ يُسْعِرُهَا ... بغبارِهَا وبفتيةٍ سُمْرِ

(٦) الأثر : جوهر السيف ، وفي الأغاني : « يجتاحها ... قاطع البتر » .

(٧) الأغاني : « منهرة » .

خليلَك المختارُ أذكرْ به ... من معتدٍ في الله أو مُسرى !

خواضُ غمرةَ كلِّ متلفةٍ ... في الله تحت العِثْيَرِ الكدرِ

نزال ذي النجوات مختضباً ... بنجيعه بالطَّعْنَةِ الشَّزْرِ (١)

وابن الحصين وهل له شبهٌ ... في العُرف أنّى كان والنُّكرِ

بشهامةٍ لم تحنَ أضلعُه (٢) ... لذوي أحِزّتِه على غَدْرِ

طلقِ اللسان بكل محكمةٍ ... رأب صدع العظم ذي الكسرِ

لم ينفكِكْ في جوفه حَزَنٌ ... تغلِي حرارتُه وتستشري

ترقى وآونة يخفِّضُها ... بتنفّسِ الصُّعَداء والزَّفْرِ

ومخالطي بَلَجٌ وخالِصتي ... سَهم العدوّ وجابر الكسرِ (٣)

نِكلِ الخصوم إذا هُمُ شغبوا ... وسِداد ثَلْمَة عورة الثغْرِ (٤)

والخائض الغمرات يخطِرُ في ... وسَطِ الأعادي أيّما خَطَرِ

بمشطَّبٍ أو غيرِ ذي شُطَبٍ ... هامَ العِدا بذُبابِه يفْري

وأخيك أبرهة الهجان أخي الـ ... ـحربِ العَوان وموقِد الجمرِ

والضاربِ الأخدودَ ليس لها ... حدٌّ ينهنِهها عن السَّحْرِ (٥)

وولِيّ حُكمِهم فُجِعْتُ به ... عمرو، فوا كبدي على عمرو!

قوّال محكمة وذو فَهَمٍ ... عَفّ الهوى متثبِّتُ الأمرِ

ومسيَّبٍ فاذكر وصيته ... لا تنسَ إمّا كنتَ ذا ذِكْرِ

---

(١) النجوات: جمع نجوة؛ وهو ما ارتفع من الأرض.

(٢) الأغاني: «بسامة».

(٣) الأغاني: «سم العدو».

(٤) يقال: رجل نكل، أي تنكل به أعداؤه.

(٥) كذا في الأغاني: «والسحر: الرئة. والأخدود: الضربة التي خدت الجلد، أي شقته».

فكلاهما قد كان مختشما[١] … لله ذا تقوى وذا برِّ

فى مُخبِتين ولم أسمِّهمُ … كانوا ندًى وهمُ أولو نصرِ

وهمُ مساعرُ فى الوغى رُجُحٌ … وخيارُ مَنْ يمشى على العَفْرِ[٢]

حتّى وفَوا لله حيثُ لقُوا … بعهود لا كذبٍ ولا غدرِ

فتخالسُوا مُهجاتِ أنفسِهم … وعداتهم بقواضبٍ بُتْرِ

وأسِنّةٍ أُثبِتْنَ فى لُدُنٍ … خَطّيّةٍ بأكفّهم زُهْرِ

تحتَ العَجاج وفوقهم خِرَقٌ … يخفقْنَ من سُود ومِنْ حُمْرِ

فتوقّدت نيران حربهمُ … ما بين أعلى البيت والحِجْرِ

وتصرّعت عنهم فوارسُهمْ … لم يغمِضُوا عيناً على وِتْرِ

صَرْعى تخاويةٌ بيوتُهمُ … وخوامعٌ بجسومهم تَفْرِى[٣]

• • •

قال أبو الفرج : وأقام ابنُ عطيّة بحضرموت بعد ظفَره بالخوارج حتى أتاه كتاب مَروان ، يأمرُه بالتعجيل إلى مكة ، فيحجّ بالناس ، فشخص إلى مكة متعجّلا مُخِفّاً فى تسعة عشر فارسا ، وندم مَروان على ما كتبه ، وقال : قتلت ابن عطية ؛ وسوف يخرج متعجّلا مخِفّاً من اليمن ليلحق الحجّ فيقتله الخوارج ، فكان كما قال ؛ صادفه فى طريقه جماعةٌ متلففة ، فمن كان منهم إباضيا قال : ما ننتظر أن ندرك ثأر إخواننا ، ومَنْ لم يكن منهم إباضياً ظنّ أنه إباضىّ منهزم من ابن عطية ، فصمد له سعيد وجُمانة ابنا الأخنس

---

(١) الأغانى : « عتسبا »

(٢) مساعر : جمع مسعر ؛ وهو الشجاع موقد الحرب ؛ كأنه آلة فى إيقادها . والعفر : التراب .

(٣) الخوامع : الضباع ؛ وفى الأغانى : « لحاجلة تنوبهم » والحاجلة يراد بها الطير .

الكنديّان فى جماعة من قومهما ، وكانوا على رأى الخوارج، فعطف ابنُ عطيّة على سعيد فضربه بالسيف ، وطعنه جُمانة فصرّعه ؛ فنزل إليه سعيد ، فقعد على صدره ، فقال له ابنُ عطيّة : هل لك فى أن تكون أكرَم العرب أسيراً ؟ فقال سعيد : ياعدوّ الله ، أتظنّ الله يمهلك ! أوَتطمع فى الحياة؛ وقد قتلتَ طالب الحق وأبا حمزة وبَلْجًا وأبرهة ! فذبحه. وقتِل أصحابُه أجمعون .

فهذا يسير مما هو معلوم من حال هذه الطائفة فى خُشونتها فى الدّين ، وتلزّمها بناموسه ؛ وإن كانتْ فى أصل العقيدة على ضلال ؛ وهكذا قال النبى صلى الله عليه وآله عنهم : « تُستَحقَر صلاةُ أحدِكم فى جَنْب صلاتهم ، وصيامُ أحدكم فى جنب صيامهم » ؛ ومعلومٌ أنّ معاوية ومَنْ بعده من بنى أميّة لم تكن هذه الطريقة طريقَتَهم ؛ ولا هذه السنّة سنتهم ؛ وأنهم كانوا أهلَ دنيا وأصحابَ لعب ولهو وانغماس فى اللذات ، وقلة مبالاة بالدين ؛ ومنهم مَنْ هو مرمىٌّ بالزندقة والإلحاد .

***

[أخبار متفرقة عن معاوية]

وقد طعن كثير من أصحابنا فى دين معاوية ، ولم يقتصروا على تفسيقه ، وقالوا عنه إنه كان ملحِداً لا يعتقد النبوّة ، ونقلوا عنه فى فلتات كلامه وسقطات ألفاظه مايدلّ على ذلك .

وروى الزبير بن بكار فى " الموفقيات " ـ وهو غيرمتّهم على معاوية ، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة ، لما هو معلوم من حاله من مجانَبة علىّ عليه السلام ، والانحراف عنه ـ :

قال المطرّف بن المغيرة بن شعبة : دخلت مع أبى عَلَى معاوية ، وكان أبى يأتيه ، فيتحدّث معه ، ثم ينصرف إلىّ فيذكر معاوية وعقلَه ، ويعجَبُ بما يرى منه ، إذ جاء ذاتَ ليلة ، فأمسك عن العَشاء ، ورأيته مغتماً فانتظرته ساعة ، وظننت أنه لأمرٍ حدث

فيناء،فقلت:مالى أراك مغتماً منذ الليلة ؟ فقال: يا بُنىّ ، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وماذاك ؟ قال: قلت له وقد خلوتُ به: إنك قد بلغت سناً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلا، وبسطت خيراً فإنك[1] قد كبرت؛ ولو نظرت إلى إخوتك من بنى هاشم، فوصلت أرحامهم فوالله ماعندهم اليومَ شىء تخافه ، وإنّ ذلك مما يُبقى لك ذكره وثوابه ! فقال : هيهات هيهات ! أىّ ذِكْر أرجو بقاءه ! مَلَكَ أخو تَيْم فعدَل ، وفعل مافعل ، فما عدا أن هلَكَ حتى هلك ذكرُه؛ إلا أن يقول قائل : أبو بكر ؛ ثم ملك أخو عدىّ، فاجتهد وشمّر عشر سنين؛ فما عدا أن هلك حتى هلَكَ ذكرُه؛ إلا أن يقول قائل : عمر ؛ وإنّ ابنَ أبى كبشةَ ليُصاح به كلّ يوم خمس مرات : « أشهد أنّ محمداً رسول الله » ، فأىّ عمل يبقى ؟ وأىّ ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك ! لا والله إلّا دَفْناً دفناً .

* * *

وأما أفعاله الجانية للعدالة الظاهرة من لُبْسه الحرير ، وشربه فى آنية الذهب والفضة ؛ حتى أنكر عليه ذلك أبو الدّرداء ، فقال له : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « إنّ الشّارب فيهما ليُجرْجِر فى جوفه نار جهنم » ، وقال معاوية : أمّا أنا فلا أرى بذلك بأساً ، فقال أبو الدرداء : مَنْ عذيرى من معاوية ! أنا أخبره عن الرسول صلى الله عليه وسلّم ؛ وهو يخبرنى عن رأيه ! لا أساكنك بأرضٍ أبداً .

نقل هذا الخبرَ المحدّثون والفقهاء فى كتبهم فى باب الاحتجاج على أنّ خبر الواحد معمول به فى الشرع ؛ وهذا الخبر يقدَح فى عدالته ، كما يقدح أيضاً فى عقيدته ، لأنّ مَنْ قال فى مقابلة خبَرٍ قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أمّا أنا فلا أرى بأساً فيما حرّمه رسول الله صلى الله عليه وآله ، ليس بصحيح العقيدة ومن المعلوم أيضاً من حالة استئثاره بمال الفىء ، وضربه مَنْ لا حدّ عليه ، وإسقاط الحدّ عمّن يستحق إقامةَ الحدّ عليه ، وحكمه

(١) ساقطة من ب ، وهى فى ا ، ج .

برأيه فى الرّعيّة وفى دين الله ، واستحلاقه زيادا ؛ وهو يعلم قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الولَدُ للفراش وللعاهر الحجَر » ، وقتله حُجر بنَ عدىّ وأصحابه ولم يجب عليهم القتل ، ومهانته لأبى ذرّ الغِفارى وَجبهُهُ وشتمه وإشخاصه إلى المدينة على قَتَب بعير وطاء لإنكاره عليه ، ولعنه عليًّا وحسنا وحسينا وعبد الله بن عباس على منابر الإسلام ، وعهده بالخلافة إلى ابنه يزيد ، مع ظهور فسقه وشُربه المسكر جهاراً ، ولعبه بالنّرد ، ونومه بين القيان المغنّيات ، واصطباحه معهنّ ، ولعبه بالطنبور بينهنّ ، وتطريقه بنى أمية للوثوب على مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وخلافته ، حتى أفضَتْ إلى يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد ، المفتضحين الفاسقين : صاحب حَبَابة وسلّامة ؛ والآخر رامى المصحف بالسّهام وصاحب الأشعار فى الزندقة والإلحاد .

ولا ريب أن الخوارج إنما برئ أهلُ الدين والحقّ منهم ، لأنهم فارقوا عليًّا وبرئوا منه ، وما عدا ذلك من عقائدهم ، نحو القول بتخليد الفاسق فى النار ، والقول بالخروج على أمراء الجوْر ؛ وغير ذلك من أقاويلهم ؛ فإن أصحابنا يقولون بها ، ويذهبون إليها ، فلم يبق مايقتضى البراءة منهم إلا براءتهم من علىّ ؛ وقد كان معاوية يلعنهُ على رءوس الأشهاد وعلى المنابر فى الجمع والأعياد ، فى المدينة ومكة وفى سائر مدن الإسلام ؛ فقد شارك الخوارج فى الأمر المكروه منهم ؛ وامتازوا عليه بإظهار الدين والتلزّم بقوانين الشريعة ، والاجتهاد فى العبادة ، وإنكار المنكَرات ، وكانوا أحقّ بأن يُنصَرُوا عليه مِنْ أن يُنصَر عليهم ، فوضح بذلك قولُ أمير المؤمنين : « لاتقاتلوا الخوارج بعدى » ، يعنى فى مُلْك معاوية .

ومما يؤكّد هذا المعنى أنّ عبد الله بن الزّبير استنصر على يزيد بن معاوية بالخوارج ، واستدعاهم إلى ملكه ، فقال فيه الشاعر :

يابنَ الزبير أتهوَى فتية قَتَلوا ... ظُلما أباك ولما تُنزع الشُّكُكُ[1]

ضَحَّوْا بعثمان يوم النَّحْر ضاحيةً ... ياطيبَ ذاك الدم الزاكى الذى سفكوا!

فقال ابن الزبير : لو شايعنى الترك والدّيلم على محاربة بنى أمية لشايعتهم وانتصرت بهم .

---

(١) الشكك : جمع شكة ؛ وهى السلاح .

(٦١)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لمّا خُوِّف من الغِيلة :

وَإِنَّ عَلَيَّ مِنَ اللهِ جُنَّةً حَصِينَةً ، فَإِذَا جَاءَ يَوْمِي انْفَرَجَتْ عَنِّي وَأَسْلَمَتْنِي ؛ فَحِينَئِذٍ لَا يَطِيشُ السَّهْمُ ، وَلَا يَبْرَأُ الْكَلْمُ .

•••

الشَّرْحُ :

الغِيلة : القتل على غير علم ولا شعور . والجُنّة : الدِّرع وما يُجَنّ به ؛ أي يستتر من تُرس وغيره . وطاش السهم ؛ إذا صَدَف عن الغرض . والكَلْم : الجرح ؛ ويعني بالجنة هاهنا الأجل ، وعلى هذا المعنى الشعر المنسوب إليه عليه السلام :

من أيِّ يومَيَّ مِنَ الموتِ أفِرّ ... أيومَ لم يُقْدَرَ أم يومَ قُدِرْ[1]

فيومَ لايُقدَرُ لاأرهبُه ... ويومَ قد قُدِّر لايُغني الحَذَرْ

ومنه قول صاحب الزَّنْج :

وإذا تُنازعني أقولُ لها قِرِي ... موتٌ يُريحكِ أو صعودُ المنبرِ

ماقد قضى سيكونُ فاصطبري له ... ولكِ الأمانُ من الذي لم يُقْدَرِ

ومثله :

قَدْ عَلِمَ المستأخِرُونَ في الوَهَلْ ... أنَّ الفرارَ لايزيدُ في الأَجَلْ

والأصل في هذا كله قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾[2] .

---

(١) البيت في اللسان ٦ : ٣٨٣ ، وانظر هناك توجيه نصب « يقدر » . ، وهو أيضا من أبيات في أنساب الأشراف ١ : ١٢ ، نسبها إلى الحارث بن عمر التنوخي .

(٢) سورة آل عمران ١٤٥

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (٢) ، وفى القرآن العزيز كثيرٌ من ذلك .

•••

[اختلاف الناس فى الآجال]

واختلف الناس فى الآجال ، فقالت الفلاسفة والأطباء : لا أجلَ مضروب لأحدٍ من الحيوان كلّه من البشر ولا من غيرهم . والموت عندهم على ضربين : قَسْرِىّ وطبيعىّ :

فالقَسْرِىّ الموت بعارض ؛ إمّا من خارج الجسد كالمتردّى والغريق والمقتول ؛ ونحو ذلك ، أو من داخل الجسدِ كما يعرض من الأمراض القاتلة ؛ مثل السُّلّ والاستسقاء والسِّرسام ، ونحو ذلك .

والموت الطبيعىّ مايكون بوقوف القوّة الغاذية التى تورِّد على البدن عوَض مايتحلّل منه ؛ وهذه القوّة المستخدَمة للقوى الأربع : الجاذبة ، والدافعة ، والماسكة ؛ والهاضمة . والبدن لا يزال فى التحلّل دائمًا من الحركات الخارجية ، ومن الأفكار والهموم وملاقاة الشمس والريح ، والعوارض الطارئة ، ومن الجوع والعطش . والقوة الغاذية تورِّد على البدن عوَض الأجزاء المتحلّلة ، فتصرفها فى الغذاء المتناول ، واستخدام القوى الأربع المذكورة .

ومنتهى بقاء هذه القوّة فى الأعمّ الأغلب للإنسان مائة وعشرون سنة ، وقد رأيت فى كتب بعض الحكماء أنّها تبقى مائة وستين سنة ؛ ولا يصدّق هؤلاء بما يروَى من بقاء المعمَّرين ؛ فأما أهل الملل فيصدّقون بذلك .

---

(١) سورة الأعراف ٣٤ .
(٢) سورة الأنعام ٦١ .

واختلف المتكلمون فى الآجال ؛ فقالت المعتزلة : ينبغى أولًا أنْ نحقق مفهوم قولنا : « أجل » ليكون البحث فى التصديق بعد تحقق التصور ؛ فالأجل عندنا هو الوقت الذى يعلم الله أنّ حياةَ ذلك الإنسان أو الحيوان تبطل فيه ، كما أنّ أجل الدَّيْن هو الوقت الذى يحلّ فيه ؛ فإذا سألنا سائل فقال : هل للنّاس آجالٌ مضروبة ؟ قلنا له : ماتعنى بذلك ؟ أتريد : هل يعلم الله تعالى الأوقات التى تبطل فيها حياة الناس ؟ أم تريد بذلك أنه : هل يراد بطلان حياة كلّ حيّ فى الوقت الذى بطلت حياتهُ فيه ؟

فإن قال : عَنَيْتُ الأول ، قيل له : نعم للناس آجال مضروبة بمعنى معلومة ؛ فإنّ الله تعالى عالم بكلّ شىء .

وإن قال : عَنَيْتُ الثانى ؛ قيل : لا يجوز عندنا إطلاق القول بذلك ؛ لأنه قد تبطل حياة نبىّ أو ولىّ بقتل ظالم ؛ والبارئ تعالى لا يريدُ عندنا ذلك .

فإن قيل : فهل تقولون : إن كلّ حيوان يموت وتبطل حياتهُ بأجله ؟ قيل : نعم ، لأنّ الله قد علم الوقت الذى تبطل حياتهُ فيه ، فليس تبطل حياته إلا فى ذلك الوقت ، لا لأنّ العلم ساق إلى ذلك ، بل إنما تبطل حياته بالأمر الذى اقتضى بطلانه ، والبارئ تعالى يعلمُ الأشياء على ماهى عليه ؛ فإنْ بطلت حياته بقتل ظالم فذلك ظُلم وجَوْر ، وإن بطلتْ حياته من قِبَل الله تعالى فذلك حكمة وصواب . وقد يكون ذلك لطفا لبعض المكلَّفين .

واختلف الناسُ : لو لم يقتل القاتل المقتول ؛ هل كان يجوز أن يبقيَه الله تعالى؟فقطع الشيخ أبو الهذيل على موته لو لم يقتله القاتل ؛ وإليه ذهب الكرّاميّة ؛ قال محمد بن الهيصم : مذهبُنا أنّ الله تعالى قد أجّل لكلّ نفس أجلاً لن ينقضىَ عمره دون بلوغه ،ولا يتأخر عنه؛ ومعنى الأجل هو الوقت الذى علم الله أنّ الإنسان يموت فيه ، وكتب ذلك فى اللوح المحفوظ، وليس يجوز أن يكونَ الله تعالى قد أجّل له أجلًا ؛ ثم يقتل قبل بلوغه أو يخترم دونه؛ ولا أن

يتأخرها أجّلَ له؛ ليس على معنى أنّ القاتل مضطر إلى قتله[1]؛ حتى لا يمكنه الامتناع منه؛ بل هو قادر على أن يمتنع من قَتْله؛ ولكنه لا يمتنع منه، إذ كان المعلوم أنّه يقتله لأجله بعينه؛ وكتب ذلك عليه.

ولو توهّمنا في التقدير، أنه يمتنع من قتله، لكان الإنسان يموتُ لأجل ذلك، لأنهما أمران مؤجّلان بأجلٍ واحد؛ فأحدهما قتل القاتل إياه، والثانى تصرّم مدة عمره وحلول الموت به؛ فلو قدرنا امتناعَ القاتل من قتله، لكان لا يجب بذلك ألّا يقع المؤجل الثانى الذى هو حلول الموت به، بل كان يجب أن يموت بأجله.

قال: وبيان ذلك من كتاب الله توبيخه المنافقين على قولهم: ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا[2] ﴾، فقال تعالى لهم: ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[3]، فدلّ على أنهم لو تجنّبوا مصارع القتل لم يكونوا ليدرءوا بذلك الموت عن أنفسهم.

وقالت الأشعرية والجَهْمية والجبْرية كافّة: إنها آجالٌ مضروبة محدودة، وإذا أجّل الأجل؛ وكان فى المعلوم أنّ بعض الناس يقتله، وجب وقوع القتل منه لا محالة، وليس بقدر القاتل على الامتناع من قَتْله؛ وتقدير انتفاء القتل ليقال: كيف كانت تكون الحال، تقدير أمرٍ محال، كتقديرِ عَدَمِ القديم وإثبات الشريك، وتقدير الأمور المستحيلة لَغْو وخُلْف من القول.

وقال قومٌ من أصحابنا البَغداديّين رحمهم الله بالقطع على حياته لو لم يقتله القاتل؛ وهذا عكس مذهب أبي الهُذَيل ومن وافقه، وقالوا: لو كان المقتول يموتُ فى ذلك الوقت لو لم يقتله القاتل لما كان القاتل مسيئا إليه؛ إذ لم يفوّتْ عليه حياة لو لم يبطلها لبقيتْ، ولما استحقّ

---

(١) ب: « على قتله »، وما أثبته من ا، ج.

(٢) سورة آل عمران ١٥٦.

(٣) سورة آل عمران ١٦٨.

القود ، ولكان ذابح الشاة بغير إذن مالكها قد أحسن إلى مالكها ؛ لأنه لو لم يذبحها لماتت ؛ فلم يكن ينتفع بلحمها .

قالوا : والذى احتج به من كونهما مؤجلين بأجل واحد فلو قدرنا انتفاء أحد الأمرين فى ذلك الوقت لم يجب انتفاء الآخر ، ليس بشىء ، لأن أحدهما علة الآخر ، فإذا قدرنا انتفاء العلة ؛ وجب أن ينتفى فى ذلك التقدير انتفاء المعلول ؛ فالعلة قتل القاتل، والمعلول بطلان الحياة ، وإنما كان يستمر ويصلح ماذكروه ؛ لو لم يكن بين الأمرين علية العلية والمعلولية .

قالوا : والآية التى تعلقوا فيها لا تدل على قولهم ؛ لأنه تعالى لم ينكر ذلك القول إنكار حاكم بأنهم لو لم يقتلوا لماتوا ، بل قال : كل حى ميت ، أى لابد من الموت ، إما معجلا وإما مؤجلا .

قالوا : فإذا قال لنا قائل: إذا قلتم إنه يبقى لو لم يقتله القاتل؛ألستم تكونون قد قلتم: إن القاتل قد قطع عليه أجله ؟

قلنا له : إنما يكون قاطعاً عليه أجله لو قتله قبل الوقت الذى علم الله تعالى أن حياته تبطل فيه ، وليس الأمر كذلك ؛ لأن الوقت الذى علم الله تعالى أن حياته تبطل فيه هو الوقت الذى قتله فيه القاتل ؛ ولم يقتله القاتل قبل ذلك ؛ فيكون قد قطع عليه أجله .

قالوا : فإذا قال لنا : فهل تقولون إنه قطع عليه عمره ؟

قلنا له : إن الزمان الذى كان يعيش فيه لو لم يقتله القاتل لايسمى عمرا إلا على طريق المجاز ؛ باعتبار التقدير؛ولسنا نطلق ذلك إلا مقيداً ؛ لئلا يوهم، وإنما قلنا : إنا نقطع على أنه لو لم يقتل لم يمت ، ولا نطلق غير ذلك .

• • •

وقال قدماء الشيعة : الآجال تزيد وتنقص ، ومعنى الأجل ، الوقت الذى علم الله تعالى أنّ الإنسان يموت فيه إن لم يقتل قبل ذلك ، أو لم يفعل فعلا يستحقّ به الزيادة والنقصان فى عمره .

قالوا : وربما يُقتَل الإنسان الذى ضُرِبَ[1] له من الأجل خمسون سنة . وهو ابن عشرين سنة ، وربما يفعل من الأفعال ما يستحقّ به الزيادة فيبلغ مائة سنة ، أو يستحقّ به النقيصة فيموت وهو ابن ثلاثين سنة .

قالوا : فمّا يقتضى الزيادة ؛ صلة الرحم ، ومما يقتضى النقيصة الزنا وعقوق الوالدين ، وتعلّقوا بقوله تعالى : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾[2] .

وربما قال قوم منهم : إنّ الله تعالى يضرب الأجل لزيد خمسين سنة أو ما يشاء ، فيرجع عن ذلك فيما بعد ، ويجعله أربعين أو ثلاثين ، أو ما يشاء ، وبنوه على قولهم فى البداء .

وقال أصحابنا : هذا يوجب أن يكونَ الله تعالى قد أجّل الآجال على التخمين دون التحقيق ؛ حيث أجّلَ لزيد خمسين ؛ فقتل لعشرين ، وأفسدوا أن يعلم الله تعالى الشىء[3] بشرط ؛ وأن يبدوَ له فيما يقضيه ويقدره ؛ بما هو مشهور فى كتبهم .

وقالوا فى الآية : إنّ المرادَ بها أن ينقص سبحانه بعضَ الناس عن مقدار أجل المعمّر ؛ بأن يكون انتقصَ منه عمرا ، ليس أنه ينقص من عمر ذلك المعمّر .

فأما مشايخنا أبو علىّ وأبو هاشم فتوقفا فى هذه المسألة ، وشكّا فى حياة المقتول وموته ؛ وقالا : لا يجوز أن يبقى لو لم يُقتل ، ويجوز أن يموت ، قالا : لأن حياته وموته مقدوران لله عزّ وجلّ ، وليس فى العقل ما يدلّ على قبح واحد منهما ؛ ولا فى الشّرع مايدل على حصول واحد منهما ، فوجب الشكّ فيهما ؛ إذ لا دليل يدلّ على واحد منهما .

---

(١) ب : « صرف » ، تحريف وصوابه من ج . (٢) سورة فاطر ١١

(٣) ساقطة من ب .

قالوا : فأما احتجاج القاطعين على موته ، فقد ظهر فسادُه بما حُكى من الجواب عنه .

قالوا : ومما يدلّ على بطلانه من الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[1] ، فحكم سبحانه بأنّ إثباته القصاص مما يزجر القاتل عن القتل ، فتدوم حياة المقتول ، فلو كان المقتول يموت لو لم يقتله القاتل ما كان فى إثبات القصاص حياة .

قالوا : وأما احتجاجُ البغداديين على القَطْع على حياته بما حُكى عنهم ، فلا حُجَّة فيه ؛ أمّا إلزام القاتل القَوَد والغرامة فلأنّا غير قاطعين على موت المقتول لو لم يقتل ، بل يجوز أن يبقى ويغلب ذلك على ظنوننا ؛ لأن الظاهرَ من حال الحيوان الصحيح ألّا يموت فى ساعته ، ولا بعد ساعته وساعات ، فنحن نلزم القاتل القَوَد والغرامة ، لأنّ الظاهر أنه أبطل ما لو لم يبطله لبقى .

وأيضا فموت المقتول لو لم يقتله القاتل لا يخرج القاتل من كونه مسيئا ؛ لأنه هو الذى تولّى إبطال الحياة ؛ ألا ترى أنّ زيدا لو قتل عمرا لكان مسيئا إليه ؛ وإن كان المعلوم أنّه لو لم يقتله لقتله خالد فى ذلك الوقت !

وأيضا فلو لم يقتل القاتل المقتول ولم يذبح الشاة حتى ماتا ، لكان يستحقّ المقتول ومالك الشاة من الأعواض على البارئ سبحانه أكثر مما يستحقّانه على القاتل والذابح ، فقد أساء القاتل والذابح حيث فوّتا على المقتول ومالك الشاة زيادة الأعواض .

فأمّا شيخنا أبو الحسين فاختار الشكّ أيضا فى الأمرين إلا فى صورة واحدة ، فإنه قطع فيها على دوام الحياة ، وهى أنّ الظالم قد يَقتل فى الوقت الواحد الألوفَ الكثيرة فى المكان الواحد ، ولم تجر العادة بموت مثلهم فى حالة واحدة فى المكان الواحد ؛ واتفاق ذلك نقضُ العادة ، وذلك لا يجوز .

---

(١) سورة البقرة ١٧٩ .

قال(١) الشيخ : ليس يمتنع أن يقال فى مثل هؤلاء إنه يقطع على أنَّ جميعهم ما كانوا يموتون فى ذلك المكان فى ذلك الوقت لو لم يقتلهم القاتل ، إن كان الوقت وقتا لا يجوز انتقاض العادات فيه ، ولكن يجوز أن يموتَ بعضُهم دون بعض ، لأنه ليس فى موت الواحد والاثنين فى وقت واحد فى مكان واحد نقض عادة ، ولا يمتنع هذا الفرض من موتهم بأجمعهم فى زمان نبيّ من الأنبياء .

وقد ذكرت فى كتبي المبسوطة فى علم الكلام فى هذا الباب ما ليس هذا الشرح موضوعاً لاستقصائه .



(١) ج : « وقال رحمه الله » .

(٦٢)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلَا إِنَّ الدُّنيَا دَارٌ لَا يُسْلَمُ مِنْهَا إِلَّا فِيهَا ، وَلَا يُنْجَى بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا . ابْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ وَحُوسِبُوا عَلَيْهِ ، وَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ ، وَأَقَامُوا فِيهِ ؛ فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي العُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ ، بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغاً حَتَّى قَلَصَ ، وَزَائِداً حَتَّى نَقَصَ .

الشَّـرْحُ :

تقدير الكلام : أنّ الدنيا دارٌ لا يُسلَم من عقاب ذنوبها إلا فيها ؛ وهذا حقّ ؛ لأن العقاب المستحقّ[1] ، إنما يَسقُط بأحد أمرين : إما بثوابٍ على طاعاتٍ تفضُل على ذلك العقاب المستَحقّ ، أو بتوبةٍ كاملة الشروط .

وكلا الأمرين لا يصحُّ من المكلّفين إيقاعهُ إلّا في الدنيا ؛ فإنّ الآخرة ليست دارَ تكليف ، ليصحّ من الإنسان فيها عمل الطاعة والتوبة عن المعصية السالفة ؛ فقد ثبت إذاً أن الدنيا دارٌ لا يسلم مِنْها إلا فيها .

إن قيل : بَيِّنُوا أن الآخرةَ ليست بدار تكليف .

قيل : قد بَيّن الشيوخُ ذلك بوجهين :

أحدُها : الإجماعُ على المنع مِنْ تجويزِ استحقاق ثواب أو عقاب في الآخرة .

والثاني : أن الثوابَ يجب أن يكون خالصاً من المشاقّ ؛ والتكليف يستلزم المشقة ؛ لأنها شرطٌ في صحته ؛ فبطل أن يجوز استحقاق ثواب في الآخرة للمكلّفين المثابين في الآخرة

---

(١) ج : « لأن عقاب الذنوب » .

لأجلِ تكاليفهم فى الآخرة ؛ وأما المعاقبون فلو كانوا مكلَّفين لجاز وقوع التوبة منهم ، وسقوط العقاب بها ؛ وهذا معلومٌ فساده ضرورةً من دين الرسول عليه السلام .

وهاهنا اعتراضان :

أحدُهما : أن يقال: فما قولكم فى قوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾[1] ؛ وهذا أمر وخطاب لأهل الجنة ، والأمر تكليف ؟

والثانى : أنّ الإجماع حاصل على أنّ أهل الجنة يشكرون الله تعالى، والشكر عبادة وذلك يستدعى استحقاق الثواب !

والجواب عن الأول أن قوله : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ عند شيخنا أبى علىّ رحمه الله تعالى ليس بأمرٍ على الحقيقة؛ وإن كانت له صورته ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾[2] .

وأما الشيخ أبو هاشم فعنده أن قوله : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ أمر، لكنه زائد فى سرور أهل الجنة؛ إذا علموا أن الله تعالى أراد منهم الأكل وأمرهم به؛ ولكنه ليس بتكليف؛ لأنّ الأمرَ إنما يكون تكليفاً إذا انضمّت إليه المشقة .

وأما الجوابُ عن الثانى ؛ فإنّ الشكر الذى بالقلب رجوعه إلى الاعتقادات ؛ والله تعالى يفعل فى أهل الجنة المعارف كلّها ، فلا وجوب إذاً عليهم ؛ وأما الشكر باللسان فيجوز أن يكون لهم فيه لذة ، فيكون بذلك غير منافٍ للثواب الحاصل لهم .

وبهذا الوجه نجيب عن قول من يقول : أليس زبانية النار يعالجون أهلَ العذاب فى جهنم، أعاذنا الله منها ؟ وهل هذا إلا محض تكليف ! لأنا نقول إنه يجوز أن يكونَ للزبانية فى ذلك لذّة عظيمة ، فلا يثبت التكليف معها ؛ كما لا يكون الإنسان مكلفًا فى الدنيا بما يخلص إليه شهوته ؛ ولا مشقة عليه فيه .

---

(١) سورة الحاقة ٢٤

(٢) سورة الإسراء ٥٠

إن قيل : هذا الجواب ينبىءُ على أنّ معارف أهلِ الآخرة ضرورية ؛ لأنكم أجبتم عن مسألة الشكر ، بأنّ الله تعالى يفعل المعارف فى أهل الجنة،فدلّوا على ذلك ؛ بل يجب عليكم أن تدللوا أولاً على أنّ أهلَ الآخرة يعرفون الله تعالى .

قيل : أمّا الدليل على أنّهم يعرفونه تعالى ؛ فإن المثاب لابدّ أن يعلَم وصولَ الثواب إليه على الوجه الذى استحقّه ، ولا يصحُ ذلك إلا مع المعرفة بالله تعالى ، ليعلم أن مافعله به هو الذى لمستحقه ، والقول فى المعاقب كالقول فى المثاب .

وأيضا فإنّ من شرط الثواب مقارنة التعظيم والتبجيل له من فاعل الثواب،لأن تعظيم غير فاعل الثواب لا يؤثّر ، والتعظيم لا يُعلم إلا مع العلم بالقصْد إلى التعظيم ؛ ويستحيل أن يعلموا قَصْدَه تعالى؛ولا يعلموه ؛ والقول فى العقاب وكون الاستحقاق والإهانة تقارنه تجرى هذا المجرى .

فأمّا بيان أنّ هذه المعرفة ضرورية،فلأنّها لو كانت من فعلهم ؛ لكانت إمّا أن تقع عن نظر يتحرّون فيه،أو يلجئون إليه، أو عن تذكّر نظر ، أو بأن يلجئوا إلى نفس المعرفة من غير تقدم نظر ؛ والأول باطل ، لأنّ ذلك تكليف وفيه مشقّة ، وقد بينا سقوط التكليف فى الآخرة . ولا يجوز أن يلجئوا إلى النظر لأنهم لو ألجئوا إلى النظر لكان الجاءهم إلى المعرفة أولا ، والجاؤهم إلى المعرفة يمنع من إلجائهم إلى النظر ؛ ولا يجوز وقوعها عند تذكّر النظر ؛ لأنّ المتذكّر للنظر تَعرِض له الشبَه ، ويلزمه دفعها ؛ وفى ذلك عوْد الأمر إلى التكليف ؛ وليس معاينة الآيات بمانع عن وقوع الشبه ، كما لم تمنع معاينة المعجزات والإعلام عن وقوعها ؛ ولا يجوز أن يكونَ الإلجاء إلى المعرفة ؛ لأنّ الإلجاء إلى أفعال القلوب لا يصحّ إلا من الله تعالى ؛ فيجب أن يكونَ الملجَأ إلى المعرفة عارفاً بهذه القضية ؛ وفى ذلك استغناؤه بتقدم هذه المعرفة على الإلجاء إليها .

إن قيل : إذا قلتم إنّهم مضطرون إلى المعارف ، فهل تقولون إنهم مضطرون إلى الأفعال ؟

قيل : لا ؛ لأنه تعالى قال : ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾[١] ؛ ولأنّ مَنْ تدبّر ترغيبات القرآن فى الجنّة والثواب ، علم قطعا أنّ أهلَ الجنة غير مضطرين إلى أفعالهم ، كما يضطر المرتعش إلى الرعشة .

إن قيل : فإذا كانُوا غير مضطرين ، فلمَ يمنعُهم من وقوع القبيح منهم ؟

قيل : لأنّ الله تعالى قد خلق فيهم علما بأنّهم متى حاولوا القبيح منعوا منه ؛ وهذا يمنع من الإقدام على القبيح بطريق الإلجاء .

ويمكن أيضاً أنْ يعلمهم استغناءهم بالحسَن عن القبيح ؛ مع ما فى القبيح من المضرّة ، فيكونون ملجئين إلى ألّا يفعلوا القبيح .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « ولا ينجى بشىء كانَ لها » فمعناه أنّ أفعال المكلّف التى يفعلها لأغراضه الدنيويّة ليست طريقا إلى النجاة فى الآخرة ، كمن ينفق ماله رئاء الناس ؛ وليست طرقُ النجاة إلا بأفعال البرّ التى يقصد فيها وجه الله تعالى لا غير ، وقد أوضح عليه السلام ذلك بقوله : « فما أخذوه منها لها أخرجوا منه ، وحوسبوا عليه ، وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه » .

فمثال الأول من يكتسب الأموال ويدخرها للاذّه ، ومثال الثانى من يكسبها لينفقها فى سبيل الخيرات والمعروف .

ثم قال عليه السلام : « وإنّها عند ذوى العقول كفىء الظلّ ... » إلى آخر الفصل ؛ وإنما قال : « كفىء الظلّ » لأن العرب تضيف الشىء إلى نفسه ، قال تأبّط شرّاً :

إذَا حاصَ عَيْنَيْهِ كَرَى النوم لم يزَلْ ۞ لَهُ كَالِئٌ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانَ فَاتِكِ[٢]

---

(١) سورة الواقعة ٢٠

(٢) حماسة أبى تمام — بشرح التبريزى ١ : ٩٤ . حاص : خاط ؛ ويروى : « إذا خاط عينيه » . والكرى : النوم الخفيف . والشيحان : الحازم ؛ مثل القائع والشيح . والفاتك : الذى يفاجئ غيره بمكروه أو قتل .

ويمكن أن يقال: الظلّ أعمّ من الفيء، لأنّ الفيء لا يكون إلا بعد الزوال، وكلّ فيء ظلٌّ، وليس كلّ ظلٍّ فيئاً، فلما كان فيهما تغايرٌ معنويٌّ بهذا الاعتبار صحّت الإضافة.

والسابغ: التام. وقلّص، أي انقبض.

وقوله عليه السلام: «بينا تراه»، أصل «بينا» «بين»، فأشبعت الفتحة، فصارت «بينا» على وزن «فَعْلى» ثم تقول «بينما» فتزيد «ما»؛ والمعنى واحد؛ تقول بينا نحن نرقبه أتانا، أي بين أوقاتِ رقبتنا إياه أتانا، والجمل تضاف إليها أسماء الزمان، كقولك: أتيتك زمنَ الحجاج أمير؛ ثم حذفت المضاف الذي هو «أوقات» وولى الظرف الذي هو بين الجملة التي أقيمت مقام المضاف إليه، كقوله ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ[1]﴾.

وكان الأصمعيّ يخفض بـ«بينا» إذا صلح في موضعه «بين»، وينشد بيت أبي ذؤيب، بالجرّ:

بَيْنَا تعنُّقِهِ الكُماة ورَوْغِهِ يوماً أُتِيحَ له جَرِيءٌ سَلْفَعُ[2]

وغيره يرفع ما بعد «بينا» و«بينما» على الابتداء والخبر، وينشد هذا البيت على الرفع.

وهذا المعنى متداول، قال الشاعر:

ألا إنّما الدُّنيا كظلِّ غمامةٍ أظلَّتْ يسيراً ثم خَفَّتْ فولَّتِ

وقال آخر:

ظِلُّ الغَمام، وأحلامُ المنام، فما تدوم يوماً لمخلوقٍ على حالِ

---

(١) سورة يوسف ٨٢.

(٢) ديوان الهذليين ١ : ١٨. السلفع: الجريء الصدر.

(٦٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَاتَّقُوا[١] اللهَ عِبادَ اللهِ،وَ بَادِرُوا آجالَكُمْ بِأَعْمالِكُمْ،وَابْتاعُوا ما يَبْقَى لَكُمْ بِما يَزُولُ عَنْكُمْ ، وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ ، وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا ، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدارٍ فَاسْتَبْدَلُوا ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً ؛ وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى ، وَما بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ .

وَإِنَّ غايَةً تَنْقُصُها اللَّحْظَةُ ، وَتَهْدِمُها السّاعَةُ ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ . وَإِنَّ غائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدانِ ؛ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ ، لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ . وَإِنَّ قادِماً يَقْدُمُ بِالْفَوْزِ أَوِ الشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ .

فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيا مِنَ الدُّنْيا ما تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً ، فَاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ ؛ نَصَحَ نَفْسَهُ ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ ،وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ ،وَأَمَلَهُ خادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطانُ مُوَكَّلٌ بِهِ ؛ يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَها ، وَيُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَها ، إِذا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ ما يَكُونُ عَنْها .

فَيا لَها حَسْرَةً عَلَى ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً ،وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيّامُهُ إِلَى الشِّقْوَةِ!نَسْأَلُ اللهَ سُبْحانَهُ أَنْ يَجْعَلَنا وَإِيّاكُمْ مِمَّنْ لا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ ،وَلا تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طاعَةِ رَبِّهِ غايَةٌ ، وَلا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدامَةٌ وَلا كَآبَةٌ .

* * *

(١) ا : « واتقوا » .

الشرح :

بادروا آجالكم بأعمالكم ، أى سابقوها وعاجِلوها . البِدار : العجلة ، وابتاعوا الآخرة الباقيةَ بالدنيا الفانية الزائلة .

وقوله : « فقد جُدّ بكم » أى حثثتم على الرحيل ؛ يقال : جَدَّ الرحيل ، وقد جُدّ بفلان ، إذا أزعج وحُثّ على الرحيل .

واستعدُّوا للموت ، يمكن أن يكون بمعنى « أعدُّوا » ، فقد جاء « استفعل » بمعنى « أفعل » كقولهم : استجاب له ، أى أجابه .

ويمكن أن يكون بمعنى الطّلَب ؛ كما تقول : استطعم ، أى طلب الطعام ، فيكون بالاعتبار الأول ، كأنّه قال : أعدُّوا للموت عُدّة ، وبمعنى الاعتبار الثانى كأنه قال : اطلبوا للموت عُدّة .

وأظلكم : قربُ منكم ، كأنّه ألقى عليهم ظلّه ، وهذا من باب الاستعارة .

والعبَث : اللعب ، أو مالا غرض فيه ، أو مالا غرضَ صحيح فيه .

وقوله : « ولم يترككم سُدًى » ، أى مهمَلين .

وقوله : « أن ينزل به » موضعُه رفع لأنّه بدلٌ من « الموت » ، والغائب المشار إليه هو الموت . ويحدوه الجديدان : يسوقه الليل والنهار ، وقيل : الغائب هنا هو الإنسان يَسُوقه الجديدان إلى الدار التى هى داره الحقيقية ، وهى الآخرة ؛ وهو فى الدنيا غائب على الحقيقة عن داره التى خلق لها ؛ والأول أظهر .

وقوله : « فتزوّدوا فى الدنيا من الدنيا » كلامٌ فصيح ؛ لأنّ الأمر الذى به يتمكن المكلّف من إحراز نفسه فى الآخرة ؛ إنما هو يكتسبه فى الدنيا منها ، وهو التقوى والإخلاص والإيمان .

والفاء فى قوله : « فاتّقَى عبد ربَّه » لبيان ماهيّة الأمر الذى يحرزُ الإنسان به نفسه

ولتفصيل أقسامه وأنواعه ، كما تقول : فعل اليوم فلان أفعالاً جميلة ؛ فأعطى فلانا، وصفح عن فلان ، وفعل كذا . وقد روى : « اتق عبد ربه » بلا فاء ، بتقدير « هلا » ، ومعناه التحضيض .

وقد روى : «ليسوّفها» بكسر الواو وفتحها ؛ والضمير في الرواية الأولى يرجع إلى نفسه، وقد تقدم ذكرها قبلُ بكلمات يسيرة . ويجوز أن يعنى به : ليسوّف التوبة ، كأنه جعلها مخاطبة يقول لها : سوف أوقعك ؛ والتسويف أن يقول في نفسه : سوف أفعل ؛ وأكثر مايستعمل الوعد الذى لا نجاز له . ومن روى بفتح الواو جعله فعل ما لم يسمّ فاعله، وتقديره: ويمنّيه الشيطان التوبة ، أى يجعلها في أمنيته ليكون مسوّفا إياها ؛ أى يعدّ من المسوِّفين المخدوعين .

وقوله : «فيالَها حسرة » ، يجوز أن يكون نادى الحسرة، وفتحة اللام على أصل نداء المدعو ؛ كقولك : ياللرجال؛ ويكون المعنى :هذا وقتك[1] أيتها الحسرة فاحضري. ويجوز أن يكون المدعو غير الحسرة ، كأنه قال: ياللرجال لِلحسرة! فتكون لامها مكسورة نحو الأصل لأنها المدعو إليه[1]، إلا أنها لما كانت للضمير فتحت، أى أدعوكم أيها الرجال لتقضوا العجب من هذه الحسرة .

* * *

[عظة للحسن البصرى]

وهذا الكلام من مواعظ أمير المؤمنين البالغة ؛ ونحوه من كلام الحسن البصرى ذكره شيخنا أبو عثمان في " البيان والتبيين " [2] :

(١ ـ ١) ساقط من ا ، ب ، وأثبته من ج .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٣٢ ، ١٣٣

ابنَ آدم ؛ بعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبعْ آخرتك بدنياك فتخسرَهما جميعا ، وإذا رأيت النّاس فى الخير فنافِسْهم فيه ،[1] وإذا رأيتهم فى الشرّ فلا تغبِطْهم عليه . البقاء[2] ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمّتكم آخر الأمم وأنتم آخرُ أمّتكم ، وقد أسرع بخياركم فما تنتظرون[3] المعاينة ! فكأنْ قدْ . هيهات هيهات ، ذهبت الدنيا بحاليْها[4] وبقيت الأعمال قلائد فى الأعناق . فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! ألا إنّه لا أمّةَ بعد أمّتكم ، ولا نبيّ بعد نبيّكم ، ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقُون الناس والساعة تسوقكم ، وإنما يُنتظَرُ بأوّلكم أن يلحق آخركم . مَنْ رأى محمدا صلوات الله وسلامه عليه ، فقد رآه غاديا رائحا[5] ، لم يضع لَبِنَةً على لَبِنة ، ولا قَصَبة على قصبة ؛ رُفع له عَلَم فسما إليه ، فالوحىَ الوحىَ ، النجاء النجاء ! على ماذا تعرّجون ! [6] ذهب أماثلكم وأنتم تَرْذُلون[7] كلّ يوم ، فما تنتظرون[6] !

إن الله بعث محمداً على عِلْمٍ منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل إليه كتابَه ؛ وكان صَفْوتَه من خلقه ، ورسوله إلى عباده ، ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظرُ إليه أهلُ الأرض ، فآتاه فيها قوتاً و بُلْغة ، ثم قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[8] ، فرَكَن أقوامٌ إلى غير عيشته ، وسخطُوا ما رضىَ له ربُّه ، فأبعدهم وأسحقهم .

يا بن آدم ، طإ الأرض بقدمك ، فإنها عن قليل قبرُك ؛ واعلم أنّك لم تزَلْ فى هَدْم عمرك منذ سقطت من بطن أمّك ؛ رحم الله امرأ نظر فتفكّر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر

(١) البيان : « فنافسهم فيه » .
(٢) البيان : « الثواء » .
(٣) ب : « فلا تنتظرون المعاينة » ، وما أثبته من ج والبيان والتبيين .
(٤) بحاليها ؛ أى حالتى الخير والشر .
(٥) أى فى كسب الضرورى من العيش .
(٦ — ٦) البيان . « أتيتم ورب الكعبة ؛ قد أسرع بخياركم ؛ وأنتم كل يوم ترذلون فماذا تنتظرون » .
(٧) ترذلون : تصيرون رذلاء .
(٨) سورة الأحزاب ٢١

فأبصر ، وأبصر فأقصر ؛ فقد أبصر أقوامٌ ولم يقصّروا ، ثم هلكوا فلم يدركوا ماطلبوا، ولا رجعوا إلى مافارقوا .

يابن آدم، اذكر قوله عزّ وجلّ :﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾، عدَلَ والله عليك مَنْ جعلك حسيبَ نفسك.

خذُوا صفوة الدنيا ، ودعوا كدَرها ، ودَعُوا ماريبكم إلى مالا يريبكم ؛ ظهر الجفاء وقلّت العلماء ، وعفَت السّنّة ، وشاعت البدعة . لقد صحبتُ أقواماً ما كانت صحبتهم إلاقرة عين لكلّ مسلم ،وجِلَاء الصدور ؛ ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أن تُردّعليهم، أشفقَ منكم من سيئاتكم أن تعذّبوا عليها ، وكانوا مما أحلّ الله لهم من الدنيا أزهدَ منكم فيما حرّم عليكم منها .

مالى أسمع حسيساً ولا أرى أنيساً ! ذهبَ النّاس ، وبقى النّسناس[1] . لو تكاشفتم ماتدافنتم . تهاديتمُ الأطباق، ولم تتهادَوْا النصائح . أعدّوا الجواب ؛ فإنكم مسئولون . إنّ المؤمن من لا يأخذ دينه عن رأيه ؛ ولكن عن ربّه[2] . ألا إنّ الحقّ قد أجهدَ أهله ، وحال بينهم وبين شهواتهم ، [وما يصبر عليه إلّا من عرف فضله ، ورجا عاقبته ،فمَن حمدالدنيا ذمّ الآخرة][3] ، ولا يكره لقاء الله إلا مقيم على مايسخطه . إن الإيمان ليس بالتمنّى ولا بالتشهّى ، ولكن ماوقَر فى القلوب وصدّقته الأعمال .

وهذا كلام حسن وموعظة بالغة ؛ إلا أنّه فى الجزالة والفصاحة دون كلام أمير المؤمنين عليه السلام بطبقات .

* * *

(١) النسناس : خلق على صورة الناس .
(٢) البيان : « أخذه من قبل ربه » .
(٣) من كتاب البيان والتبيين .

[من خطب عمر بن عبد العزيز]

ومن خطب عمر بن عبد العزيز :

إن لكلّ سفرٍ زاداً لامحالة ، فتزوّدُوا لسفرِكم من الدّنيا إلى الآخرة ؛ فكونوا كمن عايَن ماأعدّ الله تعالى من ثوابه وعقابه ،فرغِبوا ورهبوا ، ولا يطولَنّ عليكم الأمر فتقسُو قلوبكم ، وتنقادُوا لعدوِّكم، فإنه والله مابُسِط أملُ مَنْ لايَدْرِي لعلّه لايصبِح بعد إمسائه، ولايمسي بعدإصباحه ، وربما كانت بين ذلك خَطَفات[1] المنايا . فكم رأينا وأنتم مَنْ كان بالدنيا مغترًّا فأصبح فى حبائل خطوبها ومناياها أسيراً ! وإنماتقرُّ عين من وَثِقَ بالنّجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح مَنْ أمِنَ من أهوال يوم القيامة ، فأما مَنْ لايبرأ من كَلْمٍ إلاأصابه جارح من ناحية أخرى فكيف يفرح ! أعوذ بالله أنْ أخبرَكم بما أنهَى عنه نفسى ؛ فتخيبَ صفقتى، وتظهر عورتى ،وتبدوَ مسكنتى ،فى يوم يبدُو فيه الغنيّ والفقير؛والموازين منصوبة، والجوارح ناطقة . لقد عنيتم بأمرٍ لو عنيت به النّجوم لانكدرت ، ولو عنيت به الجبال لذابت ، أو الأرض لانفطرت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ،وأنكم صائرون إلى أحدهما ![2]

ومن خطب عمر بن عبد العزيز :

أيهاالناس : [إنكم][3]لم تخلَقوا عبثا ،ولم تتركوا سدًى،وإن لكم معاداً يبين[4] الله لكم فيه الحكم والفصل بينكم ، تخاب وخسر مَنْ خرج من رحمة الله التى وَسِعَتْ كلّ شىء ، وحُرِم الجنّة[5] التى عَرْضها السموات والأرض .

(١) العقد : « خطرات »
(٢) العقد لابن عبد ربه ٤ : ٩٢
(٣) من البيان والتبيين والعقد .
(٤) البيان والعقد : « يحكم »
(٥) العقد : « جنة »

واعلموا أنّ الأمان لمن خاف الله ، وباع قليلا بكثير ، وفانيا [1] بباقٍ . ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيسْلبها [2] بعدكم الباقون ؛ حتى تردّ إلى خير الوارثين ؟ ثم إنكم فى كلّ يوم تشيّعون غاديا ورائحا إلى الله عزّ وجلّ ، قد قضى نحبَه ، وبلغ أجلَه ، تغيّبونه فى صَدْع من الأرض ثم تدَعونه غير ممهّد ولا موسّد ، قد صرم الأسباب [3] ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ، وصار فى التراب ، غنيًّا عمّا ترك ، فقيرا إلى ما قدّم [4] .

***

[من خطب ابن نباتة]

ومن خطب ابن نباتة الجيّدة فى ذكر الموت :

أيّها الناس ، ما أسلس قيادَ من كان للموت جريره ، وأبعد سداد من كان هواه أميرَه ! وأسرع فطام من كانت الدنيا ظِئره ، وأمنع جَناب من أضحت التقوى ظهيره ! فاتقوا الله عباد الله حقّ تقواه ، وراقبوه مراقبة مَن يعلم أنه يراه ، وتأهّبوا لوثبات المنون ؛ فإنّها كامنة فى الحركات والسكون ؛ بينما ترى المرء مسروراً بشبابه ، مغروراً بإعجابه ، مغموراً بسعة اكتسابه ؛ مستوراً عمّا خُلِق له لما يغرَى به ، إذ أسعرت فيه الأسقام شهابها ، وكدّرت له الأيام شرابها ، وحوّمت عليه المنيّة عُقابها ، وأعلقت فيه ظُفرها ونابها ، فسرَت فيه أوجاعُه ، وتنكّرت عليه طباعه ، وأظلّ رحيلُه ووداعه ؛ وقلّ عنه منعه ودفاعه ، فأصبح ذا بصرٍ حائر ، وقلب طائر ، ونفَس غابر ، فى قعاب هلاك دائر ؛ قد أيقن بمفارقة أهله ووطنه ، وأذعن بانتزاع رُوحه عن بدنه ؛ حتى إذا تحقق منه اليأس ، وحلّ به المحذور والبأس ، أومأ إلى خاصّ [5] عوّاده ، موصياً لهم بأصاغر أولاده ؛ جَزِعاً عليهم من ظفر أعدائه وحسّاده

---

(١) البيان : « وفانيا » .

(٢) العقد والبيان : « وسيخلفها » .

(٣) البيان والعقد : « قد خلع الأسباب » .

(٤) البيان والتبيين ٢ : ١٢٠ ، العقد لابن عبد ربه ٤ : ٩٥ .

(٥) ب : « حاضر » ، وما أثبته عن ا ، ج .

والنفس بالسّياق تجذب، والموت بالفراق يقرب، والعيون لهول مصرعه تَسْكُب؛ والحامة عليه تعدّد وتندب؛ حتى تجلّى له مَلَكُ الموت من حُجُبه، فقضى فيه قضاء أمر رَبِّه، ففاقه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وزُوِّد من مالِه كفنا، وحصر فى الأرض بعمله مرتهنا؛ وحيداً على كثرة الجيران، بعيداً على قُرْب المكان، مقيما بين قوم كانوا فزالوا، وحوت عليهم الحادثات فحالوا؛ لا يخبرون بما إليه آلوا، ولو قدروا على المقال لقالوا، قد شربوا من الموت كأساً مُرّة، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرّة، وآلى عليهم الدهر أليّةَ برّة، ألا يجعل لهم الدنيا كرّة، كأنهم لم يكونوا للعيون قُرّة، ولم يُعَدّوا فى الأحياء مَرّة، أسكنهم الذى أنطقهم، وأبادهم الذى خلقهم وسيوجِدهم كما خلقهم، ويجمعهم كما فرّقهم، يوم يعيد الله العالمين خلقا جديدا، ويجعل الله الظالمين لنار جهنم وقودا: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ (١).

---

(١) سورة آل عمران ٣٠

(٦٤)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالاً ، فَيَكُونَ أَوَّلاً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً ، وَيَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِناً ؛ كُلُّ مُسَمًّى بِالْوَحْدَةِ غَيْرَهُ قَلِيلٌ ، وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرَهُ ذَلِيلٌ ، وَكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرَهُ ضَعِيفٌ ، وَكُلُّ مَالِكٍ غَيْرَهُ مَمْلُوكٌ ، وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرَهُ مُتَعَلِّمٌ ، وَكُلُّ قَادِرٍ غَيْرَهُ يَقْدِرُ وَيَعْجِزُ ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرَهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ الْأَصْوَاتِ ؛ وَيُصِمُّهُ كَبِيرُهَا ، وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا ، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرَهُ غَيْرُ بَاطِنٍ ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرَهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ .

لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ ، وَلَا تَخَوُّفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ ، وَلَا اسْتِعَانَةٍ عَلَى نِدٍّ مُثَاوِرٍ ، وَلَا شَرِيكٍ مُكَاثِرٍ ، وَلَا ضِدٍّ مُنَافِرٍ ، وَلَكِنْ خَلَائِقُ مَرْبُوبُونَ ، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ ، لَمْ يَحْلُلْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيُقَالَ : هُوَ فِيهَا كَائِنٌ ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيُقَالَ : هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ .

لَمْ يَؤُدْهُ خَلْقُ مَا ابْتَدَأَ ، وَلَا تَدْبِيرُ مَاذَرَأَ ، وَلَا وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ ، وَلَا وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيمَا قَضَى وَقَدَّرَ ، بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ ، الْمَأْمُولُ مَعَ النِّقَمِ ، الْمَرْهُوبُ مَعَ النِّعَمِ .

• • •

الشَّرْحُ :

يَصَمّ ، بفتح الصاد ، لأنّ الماضي « صَمِمْتُ » يا زيد ، والصَّمَم : فساد حاسّة السمع ، ويصمه بكسرها ؛ يحدث الصَّمَم عنده ، وأصممت زيداً .

والنِّدّ : المِثل والنظير . والمثاور : المواثب . والشريك المكاثر : المفتخر بالكثرة . والضدّ المنافر : المحاكم فى الحسب ، نافرت زيدا فنفَرْته ، أى غلبته . ومربوبون : مملوكون وداخرون : ذليلون خاضعون .

ولم يَنِأْ : لم يبعُد . ولم يؤده : لم يتعبه . وذرأ : خلق ، وولجت عليه الشبهة ، بفتح اللام ، أى دخلت . والمرهوب : المخوف .

فأما قوله : « الذى لم يسبق له حال حالا ، فيكون أوّلا قبل أن يكون آخرا » ، فيمكن تفسيرُه على وجهين :

أحدُهما : أنّ معنى كونه أولا أنه لم يزَلْ موجودا ، ولا شىء من الأشياء بموجود[1] أصلا ؛ ومعنى كونه آخرا أنه باقٍ لا يزال ، وكلّ شىء من الأشياء يُعدَم عدماً محضاً حسب عدمه فيما مضى ، وذاته سبحانه ذات يجب لها اجتماعُ استحقاق هذين الاعتبارين معا فى كلّ حال ، فلا حال قطّ إلا ويصدق على ذاته أنه[2] يجب كونها مستحقّة للأوليّة والآخرية بالاعتبار المذكور استحقاقا ذاتيا ضروريا ، وذلك الاستحقاق ليس على وجه وصف الترتيب ؛ بل مع خلاف غيره من الموجودات الجسمانية ؛ فإنّ غيره مما يبقى زمانَين فصاعدا إذا نسبناه إلى ما يبقى دون زمان بقائه لم يكن استحقاقه الأوليّة والأخريّة بالنسبة إليه على هذا الوصف ؛ بل إنّما يكون استحقاقاً بالكليّة ؛ بأن يكون استحقاقا قريبا ، فيكون إنما يصدُق عليه أحدُهما ، لأنّ الآخر لم يصدق عليه ؛ أو يكونا معاً يصدقان عليه مجتمعين غير مرتّبين ؛ لكن ليس ذلك لذات الموصوف بالأوليّة والآخرية ، بل إنما ذلك الاستحقاق لأمرٍ خارج عن ذاته .

الوجه الثانى : أن يريدَ بهذا الكلام أنّه تعالى لا يجوز أن يكون موردا للصفات المتعاقبة ؛ على مايذهب إليه قوم من أهل التوحيد ؛ قالوا : لأنّه واجبٌ لذاته ، والواجب لذاته

---

(١) ا ، ب : « موجود » .

(٢) ساقطة من ب .

واجب من جميع جهاته ؛ إذ لو فرضنا جواز اتصافه بأمر جديد ثبوتيّ أو سلبي لقلنا : إن ذاته لا تكفي في تحقّقه ، ولو قلنا ذلك لقلنا إنّ حصول ذلك الأمر ، أو سلبه عنه ، يتوقف على حصول أمر خارج عن ذاته ؛ أو على عدم أمر خارج عن ذاته ؛ فتكون ذاته لا محالة متوقّفة على حضور ذلك الحصول أو السلب ، والمتوقف على المتوقف على الغير متوقّف على الغير ، وكلّ متوقّف على الغير ممكن ، والواجب لا يكون ممكنا . فيكون معنى الكلام على هذا التفسير نفيَ كونه تعالى ذا صفة ، بكونه أولا وآخرا ، بل إنما المرجع بذلك إلى إضافات لا وجودَ لها في الأعيان ، ولا يكون ذلك من أحوال ذاته الراجعة إليها كالعالمية ونحوها ، لأنّ تلك أحوال ثابتة ، ونحن إنما ننفي عنه بهذه الحجة[1] الأحوالَ المتعاقبة .

وأما قوله : « أو يكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا » ، فإنّ للباطن والظاهر تفسيرا على وجهين :

أحدهما : أنه ظاهر بمعنى أنّ أدلة وجوده وأعلام ثبوته وإلهيته جليّة واضحة ، ومعنى كونه باطنا أنه غير مدرَك بالحواسّ الظاهرة ، بل بقوة أخرى باطنة ؛ وهي القوة العقلية .

وثانيهما : أنّا نعني بالظاهر الغالب ؛ يقال : ظهر فلانٌ على بني[2] فلان ، أي غلبهم ، ومعنى الباطن العالم ، يقال : بطنت سرّ فلان ، أي علمته ، والقول في نفيه عنه سبحانه أن يكون ظاهرا قبل كونه باطنا ، كالقول فيما تقدّم من نفيه عنه سبحانه كونه أوّلا قبل كونه آخرا .

وأما قوله : « كلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل » ، فلأنّ الواحد أقلّ العدد ، ومعنى كونه واحداً يُباين ذلك ، لأنّ معنى كونه واحدا إما نفي الثاني في الإلهية ، أو كونه يستحيل عليها الانقسام ، وعلى كلا التفسيرين يُسلَب عنها مفهوم القلة .

هذا إذا فسرنا كلامه على التفسير الحقيقيّ ، وإن فسرناه على قاعدة البلاغة وصناعة

---

(١) ب : « بجمد » ، تحريف .
(٢) ج : « أبناء » .

الخطابة ، كان ظاهرا ، لأن الناس يستحقرون القليل لقلته ، ويستعظمون الكثير لكثرته ، قال الشاعر .

تَجَمَّعْتُمُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ووِجْهَةٍ عَلَى واحدٍ لازِلْتُمُ قِرْنَ واحدِ

وأما قوله : « وكلُّ عزيز غيره ذليل » فهو حقّ ، لأن غيره من الملوك وإن كان عزيزا فهو ذليل فى قبضة القضاء والقدر ، وهذا هو تفسير قوله : « وكلّ قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك » .

وأما قوله : « وكلّ عالم غيره متعلم » فهو حقّ ، لأنه سبحانه مفيضُ العلوم على النفوس ، فهو المعلّم الأوّل ، جلّت قدرته .

وأما قوله : « وكلُّ قادرٍ غيره يقدر ويعجز » فهو حقّ ، لأنه تعالى قادر لذاته ، ويستحيل عليه العجز ، وغيره قادر لأمر خارج عن ذاته ، إما لقدرة ، كما قاله قوم ، أو لبنية وتركيب كما قاله قوم آخرون ، والعجز على مَنْ عداه غير ممتنع ، وعليه مستحيل .

وأما قوله عليه السلام : « وكلُّ سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات ، ويصمّه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها » فحقّ ، لأن كلّ ذى سمع من الأجسام يضعُف سمعه عن إدراك خَفِىِّ الأصوات ، ويتأثر من شديدها وقويها ، لأنّه يسمع[1] بآلة جسمانية ، والآلة الجسمانية ذات قوة متناهية واقفة عند حدّ محدود ، والبارى تعالى بخلاف ذلك .

* * *

واعلم أنّ أصحابنا اختلفوا فى كونه تعالى مدرِكاً للمسموعات والمبصرات ، فقال شيخنا أبو علىّ وأبو هاشم وأصحابهما : إنّ كونه مدركا صفة زائدة على كونه عالما ، وقالا : إنّا نصف البارى تعالى ـ فيما لم يزل ـ بأنّه سميع بصير ، ولا نصفُه بأنه سامع مبصر ، ومعنى كونه سامعاً مبصراً أنّه مدرِك للمسموعات والمبصرات .

---

(١) ب : « لا يسمع » ، تحريف .

وقال شيخنا أبو القاسم وأبو الحسين وأصحابهما: إنّ معنى كونه تعالى مُدرِكاً، هو أنه عالم بالمدرَكات؛ ولا صفة له زائدة على صفته بكونه عالما؛ وهذا البحث مشروح فى كتبى الكلامية لتقرير الطريقين وفى " شرح الغرر[1] " وغيرها.

والقول فى شرح قوله: « وكلّ بصير غيره يعمى عن خفىّ الألوان، ولطيف الأجسام »، كالقول فيما تقدّم فى إدراك السّمع.

وأما قوله: « وكلُّ ظاهرٍ غيره غير باطن، وكلّ باطن غيره غير ظاهر » فحقّ، لأن كلّ ظاهر غيره على التفسير الأول فليس بباطن كالشمس والقمر وغيرهما من الألوان الظاهرة، فإنّها ليست إنّما تدرَك بالقوة العقليّة؛ بل بالحواسّ الظاهرة، وأمّا هو سبحانه فإنّه أظهرُ وجوداً من الشمس، لكنّ ذلك الظهور لم يمكن إدراكه بالقُوى الحاسة الظاهرة، بل بأمرٍ آخر، إمّا خفىٌّ فى باطن هذا الجسد، أو مفارق ليس فى الجسد ولا فى جهة أخرى غير جهة الجسد.

وأما على التفسير الثانى؛ فلأنّ كلّ مَلِكٍ ظاهر على رعيّته أو على خصومه وقاهر لهم، ليس بعالم ببواطنهم، وليس مطّلعا على سرائرهم، والبارئ تعالى بخلاف ذلك؛ وإذا فهمتَ شرح القضيّة الأولى، فهمت شرح الثانية، وهى قوله: « وكلّ باطن غيره غير ظاهر ».

* * *

[اختلاف الأقوال فى خلق العالم]

فأما قوله: « لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطانه » إلى قوله: « عباد داخرون »، فاعلم أنّ

(١) هو شرح مشكلات الغرر لأبى الحسين البصرى.

الناس اختلفوا فى كيفية خلقه تعالى للعالم ماهى ؟ على أقوال :

القول الأول : قول الفلاسفة :

قال محمد بن زكريا الرازىّ عن[1] أرسطاطاليس : إنه زعم أن العالم كان عن البارئ تعالى ، لأنّ جوهرَه وذاته جوهر وذات مسخرة للمعدوم أن يكون مسخرا موجودا .

قال : وزعم ابن قيس أنّ علة وجود العالم وجود البارئ .

قال : وعلى كلاَ القولين يكون العالم قديما ؛ أما على قول أرسطو فلأنّ جوهر ذات البارئ لما كان قديما لم يزَل،وجب أن يكون أثرها ومعلولها قديما.وأمّا على قول ابن قيس فلأنّ البارئ موجود لم يزل ؛ لأن وجوده من لوازم ذاته،فوجب أن يكون فيضُه وأثرُه أيضا لم يزل هكذا .

قال ابن زكريا: فأمّا الذى يقول أصحاب أرسطاطاليس الآن فى زماننا ، فهوأنّ العالم لم يجب عن الله سبحانه عن قصد ولا غرض ، لأنّ كلّ مَنْ فعل فعلا لغرض كان حصول ذلك الغرض له أولى من لا حصوله ، فيكون كاملا لحصول ذلك الغرض ، وواجب الوجود لا يجوز أن يكون كاملاً بأمر خارج عن ذاته ، لأنّ الكامل لامن ذاته ناقص من ذاته .

قالوا : لكن تمثّل نظام العالم فى علم واجب الوجود ، يقتضى فيضَ ذلك النظام منه، قالوا : وهذا معنى قول الحكماء الأوائل : إنّ علمه تعالى فعلىّ لا انفعالى ؛ وإن العلم على قسمين :

أحدهما : مايكون المعلوم سبباً له ، والثانى مايكون هو سبب المعلوم ؛ مثالُ الأول أنْ نشاهد صورة فنعلمها ، ومثال الثانى أن يتصوّر الصانع أو النجار أو البنّاء كيفيّة العمل فيوقعه فى الخارج على حسب ماتصوّره .

---

(١) ب : « على » .

قالوا : وعلمه تعالى من القسم الثانى ، وهذا هو المعنى المعبّر عنه بالعناية ، وهو إحاطة علم الأول الحقّ سبحانه بالكلّ وبالواجب أن يكون عليه الكلّ ، حتى يكون على أحسن النظام ، وبأنّ ذلك واجب عن إحاطته فيكون الموجود وفق المعلوم من غير انبعاث قصد وطلب عن الأوّل الحقّ سبحانه ، فعلمُه تعالى بكيفية الصواب فى ترتيب الكلّ هو المنبع لفيضان الوجود فى الكل .

القول الثانى : قولٌ حكاه أبو القاسم البلخيّ عن قدماء الفلاسفة ، وإليه كان يذهب محمد بن زكريا الرازى من المتأخرين .

وهو أنّ علة خلق البارئ للعالم تنبيه النفس على أنّ ماتراه من الهيولى وتريده غير ممكن لترفُضَ محبتها إياها وعشقها لها ، وتعود إلى عالمها الأول غير مشتاقة إلى هذا العالم .

واعلم أن هذا القول هو القول المحكىّ عن الحرنانية[1] أصحاب القدماء الخمسة ، وحقيقة مذهبهم إثبات قدماء خمسة : اثنان منهم حيّان فاعلان ؛ وهما البارئ تعالى والنفس ، ومرادهم بالنّفس ذات هى مبدأ لسائر النفوس التى فى العالم كالأرواح البشرية ، والقوى النباتية والنفوس الفلكيّة ، ويسمّون هذه الذات النفسَ الكليّة . وواحد من الخمسة منفعل غير حىّ ؛ وهو الهيولى ، واثنان لا حيّان ولا فاعلان ولا منفعلان ، وهما الدّهر والفضاء . قالوا : والبارئ تعالى هو مبدأ العلوم والمنفعلات ، وهو قائم العلم والحكمة ، كما أنّ النفس مبدأ الأرواح والنفوس ؛ فالعلوم والمنفعلات تفيض من البارئ سبحانه فيضَ النور عن قرص الشمس ، والنفوس والأرواح تفيض عن النفس الكليّة فيضَ النور عن القرص ، إلا أنّ النفوس جاهلة لا تعرف الأشياء إلا على أحد[2] وجهين : إمّا أن يفيض فيض البارئ تعالى عليها تعقّلاً وإدراكاً ، وإما أن تمارس غيرها وتمازجه ، فتعرف ما تعرف باعتبار الممارسة والمخالطة معرفة ناقصة ، وكان البارئ تعالى فى الأزل عالما بأنّ النفس تميل إلى التعلّق بالهيولى

---

(١) الحرنانية : جماعة من الصابئة قالوا : إن الصانع المعبود واحد وكثير . . . وانظر الملل والنحل للشهرستانى ٢ : ٥٨ .

(٢) ساقطة من ب .

وتعشقها ، وتطلب اللذة الجسمانية ، وتكره مفارقة الأجسام ، وتنسى نفسها ، ولما كان الباريُ سبحانه تامَّ العلم والحكمة ، اقتضت حكمته تركّب الهيولى لما تعلّقت النفس بها ضروبا مختلفة من التراكيب ، فجعل منها أفلاكاً وعناصر وحيوانات ونباتات ، فأفاضَ على النفوس تعقّلا وشعوراً جعله سبباً لتذكُّرِها عالمها الأول ، ومعرفتها أنّها مادامت في هذا العالم مخالطة للهيولى لم تنفكّ عن الآلام ، فيصير ذلك مقتضيا شوقها إلى عالمها الأوّل الذى لها فيه اللذات الخالية عن الآلام ، ورفضها هذا العالم الذى هو سبب أذاها ومضرّتها .

* * *

القول الثالث : قول المجوس : إنّ الغرَض من خلق العالم أن يتحصّن الخالق جلّ اسمُه من العدوّ ، وأنْ يجعلَ العالم شبكةً له ليوقع العدوّ فيه ، ويجعله في رِبُط ووِثاق ، والعدوّ عندهم هو الشيطان ، وبعضُهم يعتقِد قِدَمَه ، وبعضهم حدوثه .

قال قوم منهم : إن الباريْ تعالى استوحش ، ففكّر فكرةً رديئة ، فتولّد منها الشيطان .

وقال آخرون : بل شكّ شكاً رديئاً ، فتولّد الشيطان من شكّه .

وقال آخرون : بل تولّد من عفونة رديئة قديمة ، وزعموا أنّ الشيطان حارب الباريْ سبحانه ، وكان في الظلم لم يزل بمعزل عن سلطان الباريْ سبحانه ، فلم يزل يزحفُ حتى رأى النور ، فوثب وثبةً عظيمة ، فصار في سلطان الله تعالى في النور ، وأدخل معه الآفات والبلايا والسرور ، فبنى الله سبحانه هذه الأفلاك والأرض والعناصر شبكةً له ، وهو فيها محبوس ، لا يمكنه الرجوع إلى سلطانه الأوّل ، وصار في[1] الظُّلمة ، فهو أبداً يضطرب ويرمي الآفات على خلق الله سبحانه ، فمن أحياه الله رماه الشيطان بالموت ، ومن أصحّه رماه الشيطان بالسّقم ، ومن سرّه رماه بالحزن والكآبة ، فلا يزال كذلك ، وكلّ يوم ينتقص[2] سلطانه وقوّته ، لأن الله تعالى يحتالُ له كلّ يوم ، ويضعفه إلى أن تذهب قوّته كلها ،

(١) ج : « والظلمة » . (٢) ج : « ينقص » .

وتجمد وتصير جماداً لا حراك به ؛ فيضمه الله تعالى حينئذ فى الجوّ ، والجوّ عندهم هو الظلمة ؛ ولا منتهى له ؛ فيصير فى الجوّ جماداً جامداً هوائياً ، ويجمع الله تعالى أهلَ الأديان فيعذّبهم بقدر مايطهّرهم ، ويصفّيهم من طاعة الشيطان ، ويغسلهم من الأدناس ، ثم يدخلهم الجنّة ؛ وهى جنة لا أكلَ فيها ولا شرب ولا تمتع ، ولكنها موضع لذة وسرور .

* * *

القول الرابع : قول المانويّة :

وهو أن النّور لا نهاية له من جهة فوق ، وأمّا من جهة تحت فله نهاية ، والظلمة لانهاية لها من جهة أسفل ، وأما مِنْ جهة فوق فلها نهاية ، وكان النور والظلمة هكذا قبل خلق العالم وبينهما فُرْجة ، وأنّ بعضَ أجزاء النور اقتحم تلك الفُرْجة لينظر إلى الظلمة ، فأسرَتْه(١) الظلمة ، فأقبل عالم كثير من النور ، فحارب الظلمة ليستخلص المأسورين من تلك الأجزاء ، وطالت الحرب ، واختلط كثير من أجزاء النور بكثير من أجزاء الظلمة ، فاقتضت حكمةُ نور الأنوار — وهو البارى سبحانه عندهم — أن عمِل الأرضَ من لحوم القتلى ، والجبال من عظامهم ، والبحار من صديدهم ودمائهم ، والسماء من جلودهم ، وخلق الشمس والقمر وسيّرهما ؛ لاستقصاء ما فى هذا العالم من أجزاء النور المختلطة بأجزاء الظلمة ، وجعل حول هذا العالم خندقاً خارج الفلك الأعلى ، يطرح فيه الظلام المستقصَى ، فهو لايزال يزيد ويتضاعف ويكثر فى هذا الخندق ، وهو ظلام صِرْف قد استقصى نورَه . وأما النور المستخلص فيلحق بعد الاستقصاء بعالم الأنوار من فوق ، فلا تزال الأفلاكُ متحركة ، والعالم مستمراً إلى أن يتمّ استقصاء النور الممتزج ؛ وحينئذ يبقى من النور الممتزج شىء يسير ، فينعقد بالظلمة ؛ لا تقدر النيران على استقصائه ، فعند ذلك تسقط الأجسام العالية — وهى الأفلاك — على الأجسام السافلة — وهى الأرضون — وتثور نار ، وتضطرم فى تلك الأسافل

(١) : ج « فأشرقت » تصحيف .

وهى المسمّاة بجهنّم ، ويكون الاضطرام مقدار ألف وأربعمائة سنة ، فتحلّل بتلك النار تلك الأجزاء المنعقدة من النور ، الممتزجة بأجزاء الظلمة التى عجز الشمس والقمر عن استقصائها ، فيرتفع إلى عالم الأنوار ، ويبطل العالم حينئذ ؛ ويعود النور كلّه إلى حاله الأولى قبل الامتزاج ؛ فكذلك الظلمة .

***

القول الخامس : قول متكلّمى الإسلام .

وهو على وجوه :

أوّلها قول جمهور أصحابنا : إن الله تعالى إنما خلق العالم للإحسان إليهم والإنعام على الحيوان ؛ لأن خلقه حيّاً نعمة عليه ، لأنّ حقيقة النعمة موجودة فيه ، وذلك أنّ النعمة هى المنفعة المفعولة للإحسان ، ووجود الجسم حيّاً منفعة مفعولة للإحسان ؛ أما بيانُ كون ذلك منفعة ؛ فلأنّ المنفعةَ هى اللذة والسرور ودفع المضارّ المخوّفة ؛ وما أدّى إلى ذلك وصحّحه ، ألا ترى أنّ مَنْ أشرفَ على أن يهوىَ من جبل ؛ فمنعه بعضُ الناس من ذلك ؛ فإنه يكون منعماً عليه ، ومَنْ سَرّ غيره بأمر ، وأوصل إليه لذة ، يكون قد أنعم عليه ، ومَنْ دفع إلى غيره مالًا يكونُ قد أنعم عليه ، لأنه قد مكّنه بدفعه إليه من الانتفاع ، وصحّحه له . ولا ريب أنّ وجودَنا أحياء يصحّحُ لنا اللذات ، ويمكّننا منها ، لأنّا لو لم نكن أحياء لم يصحّ ذلك فينا . قالوا : وإنما قُلْنا إنّ هذه المنفعة مفعولة للإحسان ، لأنّها إما أن تكون مفعولة لا لغرض أو لغرض ، والأول باطل ، لأن ما يُفعل لا لغرض عبثٌ ، والبارئ سبحانه لا يصحّ أن تكون أفعاله عبثاً ، لأنه حكيم .

وأما الثانى ؛ فإمّا أن يكون ذلك الغرض عائداً عليه سبحانه بنفع أو دفع ضرر ، أو يعود على غيره . والأوّل باطل ؛ لأنه غنى لذاته ؛ يستحيل عليه المنافع والمضارّ ؛ ولا يجوز أن يفعله لمضرّة يوصّلها إلى غيره ؛ لأنّ القصدَ إلى الإضرار بالحيوان من غير استحقاق ولا منفعة يوصّل إليها بالمضرّة قبيح ، تعالى الله عنه ! فثبت أنّه سبحانه إنما خلق الحيوانَ

لنفسه ، وأما غيرُ الحيوان فلو لم يفعله لينفعَ به الحيوان ، لكان خَلْقه عبثا ، والبارئ تعالى لا يجوز عليه العبث ؛ فإذاً جميعُ ما فى العالم إنما خلقه لينفعَ به الحيوان .

فهذا هو الكلامُ فى علة خَلْق العالم عندهم ؛ وأما الكلام فى وجه حُسْن تكليف الإنسان ؛ فذاك مقام آخر لسنا الآن فى بيانه ولا الحاجة داعية إليه .

وثانيها : قول قوم من أصحابنا البغداديين : إنه خلَق الخلْق ؛ ليُظهِرَ به لأرباب العقول صفاتِه الحميدة ، وقدرتَه على كلّ ممكن ، وعلمَه بكلّ معلوم ؛ وما يستحقّه من الثناء والحمد. قالوا : وقد ورد الخبر أنه تعالى قال : « كنتُ كنزا لا أعرَف ، فأحببت أن أعرَف » ؛ وهذا القول ليس بعيدا .

وثالثها : للمجبرة : إنه خلق الخلْق لا لغرض أصلا ؛ ولا يقال [1] : لم كان كلّ شىء لعلة ، ولا علة لفعله ؛ ومذهب الأشعرىّ وأصحابه أن إرادته القديمة تعلقت بإيجاد العالم فى الحال التى وجد فيها لذاتها ؛ ولا لغرض ولا لداع ؛ وما كان يجوز ألا يوجد العالم حيث وُجِد ، لأن الإرادة القديمة ، لا يجوز أنْ تنقلب وتتغير حقيقتها ؛ وكذلك القول عندهم فى أجزاء العالم المجدّدة من الحركات والسكنات ، والأجسام وسائر الأعراض .

ورابعها : قولِ بعضِ المتكلمين : إنّ البارئ تعالى إنما فعل العالم لأنه ملتذٌّ بأنْ يفعل ، وأجاز أربابُ هذا القول عليه اللّذة والسرور والابتهاج . قالوا : والبارئ - سبحانه - وإن كان قبل أن يخلق العالم ملتذًّا بكونه قادرا على خَلْق العالم - إلا أن لذة الفعل أقوى من لذة القدرة على الفعل ؛ كان يلتذّ بأنه قادر على أن يكتُبَ خطا مستحسنا ، أو يبنىَ بيتا محكما ، فإنه إذا أخرج تلك الصناعة من القوّة إلى الفعل ، كانت لذته أتمّ وأعظم . قالوا : ولم يثبت بالدليل العقلىّ استحالة اللّذة عليه ؛ وقد ورد فى الآثار النبوية أنّ الله تعالى يُسَرّ ؛ واتفقت الفلاسفة على أنه ملتذّ بذاته وكماله .

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا : « قالوا » .

وعندى فى هذا القولِ نظر ؛ ولى فى اللذة والألم رسالة مفردة ؛ وأما قوله : «لم يحلُل فى الأشياء، فيقال : لا هو فيها كائن ولا منها مباين »، فينبغى أن يحمَل على أنه أراد أنه لم ينأ عن الأشياء نأياً مكانيا فيقال : هو بائن بالمكان ، هكذا ينبغى أن يكون مراده ؛ لأنّه لا يجوز إطلاقُ القول بأنّه ليس ببائن عن الأشياء ؛ وكيف والمجرّد بالضرورة بائن عن ذى الوضع ؛ ولكنها بينونة بالذات لا بالجهة ، والمسلمون كلّهم متفقون على أنّه تعالى يستحيلُ أن يحلّ فى شيء إلا مَن اعتزى إلى الإسلام من الحلوليـة ، كالذين قالوا بحلوله فى علىّ وولده ، وكالذين قالوا بحلُوله فى أشخاص يعتقدون فيها إظهاره كالحلاّجيّة وغيرهم ؛ والدليلُ على استحالةِ حلُوله سبحانه فى الأجسام ؛ أنّه لو صح أن يحُلّ فيها لم يعقل منفردا بنفسه أبدا ؛ كما أنّ السواد لا يعقل كونه غير حالٍّ فى الجسم ؛ لأنه لو يعقل غير حالّ فى الجسم لم يكن سواداً ، ولا يجوز أن يكون الله تعالى حالًّا أبدا ؛ ولا أن يلاقِىَ الجسم ؛ إذ ذلك يستلزم قدمَ الأجسام ؛ وقد ثبت أنها حادثة .

* * *

فأمّا قولُه : « لم يؤدْهُ خَلق ما ابتدأ » إلى قوله : « مِمّا خَلَق » فهو حقّ ، لأنه تعالى قادر لِذاته ، والقادر لذاته لا يتعب ولا يعجز ؛ لأنه ليس بجسم ؛ ولا قادر بقدرة يقف مقدورها عند حَدّ وغاية ؛ بل إنما يقدر على شيء لأنه تعالى ذات مخصوصة ، يجب لها أن تقدر على الممكنات ؛ فيكون كلّ ممكن داخلا تحت هذه القضيّة الكلية ؛ والذات التى تكون هكذا لا تعجز ولا تقف مقدوراتها عند حَدّ وغاية أصلا ؛ ويستحيل عليها التعب ، لأنها ليستْ ذات أعضاء وأجزاء .

وأما قوله : « ولا وَلجتْ عليه شُبْهة » إلى قوله : « وأمر مُبْرَم » لحقّ ؛ لأنه تعالى عالم لذاته ؛ أى إنما عَلِم ما علمه لا بمعنى أن يتعلّق بمعلوم دون معلوم ؛ بل إنما علم أىّ شيء أشرت إليه ، لأنه ذات مخصوصة ؛ ونسبة تلك الذات إلى غير ذلك الشيء المشار إليه ،

كنسبتها إلى المشار إليه ، فكانت عالمة بكلّ معلوم ؛ واستحال دخول الشبهة عليها فيما يقضيه ويقدّره .

وأما قوله : «المأمول مع النقم،المرهوب مع النعم» :فمعنى لطيف،وإليه وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [1] ، وقوله سبحانه : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [3] ، وقوله سبحانه : ﴿ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [4] وإليه نظر الشاعر في قوله :

مَنْ عَاشَ لَاقَى مَا يَسُو ءُ مِنَ الأُمورِ وَمَا يَسُرّ
وَلربّ حتفٍ فوقه ذهبٌ وياقوتٌ ودرّ

وقال البحترى :

يَسُرُّكَ الشيء قَدْ يَسُوء وَكَمْ نَوَّهَ يوماً بِخَامِلٍ لَقَبُهْ
لا يَيْئس المرء أن ينجّيَهُ ما يَحْسِبُ النَّاسُ أنّه عطبُهْ

وقال آخر :

رُبَّ غَمٍّ يَدِبُّ تَحْتَ سُرُورٍ وَسُرُورٍ يأتِي مِنَ الْمَحْذُورِ

وقال سعيد بن حُميد :

كم نعمةٍ مطويّةٍ لَكَ بَيْنَ أثناء النوائب [5]

---

(١) سورة الأعراف ٧٩ .
(٢) سورة الأعراف ١٨٢ .
(٣) سورة الشرح ٦٥ .
(٤) سورة النساء ١٩ .
(٥) شرح المختار من شعر بشار ص ٣١٤ ، من غير نسبة .

وَمَسرّةٍ قَدْ أَقْبَلَتْ مِنْ حَيثُ تُنْتَظرُ المصائبْ

وقال آخر :

أنتظِرُ الرَّوحَ وأسبابَهُ أيئسَ ما كنتُ من الرَّوحِ

وقال آخر :

رُبَّمَا تَجْزَعُ النُّفوس مِنَ الأَمْـــرِ لَهُ فَرْجَـــةٌ كحلِّ العِقَالِ (١)

وقال آخر :

العسْرُ أكرِمُه ليسرٍ بعـــدَهُ ولأجل عَيْنٍ ألفُ عَيْنٍ تُـكْرَمُ
والمرء يكرهُ يومَهُ ولعـــلّه يأتيه فيـــهِ سَعَادَةٌ لا تُعْلَمُ

وقال الحلاج :

وَلَرُبّمـــا هاجَ الـكبـــيرَ من الأمور لك الصغيرُ
ولرُبَّ أمرٍ قـــد تضيـــقُ به الصُّدور ولا يضيرُ

وقال آخر :

ياراقِدَ الليـــل مسروراً بأوّله إنّ الحوادث قَدْ يَطْرُقْنَ أسحارًا

وقال آخر :

كم مرّةٍ حُفَّت بك المكارِهْ خارَ لكَ اللهُ وأنتَ كارِهْ

ومن شعرى الذى أناجى به البارئ سبحانه فى خلواتى ، وهو فنّ أطويه وأكتمه عن الناس ؛ وإنما ذكرتُ بعضَه فى هـذا الموضع ، لأنّ المعنى ساق إليـه ، والحديث ذو شجون :

يَامَنْ جَفَانِى فَوَجْدِى بَعْدَهُ عَدَمُ هَبْنِى أَسأْتُ فَأَيْنَ العَفْوُ وَالْـكَرَمُ !

---

(١) لأمية بن أبى الصلت ، اللسان ٣ : ١٦٦ .

أنا المرابطُ دونَ الناس فاجفُ وَصِلْ ... واقبلْ وَعاقِبْ وحاسِبْ لَسْتُ أنهزِمُ

إنّ المحبَّ إذا صحّتْ محبّتهُ ... فما لوقعِ المواضِي عِندهُ ألَمُ

وَحقِّ فضلِكَ ما استنبأْتُ مِنْ نِعَمٍ ... تسري إليّ وإنْ حلّتْ بِيَ النِّقَمُ

ولا أمِنْتُ نكالاً منك أرهَبُهُ ... وإنْ ترادفت الآلاء والنِّعَمُ

حاشاكَ تُعرض عمّنْ في حشاشَتِهِ ... نارٌ لحبّك طُولَ الدهرِ تضطرمُ

ألم تقل إنّ مَنْ يدنو إليّ قَدْرَ الذ ... راع أدنو له باعاً وأبتسِمُ(١)

والله والله لو عاقبتَني حُقُباً ... بالنار تأكلُني حطما وتلتهمُ

ما حُلْتُ عن حبك الباقي فليس على ... حالٍ بمنصرمٍ، والدهر ينصرِمُ



(١) كذا ورد البيت مضطرب الوزن في الأصول.

(٦٥)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين:

مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ! اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ، وَتَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِذِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ. وَأَكْمِلُوا اللَّأْمَةَ، وَقَلْقِلُوا السُّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا. وَالْحَظُوا الْخَزْرَ، وَاطْعُنُوا الشَّزْرَ، وَنَافِحُوا بِالظُّبَا، وَصِلُوا السُّيُوفَ بِالْخُطَا.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ اللَّهِ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ. فَعَاوِدُوا الْكَرَّ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ؛ فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الْأَعْقَابِ، وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ. وَطِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْساً، وَامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْياً سُجُحاً، وَعَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ، وَالرِّوَاقِ الْمُطَنَّبِ، فَاضْرِبُوا ثَبَجَهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ، وَقَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَداً، وَأَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلاً.

فَصَمْداً صَمْداً! حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ؛ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ.

الشرح:

قوله: «استشعروا الخشية»، أي اجعلوا الخوفَ من الله تعالى من شعاركم؛ والشِّعار من الثياب: ما يكون دون الدِّثار، وهو يلي الجلد؛ وهو ألصق ثياب الجسد؛ وهذه استعارة حسنة، والمراد بذلك أمرهم بملازمة الخشية والتقوى، كما أنّ الجلد يلازم الشِّعار.

قوله : « وتجَلْبَبُوا السكينة » أى اجعلوا السَّكِينة والحلم والوقار جِلْبابا لكم، والجلباب الثوب المشتمِل على البدن .

قوله : « وعضُّوا على النواجذ » جمع ناجذ ، وهو أقصى الأضراس ، وللإنسان أربعة نواجذ فى كلّ شقّ ، والنواجذ بعد الأرحاء ، ويسمَّى النَّاجِذ ضِرْس الحلم، لأنّه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل ، ويقال : إن العاضّ على نواجذه ينبُو السيف عن هامته نبوًّا ما، وهذا مما يساعد التعليلُ الطبيعى عليه ، وذلك أنه إذا عضّ على نواجذه تصلّبت الأعصاب والعَضَلات المتصلة بدماغه ، وزال عنها الاسترخاء ، فكانت على مقاومة السيف أقْدَر ، وكان تأثيرُ السيفِ فيها أقلّ .

وقوله : « فإنّه أنْبَى » ، الضمير راجع إلى المصدر الذى دلّ الفعل عليه ، تقديره : فإنّ العَضّ أنبَى ؛ كقولهم : مَنْ فعل خيرا كان له خيرا ، أى كان فعله خيرا ، وأنبَى « أفعل » ، من نبا السيفُ ، إذا لم يقطع .

قال الراوندىّ : هذا كلام ليس على حقيقته ، بل هو كناية عن الأمر بتسكين القلْب وترك اضطرابه واستيلاء الرِّعْدة عليه، إلى أن قال: ذلك أشدّ إبعاداً لسيف العدوّ عن هامتكم.

قوله : « وأكْمِلوا اللأْمة » ، اللأمة ، بالهمزة : الدِّرع ، والهمزة ساكنة على « فَعْلة » ، مثل النأْمة للصوت ، وإكمالها أن يزاد عليها البَيْضة والسواعد ونحوها ؛ ويجوز أن يعبّر باللّأْمة عن جميع أداة الحرب ، كالدِّرع والرمح والسيف ، يريد : أكملوا السلاحَ الذى تحاربون العدوّ به .

قوله : « وقلقلوا السيوف فى أغمادها قبل سَلّها » ، يوم الحرب ؛ لئلّا يدومَ مكثُها فى الأجفان فتلحج[1] فيها فيستصعب[2] سلّها وقت الحاجة إليها .

وقوله : « والحظُوا الخزْر » ، الخزْر أن ينظرُ الإنسان بعينه ، وكأنّه ينظر بمؤخّرها وهى أمارة الغضب ، والذى أعرفه « الخزَر » بالتحريك ، قال الشاعر :

---

(١) لحج السيف لحجا : نشب فى الغمد ولم يخرج .

(٢) ج : « فيسهل » .

إذا تخازَرْتُ وَمَا بِي مِنْ خَزَرْ ثُمَّ كسرتُ العَيْنَ وما بي مِنْ عَوَرْ
ألفيتَني ألوَى بعيـــد المستمرّ أحمِـلُ ماحُمِّلْتُ مِنْ خَـيْرٍ وَشَرْ

فإن كان قد جاء مسكنًا فتسكينه جائز للسجعة الثانية ، وهى قوله . «واطعنوا الشَّزْر».
والطعن شَزْراً ، هو الطَّعْن عن اليمين والشمال ، ولا يسمَّى الطعن تجاه الإنسان شَزْرا .
وأ كثر ماتستعمل لفظة « الشَّزْر » فى الطعن ، لما كان عن اليمين خاصة ، وكذلك إدارة الرحا. وخَزْرا وشزرا ، صفتان لمصدرين محذوفين ،تقديره :الحظوا لحظا خزْرا ،واطعُنوا طَعْنًا شزراً ، وعينُ « اطعُنوا » مضمومة ، يقال : طعنت بالرمح أطعُن ، بالضم،وطعنت فى نسبه أطعَن ، بالفتح ، أى قدحت ، قال :

يطُوفُ بى عَـكبٌ فى مَعَدّ ويطعَنُ بالصُّمـــــلَةِ فى قَفَيّا[1]

قوله : « نافحوا بالظبا » أىضاربوا نَفْحة بالسيف، أىضربة ، ونفحتِ الناقة برجلها ، أى ضربت . والظُّبا : جمع ظُبَة ، وهى طَرَف السيف .

قوله : « وصلوا السيوف بالخطا » مثل قول الشاعر :

إذا قصُرَتْ أسيافُنا كان وَصْلَها خُطانا إلى أعـدائنـا فنضارِبِ[2]

قالوا : بكسر « نضارب » لأنه معطوف على موضع جزاءالشرط ، الذى هو « إذا » .
وقال آخر :

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بخطْونا يوماً ونلحقهـــــا إذَا لَمْ تَلْحَقِ[3]

وأنشدنى شيخنا أبو القاسم الحسين بن عبد الله العُكْبَرِىّ ، ولم يسمّ قائله ،ووجدته بعدُ لنابغة بنى الحارث بن كعب :

إن تسألى عَنّا ثُمَىّ فإنه يسمُو إلى قُحَمِ العلا أدنانا[4]

---

(١) هو المنخل اليشكرى ؛ وعكب اللخمى ، صاحب سجن النعمان بن المنذر . اللسان ٢ : ١١٨

(٢) الخزانة ٣ : ٢٤ ، ونسبه إلى الأخنس بن شهاب ، الأشباه والنظائر ١ : ١٢٠ ، ونسبه إلى قيس ابن الخطيم .

(٣) الكامل للمبرد ١ : ١١٤ ، ونسبه إلى كعب بن مالك .

(٤) المختلف والمؤتلف للآمدى ١٩١

وتبيتُ جارتُنـا حَصاناً عفّةً ترضى ويأخـذ حقَّه مولانا
ونقوم إن رقَ المنون بسُخرَةٍ لوصاة والدنا الذى أوصانا
ألّا نفرّ إذا الكتيبة أقبلت حتى تدور رحاهمُ ورحانا
ونميشُ فى أحلامنا أشياخنا مُرداً وما وصلَ الوجوه لِحانا
وإذا السيوف قصرن طولها لنا حتى تنـاول ماتريدُ خُطانا

وقال حُميد بن ثور الهلالى :

إلى أنْ نزلنا بالقضـاء وما لنا به مَعْقِـلٌ إلا الرِّماح الشَّواجرُ [1]
ووَصْلُ الخطا بالسّيف والسّيفِ بالخطا إذا ظنّ أنّ المرء ذا السّيف قاصرُ [2]

وهذه الأبيات من قطعة لحميد جيدة ، ومن جملتها :

قضَى الله فى بعض المكاره للفتى برشدٍ وفى بعضِ الهوى ما يُحاذِرُ
ألمْ تعلمى أنى إذا الإلفُ قادَنى إلى الجوْر لا أنقادُ ، والإلف جائرُ [3]
وقد كنتُ فى بعضِ الصِّبَاوة أتـقى أموراً وأخشى أن تدُور الدّوائرُ
وأعـلمُ أنى إن تغطّيتُ مرّةً من الدّهر مكشوفٌ غِطائى فناظرُ

ومن المعنى الذى نحن فى ذكره ، ماروى أنّ رجلا من الأزد رفع إلى المهلّب سيفاً له فقال : ياعمّ ، كيف ترى سيفى هذا ؟ فقال : إنه لجيد لولا أنه قصير ؛ قال : أطوّله ياعمّ بخطوتى ؛ فقال : والله يابن أخى ، إن المشى إلى الصّين أو إلى أذربيجان على أنياب الأفاعى أسهل من تلك الخطوة ؛ ولم يقل المهلّب ذلك جبناً ، بل قال ماتوجبه الصورة إذ كانت

---

(١) ديوانه ٨٧ ــ ٨٩ ، من قصيدة مطلعها :

عفا مِنْ سُلَيْمَى ذو سَديرٍ فغابرُ فحَرْسٌ فأعلامُ الدَّخولِ الصَّوادِرِ

(٢) الديوان والخزانة ٣ : ٢٤ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٦ : « أن السيف ذو السيف » .

(٣) رواية الديوان :

« سِوَى القَصْدِ لا أنقاد ، والإلف جائر »

تلك الخطوة قريبة للموت ، قال أبو سعد [1] المخزومىّ فى هذا المعنى :

رُبَّ نارٍ رفعتها ودُجى اللَّيـــل على الأرضِ مُسْبِلُ الطَّيْلَسان
وأمُونٍ نحرتُهـــا لضيوفٍ وألوفٍ نقدتُهنّ لجـــانى [2]
وحروبٍ شهدتُها جامع القلـــب فلم تنكر الكُماة مكانى
وإذا ما الحسام كان قصيراً طوّلتْه إلى العــدوّ بنانى

من الناس من يرويها فى ديوانه « لجانى » بالجيم ؛ أى جنت الجناية عنه ، ومنهم من يرويها بالحاء ، بمعنى الخمّار .

ومن المعنى المذكور أوّلاً قولُ بعض الشعراء ، يمدح صخر بن عمرو بن الشريد الأسلمىّ :

إنّ ابنَ عمرو بن الشَّريـــدِ له نجـــارٌ لا يرامُ
وحِجاً إذا عُــدِمَ الحجا ونَدًى إذا بَخِلَ الغمامُ
يصـــلُ الحسام بخطوهِ فى الرَّوع إن قصُر الحسامُ

ومثله قول الراجز :

يخطُو إذا ما قصُر العضْبُ الذَّكَرْ خطواً تَرَى منــه المنايا تبتدرْ

ومثله :

وإنا لقومٌ ما نرى القتلَ سُبَّةً إذا ما رأته عامرٌ وســلُولُ [3]
يقصِّر ذِكْرُ الموتِ آجالَنَا لنا وتـكرهُهُ آجالُهمْ فتطُولُ

ومنها :

وإن قصُرتْ أسيافُنا كان وَصْلُها خُطَانا إلى أعدائنـــا فتطولُ

---

(١) فى الأصول : « أبو سعيد » ، والصواب ما أثبته ، وانظر الموشح ٣٤٧ ، واللآلى ٥٧٨ ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ٢٩٥ .

(٢) الأمون : الناقة الموثقة الخلق .

(٣) السموءل ؛ ديوان الحماسة ١ : ١٢٢ — بشرح التبريزى .

ومثله قول وَدّاك بن ثميل المازنى :

مقاديمُ وَصّالون فى الرَّوْع خَطْوَهُمْ بكلّ رقيق الشَّفْرَتين يمانِى[1]

إذا استُنْجِدُوا لم يسألوا مَنْ دَعاهُمُ لأيّةِ حَرْبٍ أم بأىّ مكان

وقال آخر :

إذا الكُماة تنحَّوْا أن يصيبهمُ حَدّ السُّيوف وَصَلْناها بأيدينا[2]

وقال آخر :

وَصَلْنا الرِّقاق المرهفاتِ بخطونا على الهَوْل حتى أمكنتنا المضاربُ[3]

وقال بعض الرجاز :

الطّاعِنُون فى النُّحورِ والكُلَى والواصِلُونَ للسيوف بالخُطا[4]

قوله عليه السلام : « واعلموا أنكم بعين الله » أى يراكم ويعلم أعمالكم ، والباء هاهنا كالباء فى قوله : « أنت بمرأى منى ومسمع » .

قوله : « فعاودوا الكرّ » أى إذا كررتم على العدوّ كرّة فلا تقتصروا عليها ، بل كرّوا كرّة أخرى بعدها ، ثم قال لهم : « واستحيوا من الفرار ، فإنه عار فى الأعقاب » ، أى فى الأولاد ، فإنّ الأبناء يعيّرون بفرار الآباء . ويجوز أن يريد بالأعقاب جمع عَقِب ؛ وهو العاقبة وما يؤول إليه الأمر ، قال سبحانه : ﴿ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾[5] ، أى خير عاقبة ، فيعنى على هذا الوجه أنّ الفرار عارٌ فى عاقبة أمركم ، وما يتحدّث به الناس فى مستقبل الزمان عنكم .

ثم قال : « ونار يوم الحساب » ، لأن الفِرار من الزحف ذنب عظيم ، وهو عند

---

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ١٢٤ ، الأشباه والنظائر ١ : ١٢٠ .

(٢) من أبيات فى الحماسة ١ : ١٠٠ ـ بشرح المرزوقى ، ونسبها لبشامة بن جزء النهشلى .

(٣) الخزانة ٣ : ٢٤ ، ونسبه لرجل من بنى تميم ، وكذلك فى البيان والتبيين ٣ : ٢٦ .

(٤) الخزانة ٣ : ٢٤ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٦ ؛ من غير نسبة .

(٥) سورة الكهف ٤٤

أصحابنا المعتزلة من الكبائر ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾[1] ، والجهاد بين يدى الإمام ، كالجهاد بين يدى الرسول عليه السلام .

قوله عليه السلام : « وطيبوا عن أنفسكم نَفْساً » ، لمّا نصب « نفساً » على التمييز وحّده ، لأن التمييز لا يكون إلّا واحداً ، وإن كان فى معنى الجمع ، تقول : انعموا بالا ، ولا تضيقوا ذَرْعاً » وأبقى « الأنفس » على جمعها لَمّا لم يكُنْ به حاجة إلى توحيدها ، يقول : وطنُوا أنفسكم على الموت ولا تكرهوه ، وهوّنوه عليكم ، تقول : طِبْتُ عن مالى نَفْساً ، إذا هوّنت ذهابه .

وقوله : « وامشُوا إلى الموت مَشْياً سُجُحا » ؛ أى سهلا ، والسجاحة : السهولة ، يقال[2] : فى أخلاق فلان سَجاحة ، ومن رواه « سمحا » أراد سهلا أيضاً .

والسّواد الأعظم ، يعنى به جُمهور أهل الشام .

قوله : « والرّواق المطنّب » ، يريد به مضرب معاوية ذا الأطناب ، وكان معاوية فى مضرب عليه قُبّة عالية ، وحَوْلَه صناديد أهل الشام . وثبَجه : وَسَطه ، وثبج الإنسان : ما بين كاهله إلى ظهره .

والكِسْر : جانب الخباء . وقوله : « فإنّ الشيطان كامنٌ فى كِسْره » ، يحتمل وجهين ؛ أحدُهما : أن يعنىَ به الشيطان الحقيقىّ ، وهو إبليس ، والثانى : أن يعنىَ به معاوية . والثانى هو الأظهر للقرينة التى تؤيده ، وهى قوله : « قد قَدّم للوثبة يداً ، وأخّر للنكوص رجلا » ، أى إن جبنتم وثَب ، وإن شجعتم نَكَص ، أى تأخر وفرّ ؛ ومَنْ حمله على الوجه الأوّل جعله من باب المجاز ، أى أن إبليس كالإنسان الذى يعتوره دواعٍ مختلفة بحسب المتجدّدات ، فإن أنتم صدقتم عدوّكم القتال فرّ عنكم بفرار عدوكم ، وإن تخاذلتم وتواكلتم طمِع فيكم بطمعه ، وأقدم عليكم بإقدامه .

---

(١) سورة الأنفال ٨ (٢) ب : « تقول » .

وقوله عليه السلام : « فصَمْداً صمْداً » أى اصمدوا صمداً ، صمداً ، صمدت لفلان أى قصدت له .

وقوله : « حتى ينجليَ لـكم عمودُ الحق » ، أى يسطع نورُه وضوءه ،وهذا من باب الاستعارة . والواو فى قوله : « وأنتم الأعلوْن » واو الحال .

ولن يَتِرَكم أعمالـكم ، أى لن ينقصكم ، وهاهنا مضافٌ محـذوف تقديره : جزاء أعمالـكم ، وهو من كلام الله تعالى رَصّع به خطبتَه ، عليه السلام .

وهذا الكلام خَطَب به أميرُ المؤمنين عليه السلام فى اليوم الذى كانت عشيّته ليلة الهرير فى كثير من الروايات .

وفى رواية نصر[1] بن مزاحم أنّه خَطَب به فى أوّل أيام اللقاء والحرب بصِفّين،وذلك فى صفر من سنة سبع وثلاثين .

* * *

[من أخبار يوم صفين]

قال نصر: كان علىّ عليه السلام يركب بغلةً له يستلذّها[2] ،قبل أن يلتقى الفئتان بصِفّين ، فلما حضرت الحرب وبات تلك الليلة يعبّى الـكتائب حتى أصبح قال : ائتونى بفرس ، فأُتِىَ بفرس له ذَنُوب[3] أدهم ، يُقاد بشَطَنَيْن[4] ، يبحث الأرض بيديه جميعاً ، له حَمْحَمة

(١) فى كتاب وقعة صفين ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٢) وقعة صفين : « بغلا له يستلذه » .

(٣) الذنوب : الوافر الذنب .

(٤) فى اللسان ١٧ : ١٠٣ : « الشطن : الحبل ، وقيل : الحبل الطويل الشديدالفتل يستقى به وتشد به الخيل . . . وفى حـديث البراء : وعنـده فرس مربوطة بشطنين . . . وإنمـا شده بشطنين لقوته وشدته » .

وصهيل، فركبه ، وقال: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر الجعفي ، قال : كان على عليه السلام إذا سار إلى قتال ، ذكر اسم الله قبل[1] أن يركب ، كان يقول : الحمد لله على نعمه علينا وفضله : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [2] ثم يستقبل القبلة ، ويرفع يديه إلى السماء ويقول : اللهم إليك نقلت الأقدام ، وأتعبت الأبدان ، وأفضت القلوب ، ورفعت الأيدى ، وشخصت الأبصار : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ ﴾ [3] ، ثم يقول: سيروا على بركة الله ، ثم يقول: الله أكبر، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر ، يا الله يا أحد يا صمد ، يارب محمد ، اكفف عنا بأس[4] الظالمين : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بسم الله الرحمن الرحيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

قال : وكانت هذه الكلمات شعاره بصفين .

* * *

قال : وروى سعد بن طريف ، عن الأصبغ بن نباتة ، قال : ما كان على عليه السلام فى قتال إلا نادى : يا كهيعص .

قال نصر : وحدثنا قيس بن الربيع ، عن عبد الواحد بن حسان العجلى ، عمن حدثه أنه سمع عليا عليه السلام يقول يوم لقائه أهل الشام بصفين : اللهم إليك رفعت الأبصار ، وبسطت الأيدى ، ونقلت الأقدام ، ودعت الألسن ، وأفضت القلوب ، وتحوكم إليك فى الأعمال ، فاحكم بيننا وبينهم بالحق ، وأنت خير الفاتحين . اللهم إنا نشكو إليك غيبة

---

(١) ج . « حين » .
(٢) سورة الزخرف ١٣ ، ١٤
(٣) سورة الأعراف ٨٩
(٤) ج : « شر » .

نبينا ، وقِلّة عددنا ، وكثرة عدوّنا ، وتشتّت أهوائنا ، وشدّة الزمان ، وظهور الفِتن ، فأعنّا على ذلك بفتح منك تعجله ، ونصر تعزّ به سلطان الحق وتظهره(١) .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن سلّام بن سويد ، عن عليّ عليه السلام في قوله : « وألزمهم كلمة التقوى » ، قال : هي لا إله إلا الله ، وفي قوله : « الله أكبر » قال : هي آية النصر .

قال سلّام : كانت شعارَه عليه السلام يقولها في الحرب ، ثم يحمِل فيوردُ — والله — مَن اتّبعه ومن حادّه حياض الموت .

قال نصر : وحدّثنا(١) عمر بن سعد ، عن عبد الرحمن بن جُندب ، عن أبيه قال : لما كان غداة الخميس لسبع خَلَوْن من صفَر من سنة سبع وثلاثين ، صلى عليّ عليه السلام الغداة فغلّس ، ما رأيتُ عليًّا غلّس بالغَداة أشدّ من تغليسه يومئذ . وخرج بالناس إلى أهل الشام ، فزحف نحوهم ، وكان هو يبدؤهم فيسير إليهم ، فإذا رأوْه قد زَحَف استقبلوه بزحوفهم .

قال نصر : فحدثني(١) عمر بن سعد ، عن مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب ، قال : لما خرجَ عليّ عليه السلام إليهم غداة ذلك اليوم فاستقبلوه ، رفع يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم ربّ هذا السقف المحفوظ المكفوف ، الذي جعلته مُحيطا بالليل والنهار ، وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر ، ومنازل الكواكب والنجوم ، وجعلت سكّانه [سِبْطًا](٢) من الملائكة لا يسأمون العبادة ؛ وربّ هذه الأرض التي جعلتَها قرارا للأنام والهوامّ والأنعام ، وما لا يحصي مما يُرى وما لا يُرَى ؛ من خَلْقِك العظيم ؛ وربّ الفُلْك التي تجري في البحر المحيط(٣) بما ينفع الناسَ ؛ وربّ السحاب المسخّر بين السماء والأرض ؛ وربّ البحر

(١) صفين ٢٥٩ — ٢٦٢ . (٢) تكملة من صفين ، والسبط : الأمة

(٣) ساقطة من ج .

المسجور، المحيط بالعالمين ؛ وربَّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتادا ، وللخلق متاعاً؛ إن أظهرتَنا على عدوِّنا ، فجنِّبنا البغي ، وسدِّدنا للحق . وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة، واعصم بقيّة أصحابي من الفتنة .

قال : فلما رأوه قد أقبل تقدّموا إليه يزحفونهم[١] ، وكان على ميمنته يومئذ عبد الله ابن بُدَيل بن وَرْقاء الخزاعيّ ، وعلى ميسرته عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وقرّاء العراق مع ثلاثة نفر : عمار بن ياسر ، وقيس بن سعد بن عُبادة ، وعبد الله بن بُدَيل ؛ والناس على راياتهم ومراكزهم ، وعليّ عليه السلام في القلب في أهل المدينة ، جمهورهم الأنصار ، ومعه من خُزاعة ومن كنانة عدد حسن .

قال نصر: وكان عليّ عليه السلام رجلا[٢] رَبْعة ، أدعَج العينين ؛ كأن وجهه القمر ليلة البدر حسنا ، ضخم البطن، عريض المَسْرُبة[٣] ، شَثْن الكفين ، ضخم الكسور[٤] ، كأنّ عنقه إبريقُ فضة ؛ أصلع[٥] من خلفه شعر خفيف[٥] ، لمنكبه مُشاش[٦] كمُشاش الأسد الضاري، إذا مشى تكفّأ[٧] ومارَ به جسده ، ولظهره سَنام كسنام الثور لا يبين عَضُدُه من ساعده[٨] قد أُدْمِجَت إدماجا ، لم يمسك بذراع رجل قطّ إلا أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس ؛ [٩]ولونه إلى سمرة مّا ، وهو أذلف الأنف[٩] ، إذا مشى إلى الحرب هَرْوَل ، قد أيّده الله تعالى في حُروبه بالنصر والظفَر .

---

(١) صفين : « خرجوا إليه يزحفونهم » .
(٢) في صفين : « دحداحا » ؛ والدحداح : القصير .
(٣) المسربة : الشعر وسط الصدر إلى البطن .
(٤) شثن : غليظ ، والكسور : الأعضاء .
(٥ — ٥) صفين : « أصلع ، ليس في شعره إلا خفاف من خلفه » ، والخفاف ، بالضم : الخفيف .
(٦) المشاش بالضم : رؤوس العظام ؛ مثل المنكبين والمرفقين والركبتين .
(٧) تكفأ : تمايل . والمور : التحرك والمجيء والذهاب .
(٨) العضد : مابين المرفق في الكتف ؛ يذكر ويؤنث .
(٩ — ٩) صفين : « وهو إلى السمرة ، أذلف الأنف » ، والذلف : قصر الأنف وصغره .

قال نصر : ورفع معاوية قبّة عظيمة ، وألقى عليها الكرابيس [1] ، وجلس تحتها .

* * *

قال نصر [2] : وقد كان لهم قبل هذا اليوم أيام ثلاثة ، وهى الرابع من صفر هذا ، واليوم الخامس ، واليوم السادس ، كانت فيها مناوشات وقتال ، ليس بذلك الكثير ، فأما اليوم الرابع ، فإنّ محمد بن الحنفيّة عليه السلام ، خرج فى جَمْع من أهل العراق ، فأخرج إليه معاويةُ عبيدَ الله بن عمر بن الخطاب فى جَمْع من أهل الشام ، فاقتتلوا . ثم إن عبيد الله بن عمر أرسلَ إلى محمد بن الحنفيّة : أن اخرجُ إلىّ أبارزْك ، فقال : نعم ، ثم خرج إليه ، فبصُر بهما علىّ عليه السلام ، فقال : مَنْ هذان المتبارزان ؟ قيل : محمد بن الحنفيّة وعبيد الله بن عمر ، فحرّك دابته ، ثم دعا محمداً إليه ، فجاءه فقال : أمسِك دابتى ، فأمسكها ، فمشى راجلا بيده سيفُه نحو عبيد الله ، وقال له : أنا أبارزُك ، فهلم إلىّ ، فقال عبيد الله : لا حاجةَ بى [3] إلى مبارزتك ، قال : بلى ، فهلم إلىّ ، قال : لا أبارزُك ، ثم رجع إلى صَفّه ، فرجع علىٌّ عليه السلام ، فقال ابنُ الحنفيّة : يا أبتِ لم منعتَنى من مبارزته ؟ فو الله لو تركتنى لرجوتُ أن أقتله ! قال : يا بنىّ ، لو بارزته أنا لقتلتُه ، ولو بارزته أنت لرجوتُ لك أن تقتله ، وما كنتُ آمنُ أن يقتلك ، فقال : يا أبتِ أتبرز بنفسك إلى هذا الفاسق اللئيم عدوّ الله ! والله لو أبوه يسألُك المبارزة لرغبتُ بك عنه ، فقال : يا بنىّ لا تذكر أباه ، ولا تقلْ فيه إلا خيراً ، رحِمَ الله أباه !

* * *

قال نصر [4] : وأما اليوم الخامس ، فإنه خرج فيه عبدُ الله بن العباس ، فخرج إليه الوليد بن عُقبة ، فأكثر منْ سبّ بنى عبد المطلب [5] ، وقال : يا بن عباس : قطعتم

---

(١) الكرابيس : ضرب من الثياب ؛ فارسى معرب .

(٢) وقعة صفين ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٣) ج : « لى » .

(٤) وقعة صفين ٢٤٩ .

(٥) صفين : « فأخذ الوليد يسب بنى عبد المطلب »

أرحامَكم ، وقتلتم إمامكم ، فكيف رأيتم صُنْع الله بكم ! لم تُعطَوْا ما طلبتم ؛ ولم تدرِكوا ما أمّلتم ، والله ـ إن شاء ـ مُهلِكُكم ، وناصرنا عليكم . فأرسل إليه عبد الله ابن العباس : أنِ ابرُزْ إلىّ ، فأبى أن يفعل ؛ وقاتل ابنُ عباس ذلك اليوم قتالا شديدا ، ثم انصرفوا وكلٌّ غير غالب .

* * *

قال نصر : وخرج[١] فى ذلك اليوم شَمِر بن أبرهة بن الصباح الحِميرىّ ، فلحِق بعلىّ عليه السلام فى ناس من قراء أهل الشام ، ففتّ ذلك فى عَضُد معاوية وعمرو بن العاص ، وقال عمرو : يا معاوية ، إنّك تريد أن تقاتل بأهل الشام رَجُلاً له من محمد صلى الله عليه وسلم قرابة قريبة ، ورحِم ماسة ، وقدمٌ فى الإسلام لا يعتدّ أحد بمثله ، ونجدةٌ فى الحرب لم تكنْ لأحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنه قد سار إليك بأصحاب محمد المعدودين وفرسانهم وقُرّائهم وأشرافهم وقدمائهم فى الإسلام ؛ ولهم فى النفوس مهابة ، فبادر بأهل الشام مخاشن الأوعار ، ومضايق الغِياض ، واحمِلْهم على الجَهْد ، وائتهم من باب الطمع قبل أن ترفّههم فيحدث عندهم طولُ المقام مللاً ، فتظهر فيهم كآبة الخِذلان . ومهما نسيتَ فلا تنسَ أنّك على باطل ؛ وأن عليًّا على حقّ ، فبادر الأمر قبل اضطرابه عليك .
فقام معاوية فى أهل الشام خطيبا ، فقال :

أيها الناس : أعيرونا جماجِمكم وأنفسكم ، لا تفتتلوا[٢] ولا تتجادلوا ؛ فإن اليومَ يوم خِطَارٍ ، ويوم حقيقة وحفاظ ؛ إنكم اهل حق ، وبأيديكم حُجّة ، إنما تقاتلون مَنْ نكث البيعة ، وسَفَك الدم الحرام ؛ فليس له فى السماء عاذِر[٣] .

قدّموا أصحاب السلاح المستلئمة ، وأخِّروا الحاسر ، واحملوا بأجمعكم ، فقد بلغ الحقُّ مقطعه[٤] ، وإنما هو ظالم ومظلوم .

---

(١) صفين : ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٢) صفين : « لاتفشلوا ولا تخاذلوا » .

(٣) فى صفين بعد هذا الكلام : « ثم صعد عمرو بن العاص مرقاتين من المنبر ؛ فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ؛ قدموا المستلئمة . . . » ؛ فكأنهما خطبتان ؛ الأولى لمعاوية ، والثانية لعمرو .

(٤) ج : « مبلغه » .

قال نصر : وخطب علي عليه السلام أصحابه فيما حدثنا به عمر بن سعد ، عن أبي يحيى ، عن محمد بن طلحة ، عن أبي سنان ، عن أبيه قال: كأني أنظر إليه متوكئا على قوسه ، وقد جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عنده ، فهم يلونه ، كأنه أحب أن يعلم الناس أن الصحابة متوافرون معه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

أما[1] بعد ، فإن الخيلاء من التجبر[1] ، وإن النخوة من التكبر ، وإن الشيطان عدو حاضر ، يعدكم الباطل ؛ ألا إن المسلم أخو المسلم ، فلا تنابذوا ولا تخاذلوا . ألا إن شرائع الدين واحدة ، وسبله قاصدة ، من أخذ بها لحق ، ومن فارقها محق ، ومن تركها مرق . ليس المسلم بالخائن إذا ائتمن ، ولا بالمخلف إذا وعد ، ولا بالكذاب إذا نطق . نحن أهل بيت الرحمة ، وقولنا الصدق ، وفعلنا القصد[2] ، ومنا خاتم النبيين ، وفينا قادة الإسلام ، وفينا حملة الكتاب . ألا إنا ندعوكم إلى الله وإلى رسوله ، وإلى جهاد عدوه والشدة في أمره ، وابتغاء مرضاته ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصيام شهر رمضان ، وتوفير الفيء على أهله[3] ألا وإن من أعجب العجائب أن معاوية بن أبي سفيان الأموي وعمرو بن العاص السهمي ، أصبحا يحرضان الناس على طلب الدين بزعمهما ، ولقد علمتم أني لم أخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، ولم أعصه في أمر ، أقيه بنفسي في المواطن التي ينكص فيها الأبطال ، وترعد فيها الفرائص ، بنجدة[4] أكرمني الله سبحانه بها ، وله الحمد . ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن رأسه لفي حجري ، ولقد وليت غسله بيدي وحدي ، تقلبه الملائكة المقربون معي . وايم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها ، إلا ما شاء الله .

(١ — ١) صفين : « أيها الناس ، اسمعوا مقالتي ، وعوا كلامي ، فإن الخيلاء من التجبر » .

(٢) كذا في أ ، ج وصفين : وفي ب : « الفضل » .

(٣) صفين : « لأهله » .

(٤) صفين : « نجدة » .

قال أبو سنان الأسلمي : فأشهد لقد سمعت عمار بن ياسر، يقول للناس: أما أمير المؤمنين فقد أعلمكم أن الأمة لم تستقم عليه أولا ، وأنها لن تستقيم عليه آخرا .

قال : ثم تفرق الناس ، وقد نفذت أبصارهم في قتال عدوهم ، فتأهبوا واستعدوا[١] .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب[٢] أن عليا عليه السلام، قال في هذه الليلة : حتى متى لا نناهض القوم بأجمعنا ! ثم قام في الناس فقال: الحمد لله الذي لا يبرم ما نقض ، ولا ينقض ما أبرم ، ولو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة ولا من خلقه ، ولا تنازع[٣] البشر في شيء من أمره ، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله . وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار ، حتى لفت بيننا في هذا الموضع ، ونحن من ربنا بمرأى ومسمع ، ولو شاء لعجل النقمة، ولكان منه النصر ، حتى يكذب الله الظالم، ويعلم الحق أين مصيره . ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، والآخرة دار الجزاء والقرار ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[٤] . ألا إنكم لاقو العدو غدا إن شاء الله ، فأطيلوا الليلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله الصبر والنصر ، والقوهم بالجد والحزم ، وكونوا صادقين .

قال : فوثب الناس إلى رماحهم وسيوفهم ونبالهم يصلحونها ، وخرج عليه السلام فعبى الناس ليلته تلك كلها حتى أصبح ، وعقد الألوية، وأمر الأمراء ، وكتب الكتائب، وبعث إلى أهل الشام مناديا نادى[٥] فيهم : اغدوا على مصافكم. فضج أهل الشام في معسكرهم، واجتمعوا إلى معاوية فعبى خيله ، وعقد ألويته، وأمر أمراءه ، وكتب كتائبه ، وأحاط به أهل حمص في راياتهم، وعليهم أبو الأعور السلمي ، وأهل الأردن في راياتهم، عليهم عمرو بن العاص، وأهل قنسرين وعليهم زفر بن الحارث الكلابي ، وأهل دمشق ـ وهم القلب ـ

---

(١) صفين ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٢) صفين : « يزيد بن وهب » .

(٣) صفين : « ولا تنازعت الأمة » .

(٤) سورة النجم ٣١ .

(٥) ج : « ينادي » .

وعليهم الضحاك بن قيس الفِهْرِىّ ، فأطافوا كلهم بمعاوية ، وكان أهل الشام أكثر من أهل العراق بالضِّعف ، وسار أبو الأعور وعمرو بن العاص ومَنْ معهما ؛ حتى وقفا بحيال أهل العراق ، فنظرا إليهم ،واستقلّا جمعهم ، وطمِعا فيهم ، ونُصب لمعاوية منبر ؛ فقعد عليه في قبة ضربها ، ألقى عليها الثياب والأرائك ، وأحاط به أهلُ يَمنٍ ، وقال : لا يقربنّ هذا المنبر أحد لا تعرفونه إلا قتلتموه كائنا مَنْ كان[1] .

قال نصر : وأرسل عمرو إلى معاوية : قد عرفت مابيننا من العهد والعَقْد : فاعصِبْ برأسي هذا الأمر ، وأرسِل إلى أبي الأعور فنحّه عني ، ودعني والقوم ؛ فأرسل معاوية إلى أبي الأعور أنّ لأبي عبد الله رأيا وتجرِبة ليست لي ولا لك ، وقد ولّيته أعنة الخيل ، فسِرْ أنت حتى تقف بخيلك على تلّ كذا ودعه والقوم .

فسار أبو الأعور ، وبقي عمرو بن العاص فيمن معه واقفا بإزاء عسكر العراق ،فنادى عمرو ابنَيْه : عبد الله ومحمدا ، فقال لهما : قدّما هؤلاء الدُّرَّع ، وأخّرا هؤلاء الحُسَّر ؛ وأقيما الصَّفَّ قَصَّ الشارب ؛ فإن هؤلاء قد جاءوا بخطة قد بلغت السماء .

فمشيا برايتهما ، فعدّلا الصفوف ، وسار بينهما عمرو فأحسن الصفّ ثانية ،ثم حمل قيسا وكليبا وكنانة على الخيول ، ورجّل سائر الناس[2] .

* * *

قال نصر : وبات[3] كعب بن جعيل التغلبيّ، شاعر أهل الشام تلك الليلة يرتجز وينشد :

أصبحتِ الأمـــــة في أمرٍ عَجَبْ   والمُلكُ مجموعٌ غـــــداً لمن غَلَبْ[1]

أقولُ قولًا صادقا غيرَ كَذِبْ   إنّ غـــدا يهلِكُ أعلامُ العَرَبْ

غـداً نُلاقِى ربّنـــا فنحتسِبْ   غـداً يصيرون رماداً قد ذَهَبْ

(١) صفين : ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(٢) صفين ٢٥٤ .

(٣) صفين ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

بعــد الجمال والحياء والحسبْ   يارب لاتُشمِتْ بنا ولاتُصِبْ

* مَنْ خَلَعَ الأنداد طُرًّا والصُّلُبْ *

* * *

قال نصر : وقال[1] معاوية : مَنْ فى ميسرة أهل العراق ؟ فقيل : ربيعة ، فلم يجد فى الشام ربيعة ، فجاء بحِميَر ، فجعلها بإزاء ربيعة على قرعــة أقرعها بين حِمْيَر وعَكّ ، فقال ذو الكَلاع الحِميرىّ : باستك مِنْ سَهْمٍ [لم تَبْغِ الضِّراب][2] ! كأنّه أنِف عن أن تكون حمير بإزاء ربيعة ، فبلغ ذلك جُحدرا[3] الحنفىّ ، فحلف بالله إن عاينه ليقتلنّه أو ليموتَنّ دونه ، فجاءت حمير حتى وقفت بإزاء ربيعة، وجعل السَّكاسك والسَّكون بإزاء كندة ، وعليهما الأشعث بن قيس، وجعل بإزاء هَمْدَان العراق الأزد ، وبإزاء مذحِج العراق عَــكًّا.

وقال راجز من أهل الشام :

ويلٌ لأمِّ مَذْحِجٍ مِنْ عَكِّ   وأمهم قائمــة تُبَــكِّى

نَصُكُّهم بالسيف أىَّ صَكِّ   فلا رجالَ كرجالِ عكِّ

قال : وطرحت عكٌّ حَجَرا بين أيديهم ، وقالوا : لانفرّ حتى يفرّ هــذا الحَــكَر (بالكاف) ــ وعَكّ تقلب الجيم كافا ــ وصفّ القلب خمسة صفوف ، وفعل أهل العراق أيضا مثل ذلك ، ونادى عمرو بن العاص بأعلى صوته :

يأيّها الجند الصليبُ الإيمانْ[4]   قوموا قيــاماً واستعينوا الرّحمنْ

إنى أتانِى خــبرٌ ذو ألوانْ[5]   أنّ عليــا قتل ابنَ عفّــانْ

* رُدّوا علينا شيخَنا كما كانْ *

---

(١) صفين ص ٢٠٥ ـ ٢٠٨

(٢) من صفين

(٣) صفين : « الجحدف الحنفى » .

(٤) ج : « العظيم الإيمان » .

(٥) صفين « خبر فأشجان » .

فردّ عليه أهل العراق وقالوا :

أبتْ سيوف مذحِج وهَمْدَانْ   بأنْ تردَّ نعثَلًا كما كانْ[١]

خَلْقًا جديدًا مثلَ خَلْق الرحمٰن   ذلك شأنٌ قد مَضى وذا شانْ

ثم نادى عمرو بن العاص ثانية برفع صوته[٢] :

ردّوا علينا شيخَنَا ثم بَجَلْ[٣]   أولا تكونوا جزرًا من الأسَلْ[٤]

فردّ عليه أهل العراق :

كيف نردّ نعثلًا وقد قحلْ[٥] !   نحن ضربنا رأسه حتى انجفَلْ[٦]

وأبدلَ الله به خيرَ بَدَلْ   أعلمَ بالدّين وأزكى بالعَمَلْ[٧]

وقال إبراهيم بن أوس بن عبيدة من أهل الشام :

لله درّ كتائب جاءتكمُ   تبكي فوارسُها على عثمانِ

تسعون ألفًا ليس فيهم قاسطٌ[٨]   يتلون كلّ مفصَّلٍ ومثانِ

يسلون حقّ الله لا يعدونه   ويجيبكم للملك والسلطانِ

فأتوا ببيّنة على ماجئتمُ   أولا فحسبكمُ من العدوانِ

وأتوا بما يمحو قصاص خليفةٍ[٩]   لله ، ليس بكاذب خوّانِ

---

(١) نعثل : رجل من أهل مصر ، كان طويل اللحية وكان عثمان إذا نيل منه وعيب ؛ شبه بهذا الرجل المصري لطول لحيته . اللسان ١٤ : ١٣١

(٢) صفين : « وصاح رجل من أهل الشام » .

(٣) بجل ، بمعنى حسب .

(٤) الجزر : قطع اللحم تأكله السباع .

(٥) قحل ؛ أي مات وجف جلده .

(٦) انجفل : سقط وانقلب .

(٧) صفين :

• أقدم فالحربِ وانكَى فالطلْ •

(٨) صفين : « سبعون ألفا » . ح : « ليس منهم » .

(٩) صفين : « فأتوا » .

قال نصر : وبات عليٌّ عليه السلام ليلته يعبّي الناس حتى إذا أصبح زحف بهم ، وخرج إليه معاوية في أهل الشام لجعل يقول : مَنْ هذه القبيلة ؟ ومَنْ هذه القبيلة ؟ يعني قبائل أهل الشام ،فيسمّوْن له حتى إذا عرفهم ، وعرَف مراكزهم[1] قال للأزد : اكفوني الأزد ، وقال لخثعم : اكفوني خثعما ، وأمر كلَّ قبيلة من العراق أن تكفيَه أختها من أهل الشام ، إلا قبيلة ليس منهم بالعراق إلا القليل مثل بَجيلة ، فإن لخماً كانت بإزائها . ثم تناهضَ القوم يوم الأربعاء سادس صفر واقتتلوا إلى آخر نهارهم ، وانصرفوا عند المساء ، وكلٌّ غير غالب .

قال نصر : فأمّا اليوم السابع فكان القتال فيه شديدا ، والخطب عظيما؛ وكان عبدالله ابن بُديل الخزاعيّ على ميمنة العراق ، فزحف نحو حبيب بن مسلمة ، وهو على ميسرة أهل الشام ؛ فلم يزل يحوزُه ويكشف خيله حتى اضطرّهم إلى قُبّة معاوية وقت الظهر .

* * *

قال نصر : فحدّثنا[2] عمر بن سعد ، قال : حدّثنا مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب ، أنّ عبد الله بن بُدَيل قام في أصحابه فخطبهم فقال : ألا إنّ معاوية ادّعى ماليس له ، ونازع الأمر أهلَه ومن ليس مثله ؛ وجادل بالباطل ليُدحِض به الحقّ ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب ، وزيّن لهم الضّلالة ، وزرَع في قلوبهم حُبّ الفتنة ، ولبّس عليهم الأمور ، وزادهم رِجْساً إلى رجسهم ، وأنتم ـ والله ـ على نور وبرهان [مبين][3] قاتلوا الطغاة[4] الجفاة ، قاتلوهم ولا تخشوْهم ، وكيف تخشوْنهم ، وفي أيديكم كتاب من ربكم ظاهر مبين[5] : ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ

(١) ج : « سوادهم » .
(٢) وقعة صفين ٢٦٣ .
(٣) من صفين .
(٤) صفين « الطغام » .
(٥) صفين : « ظاهر مبرور » .

وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ [١] ، لقد قاتلتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ والله[٢] ماهُم فى هذه بأزكى، ولا أتقى، ولا أبرّ؛ انهضوا[٣] إلى عدوّ الله وعَدُوّكم [٤] .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد، قال : حدّثنى عبدالرحمن ، عن أبى عمرو، عن أبيه، أنّ عليا عليه السلام خطب فى ليلة هذا اليوم ، فقال: معاشرَ المسلمين ؛ استشعِرُوا الخشية، وتجلببُوا السكينة، وعَضّوا على النواجذ، فإنه أنبى للسيوف عن الهام ... » ، الفصل بطوله إلى آخره ؛ وهو المذكور فى الكتاب .

وروى نصر أيضا بالإسناد المذكور أنّ عليا عليه السلام خطب ذلك اليوم ، وقال : أيها الناس ؛ إنّ الله تعالى ذِكْره ، قد دلّكم على تجارة تُنجيكم من العذاب ، وتُشفى بكم على الخير : إيمانٌ بالله ورسوله ، وجهاد فى سبيله؛ وجعلَ ثوابه مغفرة الذنوب ، ومساكن طيبة فى جناتِ عدن، ورضوانٌ من الله أكبر؛ وأخبركم بالذى يحبّ فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ [٥] ؛ فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدّموا الدارع ، وأخّروا الحاسر، وَعَضّوا على الأضراس ؛ فإنه أنبى للسيوف من الهام ، وأربط للجأش؛ وأسكن للقلوب . وأميتوا الأصوات ؛ فإنه أطرد للفشل، وأولى بالوَقار، والتوُوا فى أطراف الرماح، فإنه أمْوَر[٦] للأسنّة، ورايتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها، ولا تجعلوها إلّا بأيدِى شجعانكم المانعى الذِّمار ، والصُّبُر عند نزول الحقائق، أهلِ الحفاظ،

---

(١) سورة التوبة ٣ ، ٤
(٢) صفين : « وقد قاتلتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم مرة ، وهذه ثانية » .
(٣) صفين : « قوموا » .
(٤) صفين ٢٦٣ ، ٢٦٤ . (٥) سورة الصف ٤
(٦) أمور ؛ من المور وهو الاضطراب ؛ وفى الطبرى : « أصول للأسنة »

الذين يحفّون برايتكم ويكتنفونها[1]، يصبر بون خلفها وأمامها،ولا تضيّعوها . أجزأ كلّ امرئٍ [وَقَذَ [2]] قِرْنه ، وواسى أخاه بنفسه، ولم يَكِلْ قِرْنَه إلى أخيه، فيجمع عليه قِرْنه وقِرْن أخيه،فيكسب بذلك من الإثم[3]،ويأتى بهدناءة،أنّى هذا،وكيف يكون هكذا ![4] هذا يقاتل اثنين ، وهذا ممسك يدَه ، قد خلّى قِرْنه إلى أخيه ، هاربا منه ، أو قائما ينظر إليه ! من يفعل هذا يمقته الله ، فلا تعرّضوا لمقت الله ، فإنما مردّكم إلى الله ، قال الله تعالى لقوم عابهم: ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[5] ؛ وايمُ الله لئن فررتم من سيفِ العاجلة لا تسلمون من سيف الآخرة ، استعينوا بالصّدق والصبر ؛ فإنه بعد الصبر ينزل النصر[6] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شِمر ، عن جابر ، عن الشعبيّ ، عن مالك بن قُدامة الأرحبيّ ، قال : قام سعيد بن قيس يخطب أصحابه بقُناصرين فقال : الحمد لله الذى هدانا لدينه ، وأورثنا كتابه ، وامتنّ علينا بنبيه ، فجعله رحمةً للعالمين ، وسيداً للمرسلين، وقائدا للمؤمنين ، وخاتما للنبيين ؛ وحُجّة الله العظيم على الماضين والغابرين ؛ ثم كان فيما قضى الله وقدّره ــ وله الحمدُ على ما أحببنا وكرهنا ــ أن ضمّنا وعدوّنا بقُناصرين، فلا يجمل بنا اليوم الحياص[7] وليس هذا بأوانِ انصراف ، ولات حين مناص ؛ وقد خصّنا الله منه برحمة لا نستطيع أداء شكرها ، ولا نقدر قدرها؛ إن أصحاب محمد المصطفَيْن الأخيار معنا،

(١) صفين : « يكتنفونها » .
(٢) تكملة من صفين .
(٣) صفين : « اللائمة » .
(٤) صفين . « وأنى لا يكون هذا هكذا » .
(٥) سورة الأحزاب ١٦ .
(٦) صفين ٢٦٤ ، ٢٦٥ .
(٧) صفين : « فلا يحمد بنا اليوم الحياص » ، والحياص : الفرار والهرب .

وفى حَيِّز ، فو الله الذى هو بالعباد بصير ؛ أن لو كان قائدُنا رجلا مجدَّعاً ، إلّا أنّ معنا من البدريّين سبعين رجلا لـكان ينبغى لنا أن تحسن بصائرنا ، وتطيب أنفسنا ؛ فـكيف وإنما رئيسنا ابن عمّ نبيّنا ، بدرىٌّ صِدْق ، صلّى صغيرا ، وجاهد مع نبيـكم كثيرا ، ومعاوية طَلِيق من وِثاق الإسار [وابن طليق][1] . ألا إنه أغوى جفاة فأوردهم النار ، وأوردهم العار ، والله محِلّ بهم الذلّ والصَّغار . ألا إنـكم ستلقون عدوّكم غدا ، فعليـكم بتقوى الله ؛ من الجدّ والحزم ، والصِّدق والصبر ؛ فإن الله مع الصابرين . ألا إنـكم تفوزون بقتلهم ، ويشقَوْن بقتلـكم ؛ والله لا يقتلُ رجلٌ منـكم رجلًا منهم إلا أدخل الله القاتل جنات عدنٍ ، وأدخل المقتول نارا تلظّى ﴿ لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيـه مبلِسون ﴾[2] عصمنا الله وإياكم بما عصم به أولياءه ؛ وجعلنا وإياكم ممن أطاعه واتقاه ؛ وأستغفرِ الله العظيم لى ولـكم وللمؤمنين .

ثم قال الشعبىّ : ولقد صدَّق فعلُه ما قال فى خطبته[3] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن أبى جعفر وزيد بن الحسن ، قالا : طلب معاويةُ إلى عمرو بن العاص أن يسوِّى صفوفَ أهل الشام ، فقال له عمرو : عَلَى أنّ لى حُكْمى إن قتَل الله ابن أبى طالب ، واستوثقت لك البلاد ! فقال : أليس حُـكْمك فى مصر ! قال : وهل مصر تـكون عِوَضاً عن الجنة ، وقتل ابن أبى طالب ثمناً لعذاب النار الذى ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ[2] ﴾ ! فقال معاوية : إنّ لك حكمَك أبا عبد الله إن قتِـلَ ابن أبى طالب . رُويداً لا يسمع أهل الشام كلامك . فقام عمرو

---

(١) من صفين

(٢) سورة الزخرف ٧٥ .

(٣) صفين ٢٦٦ ، ٢٦٧

فقال : معاشرَ أهل الشام ! سَوُّوا صفوفَكم قصَّ الشارب ، وأعيرونا[١] جماجكم ساعة ، فقد بلغ الحقُّ مقطعه ، فلم يبق إلا ظالم أو مظلوم .

***

قال نصر : وأقبل أبو الهيثم بن التَّيهان وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بدريًّا نقيبا عقبيًّا ؛ يسوِّى صفوف أهل العراق ، ويقول : يا معشرَ أهل العراق[٢] ، إنه ليس بينكم وبين الفتح فى العاجل ، والجنة فى الآجل إلاَّ ساعة من النهار ؛ فأرسُوا أقدامَكم ، وسوُّوا صفوفكم ، وأعيروا ربَّكم جماجكم ، استعينوا بالله إلهكم ؛ وجاهدوا عدوَّ الله وعدوكم ، واقتلوهم قتلهم الله وأبادهم ! واصبروا فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين[٣] .

***

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن الفضل بن أدهم ، عن أبيه أنَّ الأشتر قام يخطب الناس بقُناصرين ، وهو يومئذ على فَرَسٍ أدهم ، مثل حَلَك الغراب ، فقال :

الحمد لله الذى خلق السموات العُلى ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾[٤] ، أحمده على حُسن البلاء ، وتظاهر النعماء حَمْداً كثيراً ، بُكرةً وأصيلا ، مَنْ هداه الله فقد اهتدى ، ومن يُضلِلْ فقد غَوَى ، أرسل محمد بالصواب والهدى ؛ فأظهره على الدِّين كله ولو كره المشركون ، صلى الله عليه وسلم . ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدَّر أن ساقتنا المقادير إلى أهل هذه البلدة من الأرض ، فلفَّت بيننا وبين عدوِّ الله وعدوِّنا ، فنحن بحمد الله ونعمه ، ومنِّه وفضله ، قريرةٌ أعيننا ، طيّبة أنفسنا ، نرجو بقتالهم حسنَ الثواب ، والأمنَ من العقاب ؛ معنا ابن عمِّ نبينا ، وسيفٌ من سيوف الله علىٌّ بن أبى طالب ؛ صلَّى مع رسول الله ، لم يسبقه إلى الصلاة

(١) صفين : « وأعيروا ربكم جماجكم » . (٢) ح : « يامعشر المسلمين » .
(٣) صفين ٢٦٢ . (٤) سورة طه ٥ ، ٦ .

ذَكَرٍ حتى كان شيخا ، لم تكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة ولا سقطة ؛ فقيه فى دين الله تعالى ، عالم بحدود الله ، ذو رأى أصيل ، وصبر جيل ، وعَفاف قديم ؛ فاتقوا الله وعليكم بالحزم والجدّ ، واعلموا أنكم على الحقّ ، وأنّ القوم على الباطل؛إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البَدْريِّين،قريب من مائة بدرىّ،سوى مَنْ حولكم من أصحاب محمد،أكثر مامعكم[1] رايات قد كانت مع رسول الله ، ومع معاوية رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله، فما[2] يشكّ فى قتال هؤلاء إلا ميّت القلب ؛ أنتم على إحدى الحسنَيَيْن ؛ إمّا الفتح وإمّا الشهادة ، عَصَمنا الله وإياكم بما عَصَم به من أطاعه واتقاه ؛ وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه ؛ وأستغفر الله لى ولكم[3] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر، عن جابر ، عن الشعبىّ، عن صعصعة بن صُوحان، عن زامل بن عمرو الجُذَامىّ ؛ قال : طلب معاوية إلى ذى الكلاع أن يخطب الناس ويحرّضهم على قتال علىّ عليه السلام ومَنْ معه من أهل العراق ، فعقَد فرسه ؛ وكان من أعظم أصحاب معاوية خطرا ، وخطب الناس ، فقال :

الحمد لله حمدا كثيرا، ناميا واضحاً منيرا ، بكرة وأصيلا، أحمده وأستعينه،وأومن به، وأتوكّل عليه،وكفى بالله وكيلا ؛ وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله ؛ أرسله بالفرقان إماما،وبالهدى ودين الحقّ ، حين ظهرت المعاصى، ودَرَست الطاعة ، وامتلأت الأرضُ جَوْراً وضلالة ؛ واضطرمت الدنيا نيرانا وفتنة ، ووَرَكَ[4] عدوّ الله إبليس ، على أن يكون قد عبد فى أكنافها ، واستولى على جميع أهلها؛ فكان محمد صلى الله عليه وسلم هو الذى أطفأ الله به نيرانها،ونزع به أوتادها ؛ وأوهَن به

(١) ج : « بعلم » .
(٢) فى الأصول : « من » وصوابه من صفين .
(٣) صفين ٢٦٧ ، ٢٦٨
(٤) ورك : أقام .

قُوَى إبليس وآيسه مما كان قد طمع فيه من ظفره بهم، وأظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ثم كان من قضاء الله أن ضمّ بيننا وبين أهل ديننا بصفّين ؛ وإنا لنعلم أنّ فيهم قوماً قد كانت لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقة ذات شأن وخطر عظيم ؛ ولكنى ضربت الأمر ظهراً وبطناً ، فلم أر يسَعُنِي أن يُهدَرَ دمُ عثمان صهر نبيّنا صلى الله عليه وسلم ، الذى جهّز جيش العُسْرة ، وألحقَ فى مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتاً،وبنى سقاية ؛ بايع له نبىّ الله بيده ليمنى على اليسرى؛واختصّه بكريمتيه:أم كلثوم ورقية ؛ فإن كان قد أذنب ذنبا فقد أذنبَ مَنْ هو خير منه ، قال الله سبحانه لنبيه : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[1]؛وقتل موسى نفسا ، ثم استغفر الله فغفر له ؛ وقد أذنب نوح ، ثم استغفر الله فغفر له ، وقد أذنب أبوكم آدم ، ثم استغفر الله فغفر له،ولم يبرّ أحدُكم من الذنوب؛وإنا لنعلم أنه قد كانت لابن أبى طالب سابقة حسَنة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن لم يكن مالأعلى قتل عثمان فلقد خذَله،وإنه لأخوه فى دينه وابنُ عمه وسِلْفُه وابن عمته،ثم قد أقبلوا من عراقهم حتى نزلوا شامَكُم ،وبلادكم وبيضتكم ؛ وإنما عامّتهم بين قاتل وخاذل،فاستعينوا بالله واصبروا ، فلقد ابتليتم ـ أيتها الأمة ـ ولقد رأيت فى منامى فى ليلتى هذه،لكأنّا وأهل العراق اعتورْنا مصحفا نضربه بسيوفنا ؛ ونحن فى ذلك جميعا تنادى : ويحكم الله ! ومع أنّا والله لانفارقُ العَرْصة حتى نموت؛فعليكم بتقوى الله؛ولتكن النيّات لله ، فإنى سمعت عمر بن الخطاب يقول:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما يُبعث المقتتلون على النّيات » ؛ أفرغ الله علينا وعليكم الصبر ؛ وأعزّ لنا ولكم النصر ؛ وكان لنا ولكم فى كلّ أمر ، وأستغفر الله لى ولكم[2] .

* * *

(١) سورة الفتح ٢
(٢) صفين ٢٦٩ ، ٢٧٠

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن ابن عامر[١] ، عن صَعْصعة العبدىّ ، عن أبرهة ابن الصباح ، قال : قام يزيد بن أسد البَجلىّ فى أهل الشام يخطُب الناس بصِفّين ، وعليه قَباء من خزّ ، وعمامة سَوْداء ، آخذا بقائم سيفه ، واضعاً نَصْل[٢] السّيف فى الأرض ، متوكّئاً عليه . قال صعصعة : فذكر لى أبرهة أنه كان يومئذ من أجمل العرب وأكرمها وأبلغها ، فقال :

الحمدُ لله الواحدِ الفَرْد ؛ ذى الطَّوْل والجلال ، العزيز الجبّار ، الحكيم الغفار ، الكبير المتعال ؛ ذى العطاء والفعال ، والسّخاء والنوال ، والبهاء والجمال ، والمنّ[٣] والإفضال ، مالك اليوم الذى لا بَيْع فيه ولا خِلال ؛ أحمَدُه على حُسْن البلاء ؛ وتظاهرِ النعماء ، وفى كلّ حالٍ من شدة أو رخاء . أحمدُه على نِعمَه التؤام ، وآلائه العِظام ، حَمْداً يستنير[٤] بالليل والنهار . وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له ، كلمة النّجاة فى الحياة ؛ وعند الوفاة ؛ وفيها الخلاص يوم القِصاص ؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، النبىّ المصطفى ، وإمامُ الهدى ؛ صلى الله عليه وسلم . ثم كان من قضاء[٥] الله أن جَمَعنا وأهلَ دينِنا فى هذه الرُّقعة من الأرض ، والله يعلم أنى كنتُ كارهاً لذلك ولكنهم لم يبلعونا رِيقَنا ، ولم يتركونا نَرتادُ لأنفسنا ، وننظرُ لمعادنا ؛ حتى نزلوا بين أظهرنا ، وفى حَريمنا وبَيْضتنا . وقد علمنا أن فى القوم أحلاماً وطَغَاماً ، ولسنا نأمَنُ من طَغَامهم على ذرارينا ونسائنا ؛ ولقد كنّا نحبُّ ألّا نقاتل أهلَ ديننا ، فأخرجُونا حتى صارت الأمور إلى أنْ قاتلناهم غداً حَمِيّة[٦] فإنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين !

(١) هو عامر بن شراحيل الشعبى .
(٢) صفين : « نعل السيف » .
(٣) ح : « والمنّ » .
(٤) صفين : « قد استنار » .
(٥) صفين : « بما قضى » .
(٦) صفين : « كراهية » .

أما والذى بعثَ محمداً بالرسالة ، لوددْتُ أنى مِتُّ منذ سنة ؛ ولـكنَّ الله إذا أرادَ أمراً لم يستطع العبادُ ردَّه ، فنستعين بالله العظيم ، وأستغفر الله لى ولـكم[١] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، عن أبى رَوْق الهمْدانىّ أن يزيد بن قيس الارحبىّ ، حرَّض أهلَ العراق بصِفِّين يومئذ ، فقال . إن المسلم [السليم][٢] مَنْ سَلِم دينُه ورأيه ، وإنّ هؤلاء القوم ـ والله ـ ما إنْ يقاتلوننا على إقامة دين رأوْنا ضيَّعناه ، ولا على إحياء حق رأوْنا أمتْناه ؛ ولا يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا ، ليـكونوا فيها جبابرةً وملوكا ؛ ولو ظهرُوا عليـكم ـ لا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً ـ إذاً لو لِيَـكم[٣] مثلُ سعيد والوليد وعبد الله[٤] بن عامر السفيه ، يحدِّث أحدُهم فى مجلسه بذَيْت وذَيْت[٥] ، ويأخذُ مال الله ويقول : لا إثم علىَّ فيه ؛ كأنما أعطِى تُراثَه من أبيه ، كيفَ ! إنما هو مالُ الله ، أفاءه علينا بأسيافِنا ورماحنا ؛ قاتلوا عبادَ الله القومَ الظالمين ، الحاكمين بغير ما أنزل الله ، ولا تأخذكم فيهم[٦] لومة لائم ، إنهم إن يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينـكم ودنياكم ؛ وهم مَنْ قد عرفتم وجرَّبتم ؛ والله ما أرادوا باجتماعهم عليكم إلا شرًّا ؛ وأستغفر الله العظيم لى ولـكم[٧] .

* * *

قال نصر : وارتجز عمْرو بن العاص ؛ وأرسل بها إلى علىّ :

---

(١) صفين ٢٧١ ـ ٢٧٣ .

(٢) من صفين .

(٣) صفين : « ألزموكم » .

(٤) سعيد بن العاص والى عثمان على الـكوفة بعد الوليد بن عقبة ؛ ووالى معاوية على المدينة . والوليد ابن عقبة ، أخو عثمان لأمه ؛ ولاه عثمان على الـكوفة ثم عزله عنها لشربه الخمر . وعبد الله بن عامر بن كريز ابن خال عثمان ، والى عثمان ومعاوية على البصرة .

(٥) ذيت وذيت ؛ كناية عن الحديث ؛ مثل : « كيت وكيت » .

(٦) صفين : « فى جهادهم » . وفى ج : « فيه » .

(٧) صفين ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

لَا تأمَنَنّا بعدها أبا حَسَنْ إنّا نُمِرّ الأمرَ إمرارَ الرَّسَنْ (١)

ويروى : * خُذْها إليك واعلمَنْ أبا حَسَنْ *

لتصبحنّ مثلها أم لُـبُنْ (٢) طـاحِنةً تدقُّـكمْ دَقّ الحُفَنْ (٣)

قال : فأجابه شاعر من شعراء أهل العراق :

ألا احذرُوا فى حربكم أبا حَسَنْ ليثاً أبا شِبْلَيْن محذُور فَطِنْ

يدقُّـكمْ دَقَّ المهاريسِ الطُّحُنْ (٤) لتَغْبَنُنَّ يا جاهلًا أىّ غَبَنْ

* حتى تعَضّ الكفّ أو تقرَع سِن (٥) *

* * *

قال نصر : فحدّثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن الشعبىّ أن أوّل فارسَيْن التقيا فى هذا اليوم ـ وهو اليوم السابع من صَفَر ، وكان من الأيام العظيمة فى صِفّين ، ذا أهوال شديدة ـ حُجْر الخير وحُجْر الشرّ ؛ أما حُجْر الخير فهو حُجْر بن عدىّ ، صاحب أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وأما حُجْر الشرّ فابن عمّه ؛ كلاهما من كِنْدة ، وكان من أصحاب (٦) معاوية ، فاطّعنا برمحيهما ، وخرج رجلٌ من بنى أسَد ؛ يقال له خزيمة ، من عسكر معاوية ، فضرب حُجْر بن عدىّ ضربةً برمحه ، فحمَل أصحابُ علىّ عليه السلام فقتلوا خزيمة الأسدىّ ، ونجا حُجْر الشرّ هاربا ، فالتحق بصفّ معاوية . ثم برز حُجْر الشرّ

---

(١) إمرار الرسن : إحكام فتله ، وفى صفين : « نمر الحرب » .
(٢) اللبن : جمع لبون ؛ وهى ذات اللبن من الإبل .
(٣) الحفن : جمع حفنة ؛ وهى ملء الكفين من الشىء اليابس .
(٤) المهاريس : جمع مهراس ؛ وهو حجر مستطيل منقور يهرس به الحب .
(٥) بعده فى صفين ٢٧٤ :

* ندامةً أن فاتَكمْ عدُّ السُّنَنْ *

(٦) صفين : « وكان مع معاوية » .

ثانية ، فبرز إليه الحكَم بن أزهر من أهل العراق ؛ فقتله حُجْر الشرّ ؛ فخرج إليه رفاعة ابن ظالم الحِميرىّ ، من صفّ العراق فقتله ، وعاد إلى أصحابه يقول : الحمد لله الذى قُتل حُجْر الشرّ بالحكَم بن أزهر .

ثم إن عليا عليه السلام دَعا أصحابه إلى أنْ يذهب واحد منهم بمصحَفٍ كان فى يده إلى أهل الشام، فقال : مَنْ يذهب إليهم ، فيدعوهم إلى ما فى هذا المصحف ؟فسكت الناس؛ وأقبل فتى اسمه سعيد ؛ فقال : أنا صاحِبُه ؛ فأعاد القول ثانية ، فسكت الناس ،وتقدم الفتى، فقال : أنا صاحبه ، فسلّمه إليه فقبضه بيده ؛ ثم أتاهم فأنشدهم[1] الله ، ودعاهم إلى ما فيه فقتلوه ؛ فقال علىّ عليه السلام لعبد الله بن بُدَيل بن ورقاء الخزاعىّ : احمِلْ عليهم الآن . فحمَل عليهم بمن معه من أهل الميمنة ، وعليه يومئذ سَيْفان ودرعان ؛ فجعل يضرب بسيفه قُدُما ، ويقول :

لَمْ يَبْقَ غَيرُ الصَّبْرِ والتَّوكُّلْ ... والتُّرسِ والرمحِ وسيفٍ مِقْصَلْ[2]

ثم التمشّى فى الرَّعيل الأوّلْ ... مَشْىَ الجمالِ فى حياض المنهلْ[3]

فلم يزل يحمل حتى انتهى إلى معاوية ؛ والذين بايعوه إلى الموت ، فأمرهم أن يصمُدوا لعبد الله بن بُدَيل ، وبعث إلى حبيب بن مسلمة الفِهْرىّ وهو فى الميسرة ، أن يحملَ عليه بجميع مَنْ معه ، واختلط النّاس ، واضطرم الفيْلَقان ؛ ميمنة أهل العراق وميسرة أهل الشام ؛ وأقبل عبدُ الله بن بُدَيل يضرب الناس بسيفه قُدُماً ؛ حتى أزال معاوية عن موْقفه وجعل ينادى : ياثاراتِ عثمان ! وإنما يعنى أخاً له قد قتل ؛ وظن معاوية وأصحابُه أنه يعنى عثمان بن عفان ؛ وتراجع معاوية عن مكانه القَهْقرَى كثيراً وأشفق على نفسه ؛ وأرسل إلى حبيب بن مسلمة مرة ثانية ، وثالثة ، يستنجده ويستصرخه ، ويحمل حبيب حَملةً

---

(١) ج : « فناشدهم » .

(٢) فى الأصول : « مصقل » وما أثبته من صفين .

(٣) بعده فى صفين :

* والله يَقْضِى مايشا وَيفْعَلْ *

شديدة بميسرة معاوية على ميمنة العراق ، فكشفها حتى لم يبق مع ابن بُديل إلا نحو مائة إنسان من القرّاء ، فاستند بعضهم إلى بعض ، يحمُون أنفسهم ، ولجج ابن بديل فى الناس وصمم على قتل معاوية ، وجعل يطلب موقفه ، ويصمد نحوه ؛ حتى انتهى إليه ؛ ومع معاوية عبد الله بن عامر واقفاً ، فنادى معاوية فى الناس[1] : ويلكم ! الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح . فرضخه الناس بالصخر والحجارة ، حتى أثخنوه فسقط ، فأقبلوا عليه بسيوفهم ، فقتلوه .

وجاء معاوية وعبد الله بن عامر حتى وقفا عليه ؛ فأما عبد الله بن عامر فألقى عمامته على وجهه ، وترحّم عليه ؛ وكان له أخا صديقاً من قبلُ ، فقال معاوية : اكشف عن وجهه فقال : لا والله لا يمثّل به وفىّ روح ! فقال معاوية : اكشف عن وجهه فإنا لا نمثّل به ؛ قد وهبناه لك . فكشف ابن عامر عن وجهه ، فقال معاوية : هذا كبش القوم وربّ الكعبة ، اللهم أظفِرْنى بالأشتر النخعى والأشعث الكندىّ ! والله ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر[2] :

أخو الحربِ إن عضّت به الحربُ عضّها ... وإن شمّرتْ عن ساقها الحربُ شمّرا

ويحمى إذا ما الموتُ كان لقاؤه ... قِدَى الشِّبْر يحمى الأنفَ أن يتأخّرا[3]

كليثٍ هِزَبْرٍ كان يحمى ذِمارَهُ ... رمته المنايا قَصْدَها فتقطّرا[4]

ثم قال : إنّ نساء خُزاعة لو قدرت على أنْ تقاتلنى فضلا عن رجالها ، لفعلت[5] .

* * *

قال نصر : فحدّثنا عمرو[6] ، عن أبى رَوْق ، قال : استعلى أهلُ الشام عند قتل ابن بُديل على أهل العراق يومئذ ، وانكشف أهلُ العراق من قِبَل الميمنة ، وأجفلوا إجفالا[7]

(١) ا ، ب ، صفين : « بالناس » ، وما أثبته من ج .

(٢) هو حاتم الطائى ، ديوانه ١٢١ .

(٣) قدى الشبر : قدره .

(٤) تقطر : خر صريعاً .

(٥) صفين ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

(٦) هو عمرو بن شمر .

(٧) صفين : « وانجفل الناس عليهم » .

شديداً ، فأمر عليّ عليه السلام سَهل بن حُنَيف ، فاستقدم مَن كان معه ، ليرفُد الميمنة ويُعَضِّدها ، فاستقبلهم جموعُ أهل الشام في خَيلٍ عظيمة ، فحملتْ عليهم ، فألحقتهم بالميمنة، وكانت ميمنةُ أهلِ العراق متصلةً بموقف عليّ عليه السلام في القَلْب في أهل اليمن، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى عليّ عليه السلام ، فانصرف يمشي نحو الميسرة ، فانكشف مُضَر عن الميسرة أيضاً ، فلم يبق مع عليّ عليه السلام من أهل العراق إلا ربيعة وحدها في الميسرة[1] .

* * *

قال نصر : فحدثنا عمرو ، قال: حدثنا مالك بن أعين، عن زيد بن وهب ،قال :لقد مَرّ عليّ عليه السلام يومئذ ومعه بنوه نحو الميسرة، ومعه ربيعة وحدها، وإنّي لأرى النَّبل يمرّ بين عاتقه ومَنكِبيه ، وما من بنيه إلا مَن يَقيه بنفسه ،فيكره عليّ عليه السلام ذلك. فيتقدّم عليه ، ويحول بينه وبين أهل الشام ويأخذه بيده إذا فعل ذلك ، فيلقيه من ورائه، ويبصر به أحمر مولى بني أمية ، وكان شجاعاً ، وقال عليّ عليه السلام : وربّ الكعبة ، قتلني الله إن لم أقتلك ! فأقبل نحوه ، فخرج إليه كَيْسان مولى عليّ عليه السلام ، فاختلفا ضربتين ، فقتله أحمر ، وخالط علياً ليضربَه بالسيف ؛ وينتهزه عليّ ، فتقع يده في جَيْب دِرْعه ، فجذبه عن فرسه ، فحمله على عاتقه؛ فوالله لكأنّي أنظرُ إلى رِجلَيْ أحمر تختلفان على عُنق عليّ ، ثم ضرب به الأرض ،فكسر مَنكِبه وعَضُدَيْه ، وشدّ ابنا عليّ :حسين ومحمد فضرباه بأسيافهما حتى بَرَد ، فكأنّي أنظر إلى عليّ قائماً ، وشبلاه يضربان الرَّجل حتى إذا أتيا عليه ، أقبلا على أبيهما ، والحسن قائم معه ، فقال له عليّ : يابنيّ ؛ مامنعك أن تفعل كما فعل أخواك ؟ فقال : كَفَيانِي ياأمير المؤمنين .

---

(١) صفين ٢٨٠ .

قال : ثم إنّ أهل الشام دنَوْا منه يريدونه ؛ والله ما يزيدُه قربهم منه ودنوّهم إليه سرعة فى مشيته ؛ فقال له الحسن : ما ضرّك لو أسرعت حتى تنتهىَ إلى الذين صبروا لعدوك من أصحابك ؟ قال : يعنى ربيعة الميسرة — فقال علىّ : يا بنىّ إنّ لأبيك يوماً لن يعدُوَه ولا يبطئ به عنه السعْى ، ولا يقرّبه إليه الوقوف ؛ إن أباك لا يبالى[1] ؛ إن وقع على الموت أو وقع الموت عليه[2] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شِمْر ، عن جابر ، عن أبى إسحاق قال : خرج علىّ عليه السلام يوماً من أيام صِفّين ، وفى يده عَنَزَة[3] ، فمرّ على سعيد بن قيس الهمْدانىّ ، فقال له سعد : أما تخشى يا أمير المؤمنين أنْ يغتالك أحدٌ وأنت قُرْب عدوّك ؟ فقال علىّ عليه السلام : إنّه ليس من أحد إلا وعليه من الله حَفَظة يحفظونه من أن يتردّى فى قَليب[4] ، أو يخرّ عليه حائط ، أو تصيبه آفة ؛ فإذا جاء القَدَر خلّوا بينه وبينه[5] .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن فُضَيل بن خَديج ، قال : لما انهزمتْ ميمنةُ العراق يومئذ أقبل علىّ عليه السلام نحو الميسرة يركض ؛ يستثيبُ[6] الناس ويستوقفهم ، ويأمرهم بالرجوع نحو الفَزَع ، فمرّ بالأشتر ، فقال : يامالك ، قال : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : ائت هؤلاء القَوم ، فقل لهم : أين فِراركم من الموت الذى لن تُعجزوه ، إلى الحياة التى لاتَبقى لكم ! فمضى الأشتر ، فاستقبل الناس منهزمين ، فقال لهم الكلمات ، وناداهم : إلىّ أيها الناس ، أنا مالك بن الحارث ، يكرّرها ، فلم يَلوِ أحدٌ منهم عليه ، وظنّ أنّ

---

(١) صفين : « ما يبالى وقع عليه الموت » .

(٢) صفين ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٣) العنزة : رمح صغير فى أسفله زج .

(٤) القليب : البئر العادية القديمة .

(٥) صفين ٢٨٢ .

(٦) يستثيب الناس : يسترجعهم .

« الأشتر » أعرفُ فى الناس من « مالك بن الحارث » ، فجعل ينادى : ألا أيها الناس ، فأنا الأشتر ؛ فانقلبَ نحوه طائفةٌ ، وذهبت عنه طائفة ؛ فقال : عَضَضْتُمْ بِهَنِ أبيكم ! ما أقبح والله ما فعلتم[1] اليوم ! أيّها الناس ، غُضُّوا الأبصار ، وعَضُّوا على النواجذ ، واستقبلوا القوم بهامكم وشدُّوا عليهم شدّة قوم موتورين بآبائهم وأبنائهم وإخوانهم ، حَنَقاً على عدوّهم . قد وطّنُوا على الموت أنفسهم كى لا يُسبقوا بثأر . إنّ هؤلاء القوم والله لن يقاتلوكم إلا عن دينكم ، ليطفئوا السُّنّة ، ويحيُوا البِدْعة ، ويُدخلوكم فى أمرٍ[2] قد أخرجكم الله منه بحسن البصيرة ، فطيبوا عبادَ الله نفساً بدمائكم دون دينكم ؛ فإنّ الفِرار فيه سَلْبُ العِزّ والغَلَبة على الفىء ، وذلّ المحيا والممات ، وعارُ الدنيا والآخرة ، وسَخَط الله وأليم عقابه .

ثم قال : أيّها الناس ، أخلصوا إلىّ مَذْحِجاً ، فاجتمعت[3] إليه مذحج فقال لهم : عَضَضْتُمْ بِصُمّ الجندل ! والله ما أرضيتم اليوم ربّكم ، ولا نصحتم له فى عَدُوّه ، وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب ، وأصحاب الغارات ، وفِتيان الصباح ، وفرسان الطِّراد ، وحُتوف الأقران ، ومَذحِج الطِّعان ؛ الذين لم يكونوا يُسبقوا بثأرهم ، ولم تُطلّ دماؤهم ، ولم يعرفوا فى موطنٍ من المواطن بخَسْفٍ ! وأنتم سادة مِصْركم[4] ، وأعزّ حىّ فى قومكم ؛ وما تفعلوا فى هذا اليوم فهو مأثُورٌ بعد اليوم ؛ فاتّقوا مأثُور الحديث فى غدٍ ، واصدقوا عدوّكم اللقاء ؛ فإنّ الله مع الصابرين ؛ والذى نفس مالكٍ بيده ما من هؤلاء — وأشارَ بيده إلى أهلِ الشام — رجلٌ على مثل جَناح البعوضة من دين الله ، لله أنتم ! ما أحسنتم اليوم القِراع ، احْبِسوا سوادَ وجهى يرجعْ فيه دمى ، عليكم هذا السواد الأعظم ، فإن الله لو قد فَضّه تَبِعه من بجانبيه كما يتبع السيل مقدّمه .

---

(١) صفين : « ما قاتلتم اليوم » وفى الطبرى : « ما قاتلتم منذ اليوم » .

(٢) ج : « دين » . (٣) الطبرى : « فأقبلت إليه مذحج » .

(٤) صفين : « وأنتم أحد أهل مصركم » .

فقالوا : خــذ بنا حيث أحببتَ ، فصمَد بهم نحو عُظْمهم واستقبله أشباههُم من هَمْدان ؛ وهم نحو ثمانمائة مقاتل قد انهزموا آخرَ الناس ، وكانوا قد صبَروا فى ميمنة علىّ عليه السلام ؛ حتى قُتِل منهم مائة وثمانون رجلا ، وأصيب منهم أحدَ عشر رئيسا ، كلما قتِل منهم رئيس أخذ الراية آخر ، وهم بنو شُرَيح الهمْدانيون وغيرهم من رؤساء العشيرة ، فأول مَنْ أصيب منهم كُرَيب بن شريح ، وشرحبيل بن شريح ، ومرثد بن شريح ، وهبيرة بن شريح ، وهريم[1] بن شريح ، وشِمر بن شُرَيح ، وشمر بن شريح ، قتل هؤلاء الإخوة السّتة فى وقت واحد .

ثم أخذ الراية سفيان بن زيد ، ثم كرب بن زيد ، ثم عبد[2] بن زيد ، فقُتِل هؤلاء الإخوة الثلاثة أيضا ، ثم أخذ الراية عمير بن بِشْر ، ثم أخوه الحارث بن بِشْر ، فقتلا جميعا ، ثم أخذ الراية أبو القلوص وهب بن كُرَيب ، فقال له رجل من قومه : انصرف يرحمك الله بهذه الراية ، ترَحها الله فقد قُتِل الناس حَوْلها ، فلا تقتل نفسك ، ولا مَنْ بقى معك . فانصرفوا وهم يقولون : ليت لنا عديداً من العرب يحالفوننا على الموت ، ثم نستقدم نحن وهم فلا ننصرف حتى نظفر أو نقتل ، فمرّوا بالأشتر وهم يقولون هذا القول فقال لهم الأشتر : أنا أحالفكم وأعاقدكم على ألّا نرجع أبدا ؛ حتى نظفَر أو نهلِك ، فوقفوا معه على هذه النّية والعزيمة ، فهذا معنى قول كَعْب بن جُعَيل :

* وهمدان زُرْقٌ تبتغِى مَنْ تحالفُ *

قال : وزحف الأشترُ نحو الميمنة ، وثاب إليه أناس تراجَعُوا من أهل الصبر[3] والوفاء

---

(١) الطبرى : « يريم » .

(٢) كذا فى صفين وتاريخ الطبرى .

(٣) صفين : « من أهل البصيرة » .

والحياء ، فأخذ لا يصمدُ لكتيبة إلّا كَشَفها ، ولا لجمع إلا حازه ورده ،[١] فإنه لكذلك إذا مرّ بزياد بن النضر مستلحِما ، فقال الأشتر : هذا والله الصبر الجميل ، هذا والله الفعل الكريم إلىّ ، وقد كان هو وأصحابه فى ميمنة العراق ، فتقدم فرفع رايتَه لهم ، فصبروا وقاتل حتى صُرِع[١] ، ثم لم يلبث الأشتر إلا يسيرا كَلَا شىء حتى مَرّ بهم[٢] يزيد بن قيس الأرحبى[٣] مستلحِما أيضاً محمولا ، فقال الأشتر : مَنْ هذا ؟ قالوا : يزيد بن قيس ، لما صُرِع زياد بن النضر دَفَع رايتَه لأهل الميمنة ، فقاتل تحتها حتى صُرِع ، فقال الأشتر : هذا والله الصبر الجميل ، هذا والله الفعل الكريم ، ألا يستحيى الرجلُ أن ينصرف لا يَقتُل [ولم يُقتَل][٣] ولم يُشْفَ به على القتل[٤] !

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو عن الحارث بن الصبّاح[٥] ، قال : كان بيدِ الأشتر يومئذ صفيحة له يمانية ، إذا طأطأها خِلت فيها ماء ينصبّ ، وإذا رفعها يكاد يُغْشِى البصرَ شُعاعها ؛ ومرّ يضرب الناس بها قدما ، ويقول :

* الغَمَرات ثُم يَنْجَلِينا[٦] *

(١ ـ ١) صفين : « فإنه لكذلك إذ مر بزياد بن النضر يحمل إلى العسكر ، فقال : من هذا ؟ قيل : زياد بن النضر ، استلحم هو وأصحابه فى الميمنة ، فتقدم زياد ؟ فرفع لأهل الميمنة رايته ؟ فقاتل حتى صرع » .

(٢) صفين : « حتى مروا بيزيد بن قيس محمولا » .

(٣) من صفين ، وفى الطبرى : « لا يقتل ولا يقتل ، ولا يشفى به على القتل » .

(٤) صفين ٢٨٢ ـ ٢٨٦ ، والطبرى ٥ : ١٩ ـ ٢٢ .

(٥) صفين والطبرى : « الحر بن الصباح » .

(٦) هو مثل ؟ رواه العسكرى فى الأمثال ١٥٠ ، وقال : الغمرات : الشدائد ؟ يقول : اصبر فى الشدائد فإنها تنجلى وتذهب ، ويبقى حسن أثرك فى الصبر عليها ؟ وهو قول الراجز :

الغمرات ثم يَنْجَلِينْ ... عنّا وَينْزِلن بآخرينْ

* شدائدُ يتبعهنّ لِينْ *

وفى مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ٥٨ : المثل للأغلب العجلى ، ورواه : « الغمرات ثم ينجلين »

قال : فبصر به الحارث بن جُمْهان الجعفيّ ، والأشتر مقنّع فى الحديد فلم يعرفه ، فدنا منه ، وقال له : جزاك الله منذ اليوم عن أمير المؤمنين وعن جماعة المسلمين خيراً. فعرفه الأشتر فقال : يابن جُمهان ، أمثلك يتخلّف اليوم عن مثل موطنى هذا ! فتأمله ابن جُمْهان فعرفه — وكان الأشترُ من أعظمِ الرجال وأطولهم ؛ إلا أن فى لحيته خِفّة قليلة — فقال له : جعلت فداك ! لا والله ما علمتُ مكانك حتى الساعة ، ولا والله لا أفارقك حتى أموتَ .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن الحارث بن الصبّاح ، قال : رأى الأشترُ يومئذ مُنقذا وحِميرا ابنى قَيس اليقظيان[1] فقال منقذ لحمير : مافى العرب رجلٌ مثل هذا ؛ إن كان ماأرى من قتاله على نية[2] ! فقال له حِمير : وهل النيّة إلا ما ترى ! قال : إنّى أخافُ أن يكون يحاول مُلْكا[3] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، عن فُضَيل بن خَديج ، عن مولى الأشتر قال : لما اجتمع مع الأشتر عُظْمُ من كان انهزم من الميمنه ، حرّضهم ، فقال لهم :

عَضُّوا[4] على النّواجذ من الأضراس ، واستقبلوا القوم بهامِكم ؛ فإن الفِرارَ من الزّحف [فيه] ذهابُ العزّ ، والغلبة على الفىء ، وذلّ المحيا والمات ؛ وعار الدنيا والآخرة[5] .

---

(١) الطبرى : « الناعطيان » .

(٢) صفين . « على نيته » .

(٣) صفين ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، الطبرى ٦ : ٢٢ .

(٤) من صفين .

(٥ — ٥) الخطبة كما وردت فى تاريخ الطبرى : « عضوا على النواجذ من الأضراس ، واستقبلوا القوم بهامكم ، وشدوا شدة قوم موتورين ، ثأراً بآبائهم وإخوانهم حناقاً على عدوهم ، قد وطنوا على الموت أنفسهم ؛ كيلا يسبقوا بوتر ، ولا يلحقوا فى الدنيا عاراً ؛ وايم الله ما وتر قوم قط بشىء أشد عليهم من أن يوتروا دينهم ؛ وإن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ليميتوا السنة ، ويحيوا البدعة ، ويعيدوكم فى ضلالة ، قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن البصيرة ، فطيبوا عباد الله أنفساً بدمائكم ، دون دينكم ؛ فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنات النعيم ؛ وإن الفرار من الزحف فيه السلب للعز والغلبة على الفىء ، وذل المحيا والممات ، وعار الدنيا والآخرة » .

ثم حمل على صفوف أهل الشام حتى كشفهم، فألحقهم بمضارب معاوية ؛ وذلك بين العصر والمغرب .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب ، أنّ عليا عليه السلام لمّا رأى ميمنته قد عادت إلى موقفها ومصافّها، وكشفت مَنْ بإزائها حتى ضاربوهم في مواقفهم ومراكزهم ، أقبلَ حتى انتهى إليهم ، فقال :

إني قد رأيت جَوْلتكم وانحيازَكم من صفوفكم ، يحوزكم[1] الجُفاة الطغاة[2] ، وأعراب أهل الشام ، وأنتم لهاميم العرب ، والسَّنام الأعظم ، وعُمّار الليل بتلاوة القرآن؛ وأهلُ دعوة الحقّ إذ ضلّ الخاطئون. فلولا إقبالكم بعد إدباركم وكرّكم بعد انحيازكم، وجب عليكم ما وجَب على المولّي يوم الزّحف دُبُره ، وكنتم فيما أرى من الهالكين؛ ولقد هوّن عليّ بعضَ وجدِي ، وشَفى بعضَ لاعج[3] نفسي ، أني رأيتكم بأَخَرة ، حُزْتموهم كما حازوكم ، وأزلتموهم عن مصافّهم كما أزالوكم، تحوزونهم[4] بالسيوف ، يركب أولُهم آخرَهم ، كالإبل المطرودة الهيم[5] ، فالآن فاصبروا ، نزلت عليكم السكينة وثبّتكم الله باليقين ؛ وليعلم المنهزم أنّه يُسخط ربّه ، ويوبق نفسَه ؛ وفي الفرار موجِدة الله عليه ، والذلّ اللازم له ، وفساد العيش . وإن الفارّ لا يزيد الفِرارُ في عُمره ، ولا يرضِي ربّه ، فموت الرجل محقًا قبل إتيان هذه الخِصال ، خير من الرضا بالتلبّس بها ، والإصرار عليها .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : حدثنا أبو علقمة الخثعميّ ، أن عبدالله بن حنش الخثعميّ ، رأس خثعم الشام ، أرسل إلى أبي كعب الخثعميّ رأس خثعم العراق : إن شئت توافقنا فلم نقتتل ، فإن ظهر صاحبُكم كنّا معكم ، وإن ظهر صاحبنا كنتم معنا، ولا يقتل

---

(١) يحوزكم : ينحيكم عن مراكزكم .

(٢) صفين : « الطغام » .

(٣) صفين : « أحاح نفسي » ، والأحاح . اشتداد الحزن والغيظ .

(٤) صفين : « تحوزونهم » .

(٥) الهيم : العطاش .

بعضُنا بعضا ، فأبى أبو كعب ذلك . فلما التقتْ خثعم وخثعم ، وزحف الناس بعضهم إلى بعض ،قال عبدالله بن حنش لقومه :يامعشر خَثْعم ! إنا قد عرضنا على قومنامن أهل العراق الموادَعة ؛ صِلَةً لأرحامها ، وحفظا لحقها ، فأبوا إلا قتالَنا ، وقد بدأونا بالقطيعة، فكُفُّوا أيديَكم عنهم حِفْظًا لحقهم أبدا ما كَفُّوا عنكم؛فإن قاتلوكم فقاتِلُوهم.فخرج رجل من أصحابه فقال : إنهم قد ردّوا عليك رأيك،وأقبلوا إليك يقاتلونك ، ثم برز.فنادى رجل : ياأهل العراق . فغضب عبد الله بن حنش،قال : اللهم قَيِّض له وهبَ بن مسعود — يعنى رجلا من خثعم الكوفة ، كان شجاعا يعرفونه فى الجاهلية ، لم يبارزه رجل قطّ إلا قتله — فخرج إليه وهب بن مسعود فقتله، ثم اضطربوا ساعة،واقتتلوا أشدّ قتال؛ فجعل أبو كعب يقول لأصحابه؛يامعشرَ خثعم:خَدِّموا ،أى اضرِبوا موضع الخَدَمة؛وهى الخلخال؛يعنى اضربوهم فى سُوقهم ؛ فناداه عبد الله بن حنش : ياأبا كعب ، الكُلُّ قومك فأنصف ، قال : إى والله وأعظِم . واشتدّ قتالهم ، فحمل شِمْر بن عبد الله الخثعمىّ ، من خثعم الشام، على أبى كعب ، فطعَنه فقتله ، ثم انصرف يبكى ، ويقول : يرحمك الله أبا كعب ! لقد قتلتُك فى طاعة قوم أنت أمسُّ بى رحِمًا منهم ، وأحبُّ إلىّ منهم نفساً ؛ ولكنى والله لا أدرى ما أقول ؛ ولاأرى الشيطان إلاقد فتَننا ، ولاأرى قريشا إلاوقد لَعِبت بنا ! قال :ووثبَ كعب بن أبى كعب إلى راية أبيه ، فأخذها ففقئت عينه وصرع ؛ ثم أخذها شريح بن مالك الخثعمىّ ، فقاتل القوم تحتها حتى صرع منهم حول رايتهم نحو ثمانين رجلا ،وأصيب من خَثْعم الشام مثلُهم ، ثم ردّها شريح بن مالك بعد ذلك إلى كعب بن أبى كعب[1]

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : حدثنا عبد السلام بن عبدالله بن جابر ، أن رايةَ بَجيلة فى صِفّين مع أهل العراق كانت فى أحمس مع أبى شداد ، قيس بن المكشوح بن

(١) صفين ٢٩١ .

هلال بن الحارث بن عمرو بن عوف[1] بن عامر بن علىّ بن أسلم بن أحمس بن الغوث بن أنمار. قالت له بَجِيلة: خذ رايتنا، فقال: غيرى خيرٌ لكم منّى، قالوا: لا نريدُ غيرك، قال: فوالله لئن أعطيتُمونيها لا أنتهى بكم دونَ صاحب الترس المذهب، قالوا: وكان على رأس معاوية رجلٌ قائم معه تُرْس مُذهَب، يستره من الشمس، فقالوا: اصنع ماشئت، فأخذها ثم زَحَف بها[2]، وهم حوله يضربون الناس، حتى انتهى إلى صاحب التُّرس المذهب، وهو فى خَيْلٍ عظيمة من أصحاب معاوية، وكان عبدالرحمن بن خالد بن الوليد، فاقتتل الناسُ هناك قتالا شديدا، وشدّ أبو شدّاد بسيفه نحو صاحب التُّرس، فتعرّض له رومىّ من دونه لمعاوية، فضرب قدم أبى شدّاد فقطعها، وضرب أبو شداد ذلك الرومىّ فقتله، وأسرعت إليه الأسنّة، فقتِل فأخذ الراية بعده عبد الله بن قَلْع الأحمسىّ، وارتجز وقال:

لا يُبعِد الله أبا شدادِ ... حيث أجابَ دعْوة المنادِى

وشدّ بالسيف على الأعادِى ... نِعْمَ الفتى كان لَدَى الطِّرادِ

* وفى طعان الخيل والجلادِ *

ثم قاتل حتى قتل، فأخذها بعده أخوه عبد الرحمن بن قَلْع، فقاتل حتى قتل، ثم أخذها عفيف بن إياس الأحمسىّ، فلم تزل بيده حتى تحاجز الناس[3].

* * *

---

(١) صفين: «عمرو بن عامر»، الطبرى: «عمرو بن جابر».

(٢) فى صفين: ثم زحف وهو يقول:

إنّ عَلِيًّا ذو أناة صارمُ ... جَلْدٌ إذا ما حَضَر العزائمْ

لمّا رأى ما تفعل الأشائمُ ... قامَ له الذِّروة والأكارِمُ

* الأشيبان: مالِكٌ وهاشِمُ *

(٣) صفين ٢٩٢، ٢٩٣، الطبرى ٥: ٢٥، ٢٦.

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، قال : حدّثنا عبد السلام ، قال : قُتِل يومئذ من بنى أحمس حازم بن أبى حازم ، أخو قيس بن أبى حازم ، ونعيم بن شهيد بن الثَّعْلبيّة [١] ، فأتى نَعِيمَ ، ابن عمه نعيم بن الحارث بن التغلبيّة [١] معاوية — وكان من أصحابه — فقال : إنّ هذا القتيل ابنُ عمى ؛ فهبه لى أدفنه ، فقال : لا تدفنوهم ؛ فليسوا لذلك بأهل ، والله ماقدرنا على دَفْن عثمان بينهم إلا سرًّا ، قال [٢] : والله لتأذَنَنّ لى فى دفنه أو لألحقَنّ بهم ولأدعنّك، قال : ويحك ! ترى أشياخ العرب لانُواريهم ، وأنت تسألنى فى دَفْن ابن عمك ! ادفنه إن شئت ، أودعه [٣] . فأتاه فدفنه [٤] .

* * *

قال نصر : وحدثنا عَمْرو ، قال : حدثنا أبو زهير العبسىّ ، عن النضر بن صالح،أنّ راية غطفان العراق كانت مع عَيّاش بن شريك بن حارثة بن جُنْدَب بن زيد بن خلف ابن رواحة ،فخرج رجلٌ من آل ذى الكَلاع ، فسأل المبارزة ، فبرز إليه قائد بن بكير العبسىّ ، فبارزه فشدّ عليه الكَلاعىّ ، فأوهطه [٥] ، فقال أبو سُلَيم عَيّاش بن شريك لقومه [٦] : إنى مبارزٌ هذا الرجل ، فإن أصِبْت فرأسكم الأسود بن حبيب بن جمانة ابن قيس بن زهير ، فإن أصيب فرأسكم هَرِم بن شتير بن عمرو بن جُندَب ، فإن أصيب فرأسكم عبدالله بن ضرار ، من بنى حنظلة بن رواحة. ثم مشى نحو الكَلاعى، فلحقه هرم بن شتير فأخذ بظهره،وقال : ليمسك رحم ؛ لاتبرزْ إلى هذا الطُّوال ؛ فقال: هبلتك الهَبول [٧] ! وهل هو إلا الموت ! قال : وهل الفرار إلا منه ! قال: وهل منه بدّ ! والله لأقتلنّه ؛ أو ليلحقنّى

(١) صفين والطبرى : « ابن التغلبية » .
(٢) ج : « فقال » .
(٣) الطبرى : « أودع » .
(٤) صفين ٢٩٣ ، الطبرى ٥ : ٢٦ .
(٥) أوهطه : صرعه .
(٦) صفين : « فخرج إليه عباس بن شريك أبو سليم فقال لقومه » .
(٧) الهبول ، بفتح الهاء : التى لا يبقى لها ولد .

بقائد بن بكير . فبرز له ومعه حَجَفة من جُلود الإبل فدنا منه ؛ فإذا الحديد مُفرَغ على[1] الـكَلاعىّ لا يبين من نحره إلا مثل شِراك النعل من عنقه بين بَيْضته ودرعه ، فضربه الـكَلاعىّ ، فقطع جحفَتَهُ إلا نحواً من شِبْر ، فضرَبه عيَّاش على ذلك الموضع ؛ فقطع نخاعه ، فقتله ، وخرج ابنُ الـكَلاعىّ ثائراً بأبيه ، فقتله بُـكَير بن وائل[2] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر ؛ عن الصَّلْت بن زُهير النهدىّ أنّ راية بنى نَهْد بالعراق أخذها مسروق بن الهيثم بن سلمة فقتل ، ثم أخذها صخر بن سمىّ فارتُثّ[3] ، ثم أخذها على بن عمير ، فقاتل حتى ارتُثّ . ثم أخذها عبد الله بن كعب فقتِل ، ثم أخذها سلمة بن خُـذَيم بن جرثومة ، فارتُثّ وصرع ، ثم أخـذها عبد الله بن عمرو بن كبشة ، فارتُثّ ، ثم أخذها أبو مُسبِّح بن عمرو فقتل ، ثم أخذها عبد الله بن النزَّال فقتِل ، ثم أخذها ابن أخيه عبد الرحمن بن زهير ، فقتِل ، ثم أخذها مولاه مخارق فقتل ؛ حتى صارت إلى عبد الرحمن بن مِخْنَف الأزدى[4] .

* * *

قال نصر : فحـدثنا عمرو : قال : حدثنا الصَّلْت بن زهير ، قال : حـدثنى عبـد الرحمن بن مِخنف ، قال : صرع يزيد بن المغفَّل إلى جنبى ، فقتلتُ قاتـلَه وقمت على رأسه ، ثم صُرِع أبو زينب بن عروة ، فقتلتُ قاتـلَه ، وقمت على رأسـه وجاءنى سفيان بن عوف ، فقال : أقتلتم يزيد بن المغفل ؟ فقلت : إى والله

(١) صفين : « فنظر عياش بن شريك ؛ فإذا الحديد عليه مفرغ لا يرى منه عورة » .
(٢) صفين ٢٩٣ ، ٢٩٤ .
(٣) ارتث ، بالبناء للمجهول : حمل من الحرب جريحاً ولم يقتل .
(٤) صفين ٢٩٥ .

إنه لَهذا الذى ترانى قائماً على رأسه ، قال : ومَنْ أنت حيّاك الله ! قلت : أنا عبد الرحمن ابن مِخْنف ، فقال : الشريف الكريم ! حيّاك الله ومرحبا بك يابن عمّ ! أفلا تدفعه إلىّ ، فأنا عمُّه سفيان بن عوف بن المغفل ! فقلت : مرحبا بك ، أما الآن فنحن أحقُّ به منك ، ولسنا بدافعيه إليك ؛ وأمّا ما عدا ذلك فلَعَمْرِى أنت عمّه ووارثه[١] .

* * *

قال نصر : حدثنا عمرو ، قال : حدّثنا الحارث بن حَصِيرة ، عن أشياخ الأزد ، أنّ مِخْنف بن سُليم ، خطب لما نُدِبَتْ أزدُ العراق إلى قتال أزد الشام ، فقال :

الحمد لله ، والصلاة على محمد رسوله ، ثم قال : إنّ من الخطب الجليل ، والبلاء العظيم ، أنّا صُرِفْنا إلى قومنا ، وصُرِفوا إلينا ؛ والله ما هى إلا أيدينا نقطعُها بأيدينا ، وما هى إلا أجنحتنا نحذفُها بأسيافنا ، فإن نحن لم نفعل لم نُناصِح صاحبَنا ، ولم نواس جماعتَنا ، وإن نحن فعلنا ، فعزّنا آلمنا[٢] ، ونارَنا أخمدنا .

وقال جُندَب بن زهير الأزدىّ : والله لو كنا آباءهم وَلَدْناهم ، أو كانوا آباءنا وَلَدُونا ، ثم خرجوا عن جماعتنا ، وطَعَنُوا على إمامنا ، ووازروا الظالمين الحاكمين بغير الحقّ على أهل مِلّتنا[٣] وديننا ـ ما افترقنا بعد أن اجتمعنا ، حتى يرجعوا عمّا هم عليه ، ويدخلوا فيما ندعوهم إليه ، أو تكثر القتلى بيننا وبينهم .

فقال مخنف : [أعزّ بك الله فى التيه !][٤] ؛ والله ما علمتك صغيراً ولا إلا كبيراً مشئوماً ، والله ما ميّلنا[٥] فى الرأى بين أمرين قط أيّهما نأتى وأيّهما ندع فى جاهلية ولا إسلام

(١) صفين ٢٩٥ ، ٢٩٦ .
(٢) صفين : « أبعدنا » .
(٣) صفين : « وذمتنا » .
(٤) من صفين .
(٥) التميل : الترجيح .

إلا اختارت أعسرها وأنكدها . اللهمّ أن تسافيها أحبّ إلىّ من أنْ تجلّيها ، اللهم أعط كلّ رجل منا ما سألك .

فتقدم جُندب بن زهير ، فبارز أزديا من أزد الشام ، فقتله الشامي[1] .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن الحارث بن حُصين ، عن أشياخ الحي ، أن عتبة بن جورية[2] قال يوم صفّين لأهله وأصحابه : ألا إنّ مرعَى الدنيا قد أصبح هَشِيا ، وأصبح شجرها حَصيدا ، وجديدها سَملًا ، وحلوها مُرًّا . ألا وإنّى أنبئكم نبأ امرئ صادق ، أنى قد سئمت الدنيا ، وعزفتْ نفسى عنها ، ولقد كنت أتمنّى الشهادة ، وأتعرض لها فى كلّ حين ، فأبى الله إلا أنْ يُبَلِّغنى هذا اليوم ؛ ألا وإنّى متعرّض ساعتى هذه لها ، وقد طمعتُ ألا أحرَمها ، فما تنتظرون عباد الله من جهاد أعداء الله ؟ أخوفَ الموت القادم عليكم ، الذاهب بنفوسكم ! أو من ضَرْبة كفّ أو جبين بالسيف ! أتستبدلون الدنيا بالنظر إلى وجه الله ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى دار القرار ! ما هذا بالرأى السديد .

ثم قال : يا إخوتاه ، إنى قد بعتُ هذه الدار بالدار التى أمامها ، وهذا وجهى إليها ، لا يبرح الله وجوهَكم ، ولا يقطع أرحامكم .

فتبعه أخواه عبد الله وعوف ، فقالا : لا نطلب ورقَ[3] العيش دونك ، قبح الله الدنيا بعدك ! اللهم إنّا نحتسبُ أنفسنا عندك .

فاستقدَموا جميعا ، وقاتلوا حتى قتلوا[4] .

* * *

(١) صفين ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، الطبرى ٥ : ٢٦ ، ٢٧

(٢) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « جوير » ، وفى صفين : « جورية » ، وفى الطبرى : « عتبة بن جديد النمرى »

(٣) صفين والطبرى : « رزق الدنيا » .

(٤) صفين ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، الطبرى ٥ : ٢٧ ، ٢٨ .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : حدثنى رجل من آل الصَّلت بن خارجة ، أن تميما لما ذهبت لتُهزَم ذلك اليوم ، ناداهم مالك بن حَرِىّ النهشلىّ : ضاع الضِّراب اليوم والذى أنا له عبدٌ[1] يابنى تميم ! فقالوا : ألا ترى الناس قد انهزموا ! فقال : ويحكم ! أفرارا واعتذارا ! ثم نادى بالأحساب ، فجعل يكررها ، فقال له قوم منهم : أتنادى بنداء الجاهلية ! إنّ هذا لايحِلّ ، فقال : الفرار وَيْلَكم أقبح ، إنْ لم تقاتلوا على الدين واليقين فقاتلوا على الأحساب . ثم جعل يقاتل ويرتجز ، فيقول :

إنّ تميما أخلفَتْ عنك ابن مُرّْ ... وقد أراهم وهمُ الحىّ الصُّبُرْ

• فإن يفرّوا أو يخيموا لاأفِرّ[2] •

فقتل مالك ذلك اليوم . وقال أخوه نهشل بن حرّىّ التميمى يرثيه :

تطاولَ هذا الليلُ ما كادَ ينجلى ... كليلِ التَّمامِ مايريدُ انصِراما

وبتّ بذكرَى مالكٍ بكآبةٍ ... أؤرَّقُ من بَعْدِ العشاء نِياما

أبىَ جَزَعِى فى مالكٍ غيرَ ذكره ... فلا تعذلينى إن جَزِعْتُ أماما

فأبكى أخِى مادام صوتُ حمامةٍ ... يؤرِّقُ من وادى البِطاحِ حَماما

وأبعث أنواحاً عليه بسُحْرَة ... وتذرِفُ عيناىَ الدُّموعَ سِجاما

وأدعو سَرَاةَ الحىّ تبكى لمالكٍ ... وأبعث نَوْحاً يلتدِمْنَ قِياما

يقلن : ثوَى ربُّ السماحة والحجا ... وذو عِزّةٍ يأبَى بها أن يُضَاما

وفارسُ خيل لاتُنَازَلُ خيلُه ... إذا اضطرمت نار العدوّ ضِراما

وأحيا عن الفحشاء من ذات كِلّة ... يرى مايهاب الصالحون حَراما

---

(١) ا ، ج : « عبده » .

(٢) ثام : فر ونكص .

وأجرأ من ليث بِخَفَّانَ مُخْــدِرٍ   وأمضى إذا رام الرجال صداما[1]

وقال أيضا يرثيه :

يَبكي الفتى الأبيضَ البهلول سُنَّتُهُ   عندَ النِّداء ، فلا نِكْساً ولا وَرَعا[2]

يَبكي على مالكٍ الأضياف إذْ نَزَلُوا   حينَ الشتاء وَعزَّ الرِّسْلُ فانقطعا[3]

ولم يجدْ لِقِرامٍ غَــيْرَ مُرْبِعَةٍ   مِنَ الشِّــارِ تُزَجِّي تحتَها رُبَعا[4]

أهوَى لها السيفَ صَلْتاً وَهْي رَائِمَةٌ   فأوهن السيفُ عظمَ الساق فانجذعا

فجاءهمْ بعــدَ رِفْدِ الناس أطيبُها   وأشبعتْ منهمُ من نام واضطجعا[5]

يافارسَ الرَّوْعِ يوم الرَّوْعِ قد عَلِمُوا   وصاحبَ العزم لا نِكْسا ولا طبِعا[6]

ومدركَ التَّبْلِ فى الأعــداء يطلبُه   وإن طلبت بِتَبْلٍ عنــده مَنَعا[7]

قالوا : أخوكَ أتى الناعى بمصرعِه   فانشقَّ قلبى غــداةَ القول فانصدَعا

ثم ارعوَى القلبُ شيئاً بعد طَرْبَتِه   والنفس تعلم أنْ قد أثبتَتْ وَجَعا[8]

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : حدثنى يونس بن أبى إسحاق ،قال : قال لنا أدهم

---

(١) وبعده فى صفين :

فلا تَرْجُوَنْ ذا أُمَّةٍ بَعْدَ مالكٍ   ولا جازراً للمنشــآتِ غُلَاما

وقل لهم لا يرحلوا الأُدْمَ بعده   ولا يرفعوا نحو الجيــاد لجاما

(٢) السنة : الوجه . والورع : الجبان . وفى صفين « أبكى » ، فى هذا البيت وتاليه .

(٣) الرسل بالكسر : اللبن.

(٤) تزجى : تسوق . والربع ، بضم ففتح : ما ولد من الإبل فى الربيع .

(٥) صفين : « وقد كفى منهم من غاب واضطجعا » .

(٦) النكس : المقصر عن النجدة .

(٧) التبل : الثأر والذحل ، والطبع : الدنىء الخلق .

(٨) الطربة : المرة من الطرب ؛ وهو هنا الحزن ؛ ويطلق أيضاً على السرور . والخبر والشعر فى صفين ٢٩٩ ـ ٣٠٢

ابن محرز الباهلىّ ، ونحن معه بأذْرُح[1] : هل رأى أحدٌ منكم شِمرَ بن ذى الجوْشَن ؟ فقال عبد الله بن كَبار النهدىّ وسعيد بن حازم البَلوىّ[2] : نحن رأيناه ، قال : فهل رأيتما ضربةً بوجهه ؟ قالا : نعم ، قال : أنا والله ضربته تلك الضربةَ بصِفّين[3] .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : قد كان خرج أدهم بن محرز من أصحاب معاوية إلى شَمِرْ بن ذِى الجوشَن فى هذا اليوم ، فاختلفا ضربتَيْن ، فضرب به أدهم على جبينه ، فأسرع فيه السيفُ حتى خالط العظم ، وضربه شمِر ، فلم يصنع شيئا ، فرجع إلى عسكره ، فشرب ماء وأخذ رُمحا ، ثم أقبل وهو يقول :

إنّى زعيمٌ لأخى باهِــلَهْ بطعنةٍ إن لم أمتْ عاجلَهْ[4]
وضربةٍ تحت الوَغَى فاصِلَهْ[5] شبيهةٍ بالقتــل أو قاتِلَهْ

ثم حمل على أدهم وهو يعرف وجهه ـ وأدهم ثابت له لم ينصرف ـ فطعنه ، فوقع عن فرسه ، وحال أصحابُه دونه ، فانصرف شَمِر وقال : هذه بتلك[6] .

قال نصر : وخرج سُويد بن قيس بن يزيد الأرحبىّ من عسكر معاوية يسأل المبارزة ، فخرج إليه من عسكر العراق أبو العمرَّطة قيس بن عمرو بن عمير بن يزيد ؛ وهو ابن عمّ سويد ، وكان كلٌّ منهما لا يعرف صاحبَه ، فلما تقاربا تعارفا ، وتواقفا وتساءلا ؛ ودعا كلٌّ واحد منهما صاحبَه إلى دينه[7] ؛ فقال أبو العمرّطة : أمّا أنا فوالله الذى لا إله إلا هو ؛ لئن استطعت لأضربنّ بسيفى هذه القبة البيضاء ـ يعنى القبّة التى كان فيها معاوية ـ ثم انصرف كلّ واحد منهما إلى أصحابه[8] .

---

(١) أذرح : بلد فى أطراف الشام .
(٢) صفين : « السلولى » . (٣) صفين ٣٠٣ .
(٤) الطبرى : « إن لم أصب » .
(٥) الطبرى : « أو ضربة تحت القنا والوغى » .
(٦) صفين ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، الطبرى ٦ : ٢٨
(٧) صفين : « إلى ما هو عليه » .
(٨) صفين ٣٠٤

قال نصر : ثم خرج رجل من عسكر الشام من أزد شنوءة ، يسأل المبارزة ، فخرج إليه رجل من أهل العراق ، فقتله الأزدىّ ، فخرج إليه الأشتر ؛ فما ألبثه أن قتله ، فقال قائل : كان هذا ريحا فصارت إعصارا .

قال نصر : وقال رجل من أصحاب علىّ عليه السلام : أما والله لأحملنّ على معاوية حتى أقتله ، فركب فرسا ، ثم ضربه حتى قام على سنابكه ؛ ثم دفعه فلم ينهنهه شىء عن الوقوف على رأس معاوية ، فهرب معاوية ، ودخل خباء ، فنزل الرجلُ عن فرسه ودخل عليه ، فخرج معاوية مِنْ جانب الخباء الآخر ، فخرج الرجلُ فى أثره ، فاستصرخ معاوية بالناس ، فأحاطوا به وحالوا بينهما ؛ فقال معاوية : ويحكم ! إنّ السيوف لم يؤذَنْ لها فى هذا ، ولولا ذلك لم يصِلْ إليكم ، فعليكم بالحجارة ، فرضخُوه بالحجارة حتى همد . فعاد معاوية إلى مجلسه .

قال نصر : وحمل رجلٌ من أصحاب علىّ عليه السلام يدعى أبا أيوب ـ وليس بأبى أيوب الأنصارى ـ على صفّ أهل الشام ، ثم رجع فوافق رجلاً من أهل الشام صادرا ، قد حمل على صفّ أهل العراق ، ثم رجع فاختلفا ضربتين ، فنفحه أبو أيوب بالسيف ، فأبانَ عنقه ، فثبت رأسُه على جسده كما هو ؛ وكذّب الناس أن يكون هو ضربه ، فأرابهم ذلك ؛ حتى إذا أدخلته فرسه فى صفّ أهل الشام نَدَر رأسه ، ووقع ميتا ، فقال على عليه السلام : والله لأنا من ثبات رأس الرجل أشدُّ تعجبا من الضربة ؛ وإن كان إليها ينتهى وصفُ الواصفين[1] .

وجاء أبو أيوب فوقف بين يدى علىّ عليه السلام ، فقال له : أنت والله كما قال الشاعر :

وَعَلَّمَنا الضربَ آباؤنا ... ونحن نعلّمُ أيضا بَنِينا

قال نصر : فلما انقضى هذا اليوم بما فيه ، أصبحوا فى اليوم الثامن من صفين[2] ، والفيلقان متقابلان ؛ فخرج رجلٌ من أهل الشام فسأل المبارزة ، فخرج إليه رجل من أهل العراق ،

---

(١) ج : « الواصف » ، وصفين : « وصف الضارب » .
(٢) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « صفر » .

فاقتتلا بين الصفّين قتالا شديدا . ثم إن العراقىّ اعتنقه فوقعا جميعا ، وغار الفرسان . ثم إن العراقىّ قهره ، فجلس على صدره ، وكشف المِغفر عنه ؛ يريد ذبحه ؛ فإذا هو أخوه لأبيه وأمّه ، فصاح به أصحاب علىّ عليه السلام : ويحك أجهِزْ عليه ! قال : إنه أخى ، قالوا: فاتركه ، قال : لا والله حتى يأذن أمير المؤمنين ؛ فأخبِرَ علىّ عليه السلام بذلك ، فأرسل إليه أن دَعْه ، فتركه ، فقام فعاد إلى صفّ معاوية[1] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا محمد بن عبيد الله، عن الجرجانىّ ، قال : كان فارسَ معاوية الذى يُعِدّه لكلّ مبارز ولكلّ عظيم ، حُريث مولاه ، وكان يلبَس سلاح معاوية متشبّها به فإذا قاتل قال الناس : ذاك معاوية . وإنّ معاوية دعاه ، فقال له : ياحُريث ، اتّق عليا وضَعْ رمحك حيث شئت . فأتاه عمرو بن العاص ، فقال : ياحريث ، إنك والله لو كنتَ قرشيا لأحبّ لك معاوية أن تقتلَ عليا ، ولكن كره أن يكون لك حظّها ؛ فإن رأيتَ فرصة فاقتحِمْ . قال : وخرج علىّ عليه السلام فى هذا اليوم أمام الخيل . فحمل عليه حُرَيث[2] .

* * *

قال نصر : فحدّثنى عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، قال : برز حُريث مولى معاوية هذا اليوم ؛ وكان شديداً أيِّداً[3] ذا بأس لا يرام ؛ فصاح : ياعلىّ ، هل لك فى المبارزة ؟ فأقدِم أبا حسن إن شئت ، فأقبل علىٌّ عليه السلام ، وهو يقول :

أنا علىٌّ وابنُ عبد المطّلِبْ نحنُ لعمرُ الله أوْلَى بالكُتُبْ

---

(١) صفين ٣٠٧ ، ٣٠٨

(٢) صفين ٣٠٨ ، ٣٠٩

(٣) ساقطة من ا ، ب .

مِنّا النبيُّ المصطفى غَيْرَ كَذِبْ أهلُ اللواء والمقام والحجُبْ

* نحن نصرْناه على كلّ العَرَبْ[1] *

ثم خالطه فما أمهله أن ضربه ضربة واحدة ، فقطعه نصفين[2].

* * *

قال نصر : فحدثنا محمد بن عبيد الله ، قال : حدثنى الجرجانىّ ، قال : جزع معاوية على حُريث جَزَعاً شديدا ، وعاتب عمرا فى إغرائه إياه بعلىّ عليه السلام ، وقال فى ذلك شعرا :

حُرَيْثُ ألم تعلَمْ وجهلُك ضائرٌ بأنّ عليًّا للفوارس قاهرُ

وأنّ عليا لم يبارزه فارسٌ من الناس إلا أقصدَتْه الأظافرُ

أمرتُك أمراً حازما فعصيتَنى فجَدُّك إذ لم تقبل النُّصْحَ عاثرُ

وَدَلّاك عمرو والحوادِثُ جَمّةٌ غُروراً، وما جرّت عليك المقادرُ

وظَنّ حريثٌ أن عمرا نصيحُهُ وقد يُهلِكُ الإنسانَ من لا يحاذرُ[3]

قال نصر : فلما قتل حُريث برز عمرو بن الحصين السَّكْسَكِى ، فنادى : يا أبا حسن ، هَلمّ إلى المبارزة ، فأومأ عليه السلام إلى سعيد بن قيس الهَمْدانىّ ، فبارزه فضربه بالسيف فقتله[4].

---

(١) بعده فى صفين :

يَا أيُّها العبدُ الغريرُ المنتدِبْ اثبتْ لنا يا أيُّها الكلْبُ الكَلِبْ

(٢) صفين ٣٠٩

(٣) بعده فى صفين ٣١٠ :

أيركبُ عمرٌو رأسَهُ خوفَ سيفِهِ ويُصْلِى حُرَيْثًا ؟ إنّهُ لَغُرافِرُ

والغرافر : الأحمق .

(٤) صفين ٣٠٩ ، ٣١٠ .

وقال نصر : وكان لهمْدَان بلاء عظيم فى نصرة علىّ عليه السلام فى صِفِّين ، ومن الشعر الذى لا يشكّ أن قائله علىّ عليه السلام لكثرة الرواة له :

دعوتُ فلبّانى من القوم عصبةٌ فوارسُ من هَمْدان غيرُ لئام[1]

فوارسُ مِن هَمْدَان ليسُوا بعُزّلٍ غَداة الوَغَى من شاكرٍ وشِبَام[2]

بكلّ رُدينىٍّ وعَضْبٍ تخاله إذا اختلف الأقوام شُعْلَ ضِرَام

لهمْدان أخلاقٌ كرام تزينهمْ وبأس إذا لاقَوْا وحَدٌّ خصامِ[3]

وجِدٌّ وصدقٌ فى الحروب ونجدةٌ وقول إذا قالُوا بغير أثام

متى تأتهمْ فى دارِهمْ تستضيفهمْ تَبِتْ ناعماً فى خِدْمةٍ وطعامِ

جَزَى الله هَمْدَان الجِنانَ فإنها سِمَام العِدَا فى كلّ يوم زحام

فلو كنتُ بواباً على بابِ جنةٍ لقلتُ لهمْدَان ادخلوا بسلام

***

قال نصر : فحدثنى عمرو بن شمر ، قال : ثم قام علىّ عليه السلام بين الصّفين ، ونادى : يامعاوية ، يكررها ؛ فقال معاوية : سَلُوه ماشأنه ؟ قال : أحِبّ أن يظهر لى فأكلّمه كلمة واحدة . فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص ، فلما قارباه ، لم يلتفت إلى عمرو ، وقال لمعاوية : ويحك ! علام يقتتل[4] الناس بينى وبينك ، ويضرب بعضهم بعضا ! ابرز إلىّ ، فأيّنا قتل صاحبَه فالأمر له . فالتفت معاوية إلى عمرو ، فقال : ماترى ياأبا عبد الله ؟ قال : قد أنصفك الرجل ، واعلم أنك إن نكلْتَ عنه لم يزل سُبّةً عليك وعلى عَقِبك مابقىَ على ظهر الأرض عربىّ . فقال معاوية : يابنَ العاص ؛ ليس مثلى يُخْدَعُ عن نفسه ، والله مابارز ابنَ أبى طالب شجاع قطّ إلا وسقى الأرض من دمه ؛ ثم انصرف معاوية راجعا حتى انتهى إلى

(١) صفين ٣٠٤ ، ٣٠٦ .

(٢) شاكر وشبام : بطنان فى همدان .

(٣) صفين : « أخلاق ودين يزينهم » ، والحد : الحدة .

(٤) ب : « يقتل » .

آخر الصفوف وعمرو معه، فلما رأى عليٌّ عليه السلام ذلك ضحِك، وعاد إلى موقفه.

قال نصر: وفي حديث الجرجاني أنّ معاويةَ قال لعمرو: وَيحك ما أحمقك! تدعوني إلى مبارزته، ودوني عكٌّ وجُذام والأشعرون[1]!

* * *

قال نصر: قال: وحقَدها معاوية على عَمْرٍو باطنا، وقال له ظاهرا: ما أظنُّك قلت ماقلتَه يا أبا عبد الله إلا مازحا! فلما جلس معاوية مجلسه، أقبل عمرو يمشي حتى جلس إلى جانبه، فقال معاوية:

يا عمرُو إنك قد قَشَرْتَ لِيَ العَصا ... برضاك لي وَسْطَ العجاج برازِي

يا عمرو إنك قد أشرْتَ بظِنَّةٍ ... حَسْبُ المبارز خطفة من بازِي[2]

ولقد ظننتُك قلتَ مزحةَ مازحٍ[3] ... والمزل يحمله مقالُ المازِي

فإذا الذي منَّتْكَ نفسُك حاكِيا ... قتلي، جزاك بما نويت الجازِي

ولقد كشفتَ قناعها مذمومةً ... ولقد لبستَ بها ثياب الخازِي

فقال عمرو: أيها الرجل، أتجبن عن خَصْمِك، وتتَّهم نصيحك! وقال مجيبا له:

معاويَ إنْ نَكَلْتَ عن البِرَازِ ... وخِفتَ فإنَّها أمّ المخازِي[4]

معاويَ ما اجترمتُ إليك ذنبًا ... ولا أنا في الذي حدَّثتُ خازِي[5]

---

(١) صفين ٣١١، ٣١٢

(٢) في صفين ٣١٣:

يا عمرو إنكَ قد أشرتَ بظنَّةٍ ... إنّ المبارزَ كالجَدِيّ النَّازِي

ما للملوكِ وللبِرَازِ وإنّما ... حَتْفُ المبارِزِ خَطفةٌ لِلبَازِي!

(٣) صفين:

* ولقد أعدتَ فقلتَ مزحةُ مازحٍ *

(٤) صفين:

* لكَ الوَيلاتُ فانظُرْ في المخازِي *

(٥) صفين «في التي حدثت بخازي»، بتخفيف الدال في «حدثت».

وما ذنبي بأنْ نادَى عَلِيٌّ وَكَبْشُ القَوْمِ يُدْعَى للبرازِ !

ولو بارزتَه بارزتَ ليثاً حديدَ النّابِ يخطف كلَّ بازى

وَتَزْعُمُ أنّى أضمرتُ غِشّاً جَزانِى بالّذِى أضمَرْتُ جازى

* * *

وروى ابن قتيبة فى كتابه المسمى " عيون الأخبار " [1] قال : قال أبو الأغرّ التميمىّ : بينا أنا واقف بصِفّين ، مَرّ بى العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، مكفّرا بالسّلاح ، وعيناه تبصّان من تحت المِغفر ، كأنهما عينا أرقم ، وبيده صفيحة يمانية يقلّبها ، وهو على فَرَس له صَعْب ؛ فبينا هو يمثه [2] ، ويلّين من عريكته ؛ هتف به هاتف من أهلِ الشام ؛ يعرَف بعرار بن أدهم : ياعباس ، هلّم إلى البراز ! قال العباس : فالنزول إذاً فإنه إياسٌ من القفول ؛ فنزل الشامىّ ، وهو يقول :

إن تَركبُوا فرُكوبُ الخيلِ عادتُنا أو تنزلون فإنا مَعْشَرٌ نُزُلُ [3]

وثنى العباس رجلَه ، وهو يقول :

ويصدّ عنك مَخيلةَ الرّجـل العـرِّيض موضِحة عن العظمِ

بحُسام سيفك أو لسانِك ، والكَلِمُ الأصيل كأرغَبِ الكلمِ

ثم عَصَب فَضَلات دِرْعه فى حُجْزَته [4] ، ودفع فرسه [5] إلى غلام له أسود ؛ يقال له أسلم ،

---

(١) عيون الأخبار ، بروايته عن أبى سولة التميمى ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبى الأغر .

(٢) المث : الضرب الخفيف ، وفى عيون الأخبار : « يمنعه » .

(٣) لأعشى قيس ؛ ديوانه ٨ ، والرواية هناك :

* قالوا الركوبُ فقلنا تلكَ عادتُنا *

(٤) الحجزة : معقد الإزار .

(٥) عيون الأخبار : « قوسه » .

كأنى والله أنظر إلى فلافل شعره ، ثم دَلَف كلٌّ واحـد منهما إلى صاحبه ، فذكرت قول أبى ذؤيب :

فتنازَلا وتواقفَتْ خَيْلاهُمَا وكِلاهما بطل اللّقاء مُخَدَّعُ [1]

وكفت الناس أعنّةَ خيولهم ينظرون ما يكون من الرجلين ؛ فتكافحا بسيفيهما مَلِيًّا من نهارهما ؛ لا يصل واحدٌ منهما إلى صاحبه لـكمال لأمته ؛ إلى أن لحظ العباس وَهْنًا فى درع الشامىّ ؛ فأهوى إليه بيده ، فهتـكه إلى ثُنْدُوَته [2] ، ثم عاد لمجاولته ، وقد أصحر له [3] مفتّق الدرع ، فضربه العباس ضَرْبَةً انتظم بها جوانحَ صدره، نخرَّ الشامىّ لوجهه ؛ وكبَّر الناسُ تكبيرة ارتجت لها الأرض من تحتهم ، وسما [4] العباس فى الناس ؛ فإذا قائل يقول : من ورائى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ۞ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ [5] ، فالتفتُّ فإذا أمـير المؤمنين عليـه السلام ، فقال لى : يا أبا الأغرّ ، مَن المنـازل لعدوّنا ؟ قلت : هذا ابن أخيكم ، هذا العباس بن ربيعة ، فقال : وإنه لهو ! ياعباس ألم أنهك ، وابن عباس ، أن تخِلّا بمراكزكما ؛ وأن تباشرا حربا ! قال : إنّ ذلك كان ؛ قال : فما عدا مما بدا ! قال : يا أمير المؤمنين ، أفأُدعَى إلى البراز فلا أجيب ! قال : نعم طاعة إمامك أولى من إجابة عـدوّك ؛ ثم تغيّظ واستطار حتى قلت : الساعة الساعة . ثم سكن وتطامن ؛ ورفع يديه مبتهِلا ، فقال : اللّهمّ اشـكر للعباس مقامه ، واغفر ذنبه؛ إنى قد غفرتُ له ، فاغفر له. قال : ولَهِف معاوية على عرار ، وقال: متى ينتطح فحل لمثله أيُطَلّ دمه! لاها الله إذاً ! ألا رجلٌ يشرى نفسه لله؛ يطلب بدم عرار ! فانتدب له رجلان من لخم

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ١٨ ، ومخدع : مجرب ؛ أى قد خدع مرة بعد أخرى حتى فهم وحذر .
(٢) الثندوة للرجل ، بمثل الثدى للمرأة .
(٣) أصحر له : برز له فى العراء ؛ وأصله الخروج إلى الصحراء .
(٤) العيون : « الشام » . (٥) سورة التوبة ١٤ ، ١٥ .

فقال لهما : اذهبا ، فأيكما قتل العباس برازاً فله كذا ، فأتياه ، فدعواه للبراز ؛ فقال : إن لي سيداً أريد أن أؤامره . فأتى علياً عليه السلام ، فأخبره الخبر ، فقال عليّ عليه السلام ، والله لودّ معاوية أنه ما بقيَ من بني هاشم نافخ ضَرمة إلا طُعِن في بطنه ، إطفاء لنور الله : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[1] ؛ أما والله ليملكنّهم منّا رجال ورجال يسومونهم الخسفَ ؛ حتى يحتفروا الآبار ؛ ويتكففوا الناسَ ؛ ويتوكّلوا على المساحي ؛ ثم قال : يا عباس ؛ ناقلني سلاحَك بسلاحي ، فناقله ، ووثب على فرس العباس ، وقصد اللخميّين ؛ فما شكّا أنه هو ، فقالا : أذن لك صاحبك ، فحرج أن يقول : نعم ، فقال : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[2] ، فبرز إليه أحدهما ؛ فكأنما اختطفه ، ثم برز له الآخر فألحقه بالأول ، ثم أقبل وهو يقول : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾[3] ثم قال : يا عباس ، خذ سلاحَك وهات سلاحي ، فإن عاد لك أحد فعدْ إليّ .

قال : فنُمِيَ الخبرُ إلى معاوية ؛ فقال : قبّح الله اللّجاج إنه لقعود ما ركبتُه قطّ إلا خذلت . فقال عمرو بن العاص : المخذول والله اللّخميّان لا أنت ! فقال : اسكت أيها الرجل ؛ وليست هذه من ساعاتك ، قال : وإن لم يكن فرحم الله اللخميّين وما أراه يفعل ! قال : فإنّ ذاك والله أخسرُ لصفقتك ، وأضيق لحجرتك .

قال : قد علمت ذاك ؛ ولولا مصر لركبتُ المنجاة منها ، قال : هي أعمتك ، ولولاها ألفيت بصيراً[4] .

* * *

(١) سورة التوبة ٣٣
(٢) سورة الحج ٣٩
(٣) سورة البقرة ١٩٤
(٤) عيون الأخبار ١ : ١٧٩ – ١٨١

قال نصر بن مزاحم : وحدثنا عمرو ، قال : حدثنى فضيل بن خَدِيج ، قال : خرج رجلٌ من أهل الشام يدعُو إلى المبارزة ، فخرج إليه عبد الرحمن بن محرز الكندىّ [ثم الطُّمَحِىّ] (١) ، فتجاوَلَا ساعة . ثم إنّ عبد الرحمن حَمَل على الشامىّ ، فطعنه فى نُقْرَةِ (٢) نحره فصرَعه ؛ ثم نزل إليه فسلبه دِرْعه وسلاحه ؛ فإذا هو عبدٌ أسود ؛ فقال: إنا لله ! أخطرت نفسى بعبد أسود ! قال: وخرج رَجُلٌ من عَكّ ، فسأل البراز ، فخرج إليه قيس بن فهران (٣) الكندىّ ، فلما لبثه أن طعنه فقتله ، وقال :

لقد علمتْ عَـكٌّ بصِفِّين أننا   إذا ما تلاقَى الخيلُ نطعنُها شَزْرَا (٤)

ونحمـــــلُ راياتِ القتال بحقِّها   فنُوردها بِيضاً ونُصْدِرُها حُمْرَا

قال : وحمل عبد الله بن الطفيل البكائىّ على صفوف أهل الشام ، فلما انصرف حَمَل عليه رجل من بنى تميم يقال له قيس بن فهد الحنظلىّ اليربوعى (٥) ، فوضع الرمحَ بين كتفَىْ عبد الله ، فاعترضه يزيد بن معاوية البكائىّ ، ابن عم عبد الله بن الطفيل ، فوضع الرمحَ بين كتفَى التميمىّ ، وقال : والله لئن طعنته لأطعننك، فقال : عليك عهدُ الله لئن رفعتُ السنان عن ظهر صاحبك لترفعنّه عن ظهرى ! قال : نعم ، لك العهد والميثاق بذلك . فرفع السنان عن ظَهْر عبد الله ، فرفع يزيد السنان عن التميمىّ ، فوقف التميمى ، وقال ليزيد : ممن أنت ؟ قال : من بنى عامر ، قال : جعلنى الله فداكم ! أينما لقيناكم كراما . أما والله إنى لآخرُ أحد عشر رجلا من بنى تميم قتلتموهم اليوم (٦) .

قال نصر : فبعد ذلك بدهْرٍ عتب يزيد على عبد الله بن الطفيل ، فأذكره ما صنع معه يوم صفين ، فقال :

---

(١) تكملة من صفين .   (٢) الطبرى : « نقرة نحره » ، وهما بمعنى .

(٣) فى الطبرى : « ابن فهد » .

(٤) صفين ٤٠٣ ، الطبرى ٥ : ٣٠

(٥) صفين : « ابن نهد » ، والطبرى : « ابن قرة » .

(٦) تاريخ الطبرى ٥ : ٢٩

ألم ترنى حاميتُ عنك مُناصحاً بصفّين إذ خــلّاكَ كلُّ حميمِ
ونهنهتُ عنك الحنظلىّ وقد أتى على سابحٍ ذى مَيْعَة وهزيم [١]

قال نصر: وخرج ابن مقيدة الحمار الأسدى ـ وكان ذا بأس وشجاعة، وهو من فرسان الشام ـ فطلب البراز ، فقام المقطع العامرىّ ، وكان شيخا كبيراً ، فقال على عليه السلام له : اقعد ، فقال : ياأمير المؤمنين لاتردّنى ، إمّا أن تقتُلَنى فأتعجلَ الجنة وأستريح من الحياة الدنيا فى الكِبَر والهرم ، أو أقتله فأريحك منه .

وقال له عليه السلام : مااسمك ؟ قال : المقطَّع ، قال : مامعنى ذلك ؟ قال : كنت أدعى هشيما، فأصابتنى جراحة منكرة،فدعيت المقطع منها ؛ فقال له عليه السلام : اخرج إليه ، وأقدم عليه ؛ اللهم انصر المقطّع على ابن مقيدة الحمار ؛ فحمل على ابن مقيدة الحمار ، فأدهشه لشدّة الحملة ، فهرب وهو يتبعه ، حتى مرّ بمضرب [٢] معاوية حيث يراه والمقطّع على أثره ؛ فجاوزا معاوية بكثير ؛ فلما رجع المقطّع ورجع ابن مقيدة الحمار ، ناداه معاوية : لقــد شمّس [٣] بك العراقىّ ، قال : أما إنه قد فعل أيهــا الأمير ؛ ثم عاد المقطع ، فوقف فى موقفه .

قال نصر : فلما كان عامُ الجماعة ، وبايع الناس معاوية ، سأل عن المقطع العامرىّ ؛ حتى أدخل عليه ؛ وهو شيخ كبير ، فلما رآه قال : آه ؛ لولا أنك على مثل هذه الحال لما أفلتَّ منى ؛ قال : نشدتك الله إلّا قتلتنى وأرحتنى من بؤس الحياة ؛ وأدنيتنى إلى لقاء الله ، قال : إنى لا أقتلك ؛ وإنّ بى إليك لحاجة،قال : ماهى ؟ قال : أحبّ أن تواخينى، قال : إنّا وإياكم ، افترقنا فى الله ، فلا نجتمع حتى يحكُمَ الله بيننا فى الآخرة .

---

(١) ميعة الفرس : نشاطه ؛ يقال : « الفرس فى ميعة جريه » . والهزيم هنا : صوت جرى الفرس .
(٢) المضرب : الفسطاط العظيم .
(٣) شمس : عجل .

قال : فزوِّجني ابنتك،قال : قد منعتُك ماهو أهون علىّ من ذلك ، قال : فاقبلْ مِنى صلة ، قال : لا حاجة لى فيما قِبلَك .

قال : فخرج من عنده ولم يقبل منه شيئا[1] .

قال نصر : ثم التقى الناس،فاقتتلوا قتالا شديدا، وحاربت طَيِّئٌ مع أمير المؤمنين عليه السلام حربا عظيما ، وتداعَتْ وارتجزت، فقتل منها أبطال كثيرون، وفقئت عينُ بشر بن العوس الطائىّ ــ وكان من رجال طيئٍ وفرسانها ــ فكان يذكر بعد ذلك أيام صِفِّين ، فيقول : وددت أنى كنت قُتِلت يومئذ ، ووددت أن عينى هذه الصحيحة فقئت أيضا ، وقال :

ألا لَيْتَ عَيْنِى هَذِهِ مثلُ هذِهِ ... ولم أمشِ بَيْنَ النــاسِ إلا بقائِدِ

ويالَيتَ رِجْلِي ثمّ طُنَّتْ بنصفِها[2] ... وياليتَ كَفِّى ثمّ طاحتْ بساعِدِى

وياليتني لم أبقَ بعــد مطرِّفٍ ... وسعد وبعــد المستنير بنِ خالدِ

فوارسُ لم تَغْذُ الحواضن مثلَهُم ... إذا هي أبدت عن خِدَام الخرائد[3]

* * *

قال نصر : وأبلتْ محارب يومئذ مع أميرِالمؤمنين عليه السلام بلاء حسنا،وكان عنتر ابن عبيد بن خالد بن المحاربىّ أشجعَ الناس يومئذ ، فلما رأى أصحابَه متفرقين ، ناداهم : يامعشرَ قيس ، أطاعة الشيطان أبرّ عندكم من طاعة الرحمن ! ألا إنّ الفرار فيه معصية الله وسخطه ، وإن الصبر فيه طاعة الله ورضوانه،أفتختارون سخط الله على رضوانه،ومعصيته على طاعته ! ألا إنما الراحةُ بعد الموت لمن مات محتسبا لنفسه ، ثم يرتجز فيقول :

لا وألَتْ نفسُ امرئٍ ولَّى الدُّبُرْ ... أنا الذى لا أنثنِي ولا أفِرّ

---

(١) صفين ٣١٥ ــ ٣١٧

(٢) طنت : قطعت وسقطت .

(٣) الخدام : السيقان ؛ واحده خدمة ، والحواضن : الأمهات . والشعر والخبر فى صفين ٣١٧ .

* وَلَا يُرَى مع المَازِبلِ الفُدُرْ *

وقاتل حتى ارتُثّ .

قال نصر : وقاتلت النَّخَع مع علىّ عليه السلام ذلك اليوم قتالاً شديداً ، وقطعت رجلُ علقمة بن قيس النَّخَعىّ ، وقتِل أخوه أبىّ بن قيس ، فكان علقمة يقول بعد: ما أُحِبّ أن رجلى أصحُّ ما كانت؛ لما أرجو بها من حسن الثواب . وكان يقول : لقد كنتُ أُحِبّ أن أبصر أخى فى نومى ؛ فرأيته ، فقلت له : ياأخى ، ما الذى قدِمتم عليه ؟ فقال لى: التقينا نحن وأهل الشام بين يدى الله سبحانه ، فاحتججنا عنده ، فحجَجْناهم . فما سررت بشىء منذ عقلت سرورى بتلك الرؤيا [1] .

* * *

قال نصر :وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن سويد بن حبة البصرى [2] ، عن الحضين بن المنذر الرّقاشىّ ، قال : إنّ ناسا أتوا عليا عليه السلام قبل الوقعة فى هذا اليوم ؛ فقالوا له :إنّا لا نرى خالد بن المعمر السّدوسىّ إلا قد كاتب معاوية ، وقد خشينا أنْ يلتحق به ويبايعه ؛ فبعث إليه علىٌّ عليه السلام وإلى رجال من أشراف ربيعة ؛ فجمعهم ، فحمد الله وأثنى عليه، وقال : يامعشرَ ربيعة ، أنتم أنصارى ومجيبو دعوتى ؛ ومِنْ أوثق أحياء العرب فى نفسى ؛ وقد بلَغنى أنّ معاويةَ قد كاتب صاحبَكم هذا ؛ وهو خالد بن المعمّر ، وقد أتيتُ به وجمعتكم لأشهدَكم عليه ، وتسمعُوا منّى ومنه .

ثم أقبل عليه فقال : ياخالد بن المعمّر ، إن كان مابلَغنى عنك حقًّا ؛ فإنى أُشهِدُ مَنْ حَضَرَنى من المسلمين أنك آمن ؛ حتى تلحق بالعراق ، أو بالحجاز ، أو بأرض لاسلطان لمعاوية فيها ، وإن كنتَ مكذوبا عليك ، فأبِرّ صدورَنا بأيمانٍ نطمئنّ إليها ؛ فحلف له

(١) صفين ٣٢٢ ، الطبرى : ٦ : ٣٢
(٢) صفين « النصرى » .

خالد بالله ما فعلَ ، وقال رجال منّا كثير : والله يا أمير المؤمنين لو نعلم أنّه فعل لقتلناه .

وقال شقيق بن ثور [السدوسيّ] : ما وفق الله خالد بن المعمّر حين ينصر معاوية وأهلَ الشام على عليّ وأهل العراق وربيعة . فقال له زياد بن خَصَفة : يا أمير المؤمنين ، استوثِقْ من ابن المعمّر بالأيمان ، لا يغدِرْ بك ؛ فاستوثق منه . ثم انصرفوا .

فلما تصافّ الناس في هذا اليوم ، وحمل بعضُهم على بعض ، تضعضعت ميمنةُ أهلِ العراق ، فجاءنا عليّ عليه السلام ومعه بنُوه ؛ حتى انتهى إلينا ، فنادى بصوت عال جهير : لمن هذه الرايات ؟ فقلنا : رايات ربيعة ، فقال : بل هي راياتُ الله عَصم الله أهلها ، وصبّرهم وثبّت أقدامهم ؛ ثم قال لي وأنا حامل رايةَ ربيعة يومئذ : يا فتى ، ألا تُدنِي رايتَك هذه ذراعاً ؟ فقلت : بلى ، والله وعشرة أذرع ، ثم ملت بها هكذا ، فأدنيتُها ، فقال لي : حسبك مكانك[1] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، قال : حدثني يزيد بن أبي الصلت التيميّ ، قال : سمعت أشياخَ الحيّ من بني تيم بن ثعلبة يقولون : كانت راية ربيعة كلّها : كوفيتِها وبصريتها ، مع خالد بن المعمّر ، السدوسيّ من ربيعة البصرة ، ثم نافسه في الراية شقيق بن ثور ؛ من بكر ابن وائل من أهل الكوفة ، فاصطلحا على أن يولّيا الراية لحُضَين بن المنذر الرقاشيّ ، وهو من أهل البصرة أيضاً ، وقالوا : هذا فتى له حَسَبٌ ، نُعطيه الراية إلى أن نرى رأينا ؛ وكان الحُضَين يومئذ شاباً حَدَث السنّ .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، قال : أقبل الحضَين بن المنذر يومئذ وهو غلام يزحف براية ربيعة ، وكانت حمراء ، فأعجب عليا عليه السلام زحفه وثباته ، فقال :

---

(١) صفين ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، وتاريخ الطبري ٥ : ٣٢ .

لِمَنْ رايةٌ حمراء يخفقُ ظِلُّها ... إذا قيلَ قَدِّمها حُضَيْنُ تقدّما
ويدنُو بها فى الصّفّ حتى يُزِيرَها[1] ... حِمامَ المنايا تقطرُ الموت والدما[2]
تَراهُ إذا ما كان يومُ عظيمةٍ ... أَبَى فيه إلا عزّةً وتكرُّما
جزَى الله قوماً صابَرُوا فى لقائِهِمْ ... لدَى الناس حرًّا ما أعفّ وأكرما !
وأحزمَ صَبْرًا يوم يُدْعى إلى الوغَى ... إذا كان أصواتُ الكماة تغمغُما
ربيعةَ أعنِى ، إنهم أهل نجدةٍ ... وبأس إذا لاقوْا خَمِيساً عَرَمْرَما[3]
وقد صبرت عكٌّ ولخمٌ وحِمْيَرٌ ... لمذحِجَ حتّى لم يفارقْ دمٌ دماَ
ونادت جُذامٌ : يالَ مذحِجَ ويحكم[4] ! ... جزَى الله شرًّا أيّنا كانَ أظلما
أما تتقون الله فى حُرُماتِكُمْ ... وما قرّبَ الرحمنُ منها[5] وعظّما !
أذقْنا ابن حرْب طعنَنا وضِرابَنا ... بأسيافِنا حتّى تولّى وأحجَما
وفرّ ينادى الزِّبرقَان وظالمًا ... ونادى كَلاعاً والكُرَيبَ وأنعما
وعمرا وسُفيانا وجَهْماً ومالكا ... وحَوْشَبَ والغاوى شُرَيحاً وأظلما
وكُرزَ بن تَيْهانٍ وعمرو بن جَحْدَرٍ ... وصَبّاحا القيْنىّ يدعو وأسلما[6]

قلت : هكذا روى نَصْر بن مزاحم ، وسائر الرواة رَوَوْا له عليه السلام الأبيات الستة الأولى ، ورووا باقى الأبيات ، من قوله : « وقد صبرتْ عكٌّ » للحضَين بن المنذر صاحب الراية[7] .

قال نصر : وأقبل ذو الكَلاع فى حمير ومن لفّ لفّها ، ومعهم عبيد الله بن عمر

---

(١) صفين : « حتى يديرها » .
(٢) الطبرى : « حياض المنايا » .
(٣) الخميس : الجيش .
(٤) صفين : « ويلكم » .
(٥) ب : « فيها » .
(٦) صفين : « وكرز بن نبهان » .
(٧) صفين ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، وتاريخ الطبرى ٥ : ٣٧ ، ٣٨

ابن الخطاب فى أربعة آلاف من قُرّاء أهل الشام، وذو الكَلاع فى حِمْير فى الميمنة، وعبيدالله فى القرّاء فى الميسرة ، فحملوا على ربيعة ــ وهم فى مَيْسرة أهل العراق؛ وفيهم عبيدالله بن العباس ــ حملة شديدة ، فتضعضعت رايات ربيعة .

ثم إنّ أهل الشام انصرفوا فلم يمكثوا[1] إلا قليلا ؛ حتى كرّوا ثانية وعبيد الله بن عمر فى أوائلهم ؛ يقول : يأهل الشام ، هذا الحىّ من العراق قتلة عثمان بن عفان وأنصار علىّ ابن أبى طالب ؛ ولئن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثأركم من عثمان ، وهَلَك علىّ وأهل العراق . فشدّوا على الناس شدّةً عظيمة ، فثبتت لهم ربيعة ، وصبرت صبراً حسناً ، إلا قليلا من الضعفاء .

فأما أهل الرايات وذَوُو البصائر منهم والحفّاظ، فثبتوا وقاتلوا قتالا شديداً . وأما خالد ابن المعمّر ؛ فإنّه لما رأى بعض أصحابه قد انصرفوا انصرف معهم ، فلما رأى أهلَ الرايات ثابتين صابرين رجع إليهم وصاح بمن انهزم ؛ وأمرهم بالرجوع ؛ فكان من يتّهمه من قومه ، يقول: إنه فرّ، فلما رآنا قد ثبتنا رجع إلينا ؛ وقال هو : لما رأيتُ رجالا منّا قد انهزمُوا، رأيت أن أستقبلَهم ثم أردّهم إلى الحرب ؛ فجاء بأمر مشتبه[2] .

قال نصر : وكان فى جملة ربيعة من عَنَزة وحدها أربعة آلاف مُجَفّف[3] .

قلت : لاريب عند علماء السيرة أن خالد بن المعمّر كان له باطن سوء مع معاوية، وأنه انهزم هذا اليوم ليكسر الميسرة على علىّ عليه السلام ؛ ذكر ذلك الكلبي[4] والواقدىّ وغيرهما . ويدلّ على باطنه هذا أنّه لما استظهرت ربيعةُ على معاوية وعلى صفوف أهل الشام فى اليوم الثانى من هذا أرسل معاوية إلى خالد بن المعمّر : أن كُفَّ عنى ولك إمارة خراسان

---

(١) ج : « لم يلبثوا » .

(٢) صفين ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

(٣) المجفف : من يلبس التجفاف ؛ وهو ماجلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه السهام .

(٤) ج : « ابن الكلبى » .

ما بقيت . فكفّ عنه ، فرجع بربيعة ، وقد شارفوا أخذه من مضربه ، وسيأتي ذكر ذلك .

* * *

قال نصر : فلما رجع خالد بن المعمّر واستوت صفوف ربيعة كما كانت ، خطبهم فقال :

يا معشرَ ربيعة : إنّ الله تعالى قد أتى بكلِّ رجل منكم من منبته ومسقط رأسه ، فجمعكم في هذا المكان جمعاً لم تجتمعوا مثله قطّ منذ أفرشكم الله الأرض؛ وإنكم إن تمسكوا أيديكم ، وتنكلوا عن عدوّكم وتحولوا عن مصافكم، لا يرضى الربّ فعلكم ولا تعدموا معيّرا يقول : فضحت ربيعة الذّمار، وخاموا[١] عن القتال ، وأُتيت من قبلهم العرب؛ فإياكم أن يتشاءم بكم اليوم المسلمون . وإنكم إن تمضوا مقدمين وتصبروا محتسبين ؛ فإنّ الإقدام منكم عادة ، والصبر منكم سجيّة ، فاصبروا ونيّتكم صادقة تؤجروا ، فإنّ ثوابَ مَنْ نوى ما عند الله شرفُ الدنيا وكرامة الآخرة ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

فقام إليه رجل من ربيعة ، وقال : قد ضاعَ والله أمرُ ربيعة حين جعلتْ أمرَها إليك؛ تأمرنا ألّا نحول ولا نزول ؛ حتى نقتل أنفسنا ، ونسفك دماءنا !

فقام إليه رجال من قومه، فتناولوه بقسيّهم ،ولكزُوه بأيديهم؛ وقالوا لخالد بن المعمّر: أخرجوا هذا من بينكم ، فإنّ هذا إن بَقِيَ فيكم ضرّكم ، وإن خرج منكم لم ينقصكم عدداً ؛ هذا الذى لا ينقص العددَ ، ولا يملأ البلد. ترّحك[٢] الله من خطيب قوم ! لقد جنّبك الخير . قبح الله ما جئت به !

---

(١) خاموا : جبنوا .
(٢) صفين : « برحك »

قال نصر : واشتدّ القتال بين ربيعة وحمير وعبيدالله بن عمر حتى كثرت القتلى ، وجعل عبيـدالله يحمل ويقول : أنا الطيب ابن الطيب ؛ فتقول له ربيعـة : بل أنت الخبيث ابن الطيب .

ثم خرج نحو خمسمائة فارس أو أكثر من أصحاب علىّ عليه السلام على رءوسهم البَيض ؛ وهم غائصون فى الحديد ، لا يُرَى منهم إلا الحدَق ؛ وخرج إليهم من أهل الشام نحوهم فى العدّة ، فاقتتلوا بين الصَّفَّين ، والناس وقوف تحت راياتهم ؛ فلم يرجع مِنْ هؤلاء ولا من هؤلاء مخبر ؛ لا عراقىّ ولا شامىّ ، قتلوا جميعا بين الصفين[١] .

***

قال نصر : وحدثنـا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن تميم ، قال : نادى منادى[٢] أهل الشام : ألا إن معنا الطيب ابن الطيب ، عبيد الله بن عمر ، فنادى منادى أهل العراق بل هو الخبيث ابن الطيب ؛ ونادى منادى أهل العراق : ألا إن معنا الطيب ابن الطيب محمد بن أبى بكر ، فنادى منادى أهل الشام : بل الخبيث ابن الطيب .

قال نصر : وكان بصِفِّين تَلٌّ تلقى عليه جماجمُ الرِّجال ، فـكان يدعى تلَّ الجماجم ، فقال عُقْبة بن مسلم الرُّقاشى من أهل الشام :

وَلَمْ أرَ فُرسانًا أشدَّ حفيظة[٣] وأمنعَ مِنّا يومَ تَلِّ الجماجِمِ
غداة غدا أهلُ العراق كأنهمْ نعامٌ تلاَقَى فى فِجاجِ المخارِمِ
إذا قلتُ قدوَلَّوْا تثوب كتيبةٌ[٤] ملمْلَمَةٌ فى البيض شُمْطُ المَقادِمِ[٥]
وقالوا لنا : هـذا علىٌّ فبايعوا فقلنا : صه بلْ بالسُّيوف الصوارِمِ[٦]

---

(١) صفين ٣٢٩ ، ٣٣٠

(٢) ساقطة من ب .

(٣) صفين : « أشد بديهة » .

(٤) صفين : « أنابت كتيبة » .

(٥) ململمة : مجتمعة .

(٦) صفين : « فقلنا ألا لا » .

وقال شبث بن ربعى التميمى :

وقفنا لديهم يوم صفين بالقنا ... لدن غدوة حتى هوت لغروب

وولى ابن حرب والرماح تنوشه ... وقد أرضت الأسياف كل غضوب

نجالدهم طوراً وطوراً نشلهم ... على كل محبوك السراة شبوب[1]

فلم أر فرساناً أشد حفيظة ... إذا غشى الآفاق رهج جنوب[2]

أكر وأحمى بالمطاريف والقنا ... وكل حديد الشفرتين قضوب[3]

قال نصر : ثم ذهب هذا اليوم بما فيه ، فأصبحوا فى اليوم التاسع من صفر ، وقد خطب معاوية أهل الشام وحرضهم ، فقال :

إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وحضركم ما حضركم ، فإذا نهدتم إليهم إن شاء الله ، فقدموا الدارع ، وأخروا الحاسر ، وصفوا الخيل وأجنبوها ، وكونوا كقص الشارب ، وأعيرونا جماجمكم ساعة ؛ فإنما هو ظالم أو مظلوم ؛ وقد بلغ الحق مقطعه[4] .

* * *

قال نصر : وروى الشعبى ، قال : قام معاوية فخطب الناس بصفين فى هذا اليوم ؛ فقال :

الحمد لله الذى دنا فى علوه ؛ وعلا فى دنوه ، وظهر وبطن ؛ وارتفع فوق كل ذى

---

(١) نشلهم : نطردهم ؛ وفى صفين : « نصدهم » . والسراة : الظهر . ومحبوك السراة : مدمجها . وبعده فى صفين :

بكل أسيل كالقراط إذا بدت ... لوائحها بين الكماة ، لعوب

نجالد غساناً وتشقى بحربنا ... جذام ووتر العبد غير طلوب

(٢) كذا فى ب ، وفى صفين : « نقع جنوب » ، والرهج : الغبار .

(٣) ب : « عضوب » .

(٤) صفين ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

منظر ؛ هو الأوّل والآخر ، والظاهر والباطن[1] ، يقضى فيفصل ، ويقدّر فيغفر ، ويفعل مايشاء ؛ إذا أراد أمراً أمضاه ، وإذا عزم عَلَى شىء قضاه ؛ لا يؤامر أحداً فيما يملك ؛ ولا يُسألُ عمّا يفعل وهم يُسألون ؛ والحمدُ لله ربّ العالمين ؛ على ماأحببنا وكرهنا. وقدكان فيما قضاه الله أنْ ساقتنا المقادير إلى هذه البُقعة من الأرض ، ولفّ بيننا وبين أهل العراق، فنحن من الله بمنظرٍ ؛ وقد قال الله سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَااقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَايُرِيدُ ﴾[2] .

انظروا ياأهلَ الشام ، إنكم غدا[3] تلقون أهلَ العراق ؛ فكونوا على إحدى ثلاث خصال : إمّا أن تكونوا قوماً طلبتم ماعند الله فى قتال قوم بَغَوا عليكم ، فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا فى بَيْضتكم ؛ وإمّا أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيّكم ؛ وإمّا أن تكونوا قوما تذُبّون عن نسائكم وأبنائكم . فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل ؛ أسأل الله لنا ولكم النّصر ؛ وأنْ يفتح بيننا وبين قومنا بالحقّ ؛ وهو خير الفاتحين .

فقام ذو الكَلاع ، فقال :

يامعاوية ، إنا نحنُ الصُّبُر الكِرام ، لا نَنْثَنِى عِند الخصام ؛ بنو الملوكِ العِظَام ، ذوى النُّهى والأحلام ، لا يقربون لآثام .

فقال معاوية : صدقت[4] .

* * *

(١) صفين : « وارتفع فوق كل منظر أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا » .

(٢) سورة البقرة ٢٥٣

(٣) صفين : « إنما تلقون » .

(٤) صفين ٢٢٣ ، ٢٢٤

قال نصر : وكانت التعبية فى هذا اليوم كالتعبية فى الذى قبله ، وحمل عبيدُ الله بن عمر فى قرّاء أهلِ الشام ، ومعه ذو الكَلاع فى حِمْير على ربيعة ، وهى فى ميسرة علىّ عليه السلام ، فقاتلوا قتالا شديدا ، فأتى زياد بن خَصَفة إلى عَبْد القيس ، فقال لهم : لا بَكْر بن وائلٍ بعد اليوم ! إن ذا الكَلاع وعُبيد الله أبادا رَبيعة ، فانهضوا لهم وإلا هلكوا . فركبت عبدُ القيس ، وجاءت كأنها غمامة سوداء فشدّت أزرَ الميسرة ، فعظم القتال ، فقتل ذو الكَلاع الحِميرىّ ، قتله رجل من بكْر بن وائل ، اسمه خِنْدف ، وتضعضعت أركان حمير ، وثبتت بعد قتل ذى الكَلاع تحارب مع عبيد الله بن عمر ؛ وأرسل عبيد الله إلى الحسن بن علىّ عليه السلام : إنّ لى إليك حاجةً فالقَنى ، فلقيه الحسن عليه السلام ، فقال له عبيد الله : إنّ أباك قد وَتَرَ قريشا أولا وآخرا ، وقد شنِئه الناسُ ، فهل لك فى خَلْعه ، وأنْ تتولى أنت هذا الأمر ! فقال : كلاّ والله ؛ لا يكون ذلك. ثم قال : يابن الخطاب ، والله لكأنى أنظرُ إليك مقتولا فى يومك أو غدك . أما إن الشيطان قد زَيّن لك وخَدَعك ؛ حتى أخرجك مخلقا بالخلوق ، ترى نساء أهلِ الشام موقفك ، وسيصرَعُك الله ، ويبطحك لوجهك قتيلا !

قال نصر : فو الله ما كانَ إلا بياضُ ذلك اليوم حتى قُتل عبيد الله ؛ وهو فى كتيبة رَقْطاء ، وكانت تدعى الخضريّة ؛ كانوا أربعة آلاف ؛ عليهم ثياب خُضْر ، فمرّ الحسن عليه السلام ؛ فإذا رجلٌ متوسّد برجل قتيل ؛ قد ركز رمحَه فى عينه ، وربط فرسَه برجله ؛ فقال الحسن عليه السلام لمن معه : انظرُوا مَنْ هذا ؟ فإذا رجلٌ من هَمْدان ، وإذا القتيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، قد قتله الهمدانىّ فى أوّل الليل ؛ وبات عليه حتى أصبح .

قال نصر : وقد اختلف الرواة فى قاتل عُبيد الله ؛ فقالت هَمْدان : نحن قتلناه ؛ قتله هانئُ بن الخطاب الهمْدانىّ ، وركز رمحه فى عينه ... وذكر الحديث . وقالت حضرموت : نحن قتلناه ، قتله مالك بن عمرو الحضرمىّ . وقالت بكر بن وائل : نحن قتلناه ، قتله محرز

ابن الصَّحصح من بنى تيم اللات بن ثعلبة ، وأخذ سيفه الوشاح .

فلما كان عامُ الجماعة طلب معاوية السيف من ربيعة الكوفة ، فقالوا : إنما قتله رجلٌ من ربيعة البصرة يقال له محرز بن الصَّحصح ، فبعث إليه معاوية ، فأخذ السيف منه[1] .

قال نصر : وقد روى أن قاتله حُريث بن جابر الحنفىّ ، وكان رئيس بنى حَنيفة يوم صِفّين مع علىّ عليه السلام ، حمل عبيد الله بن عمر على صَفّ بنى حنيفة ، وهو يقول :

أنا عُبيد الله ينميني عُمَرْ   خيرُ قريش مَنْ مَضَى ومَنْ غَبَرْ

إلا رسول الله والشيخ الأغَرّ   قد أبطأت عن نصر عثمان مُضَرْ

والربَعيّون فلا أُسْقُوا المطَرْ   وسارَعَ الحىّ اليمانون الغُرَرْ

• والخير فى الناس قديماً يُبتدَرْ •

فحمل عليه حُرَيث بن جابر الحنفىّ ، وقال :

قَدْ سارَعَتْ فى نَصْرِها رَبيعَهْ   فى الحقِّ والحقُّ لها شَرِيعَهْ

فاكفُفْ فلستَ تارِكَ الوقيعهْ   فى العُصبة السامعة المطيعَهْ

• حتى تذوقَ كأسَها الفَظيعَهْ •

وطعنه فصرعه .

قال نصر : فقال كعب بن جُعَيل التغلبىّ يرثى عبيد الله ، وكان كعبٌ شاعر أهل الشام :

ألا إنما تبكى العيونُ لفارسٍ   بصِفّين أجلَتْ خيلُه وهو واقفُ

تبدَّلَ مِنْ أسماء أسيافَ وائلٍ   وأىّ فتى لو أخطأتهُ المتالفُ !

---

(١) صفين : ٣٢٥ – ٣٢٧

تَرَكْتمْ عبيد الله في القاع مُسْلَماً ... يَمجّ دماء ، والعرُوق نوازِف (١)

ينوء وتَغْشاهُ شآبيبُ من دمٍ ... كالاح في جَيْب القميص الكفائفُ

دعاهنّ فاستَسْمَعْن من أينَ صوته ... فأقبلن شتّى والعيونُ ذوارِفُ

تحَمَّلْنَ عنه زرّ دِرْعٍ حصينة ... ويُنكِرُ منه بعد ذاك معارِفُ (٢)

وقرّت تميم سعدها وربابُهـــا ... وخالفت الخضراء فيمن يخالف

وقد صبرت حولَ ابن عمّ محمد ... لدى الموت شهباء المناكب شارِفُ

بمرْجٍ ترى الرايات فيـه كأنّها ... إذا اجنحت للطّعن طيْرٌ عواكفُ (٣)

فما برِحُوا حتى رأى الله صبرهم ... وحتّى أسرّت بالأكفّ المصاحفُ

جزى الله قتلانا بصِفّين خيْر ما ... أثيب عباد غادرتها المواقف (٤)

قلت : هذا الشعر نظمه كعب بن جُعَيل بعد رفع المصاحف وتحكيم الحكمين يذكر فيه مامضى لهم من الحرب على عادة شعراء العرب ، والضمير في قوله :

* دعاهنّ فاستسمعن من أين صوته *

يرجع إلى نساء عبيد الله ، وكانت تحته أسماء بنت عطارد بن حاجب بن زرارة التميمىّ وبحرية بنت هانئ بن قبيصة الشيبانىّ ، وكان عبيد الله قد أخرجهما معه إلى الحرب ذلك اليوم لينظرا إلى قتاله ، فوقفتا راجلتين ؛ وإلى أسماء بنت عطارد ، أشار كعب بن جُعَيل بقوله :

* تبدّل من أسماء أسيافَ وائل *

والشعر يدلّ على أن ربيعة قتلته ، لا همدان ولا حضرموت .

ويدلّ أيضا على ذلك مارواه إبراهيم بن ديزيل الهمدانىّ في كتاب صفين : قال شدّت

(١) ب : « تركن عبيد الله » . وفي ج : « العروق » .

(٢) هذا البيت وتاليه لم يذكرا في صفين

(٣) صفين : « اجنحت » ، أى مالت

(٤) صفين : ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

ربيعة الكوفة ، وعليها زياد بن خَصَفَة على عبيد الله بن عمر ذلك اليوم؛ وكان معاوية قد أقرَع بين الناس ، فخرج سهم عبيد الله بن عمر على رَبيعة فقتلته ، فلما ضُرِب فُسطاط زياد بن خَصَفَة بقى طُنُب من الأطناب لم يجدوا له وَتِداً ، فشدّوه برِجْل عبيد الله بن عمر ، وكان ناحية فجرّوه ، حتى ربطوا الطُّنب برجله ، وأقبلت امرأتاه حتى وقفتا عليه ،فبكتا عليه وصاحتا ، فخرج زياد بن خَصَفَة،فقيل له : هذه بَحرية ابنة هانئ بن قبيصة الشيبانىّ ابنة عمك ، فقال لها : ماحاجتُك يابنة أخى ؟ قالت : تدفع زوجى إلىّ ، فقال : نعم خذيه، فجيء ببغل فحملته عليه ، فذكروا أن يديه ورجليه خطّتا بالأرض عَنْ ظهر البغل .

* * *

قال نصر : ومما رثى به كعبُ بن جُعيل عُبيدَ الله بن عمر قولُه :

يقولُ عبيدُ الله لـمّـا بَدَتْ له سَحابةُ موتٍ تقطُر الحَتْفَ والدّما

ألا يالقومى فاصبرُوا إنّ صبرَكُمْ أعفُّ وأحجى عِفّةً وتكرُّما

فلما تدانى القوم خرّ مُجدَّلًا صريعاً تلاقى التربَ كفّيه والفَما

وَخلّف أطفالًا يتامى أذلّةً وعِرْساً عليه تَسكُب الدمعَ أيّما[1]

حَلالا لهـا الخطّاب لا يمنعنّهم وقد كان يحمِى غَيْرةً أن تُكلَّما

وقال الصَّلَتان العبدىّ يذكر مقتل عبيد الله ، وأنّ حريث بن جابر الحنفىّ قتله :

ألا ياعُبيدَ الله مازلتَ مُولَعاً ببكرٍ لها تُهدِى القرى والتّهددا[2]

وكنتَ سَفيهاً قَدْ تعوّدْتَ عادَةً وكلُّ امرئٍ جارٍ عَلى ماتعوّدا

فأصبحتَ مسلوباً على شرّ آلة صريعَ القنا تحت العجاجة مُفرداً

(١) صفين : « وخلف عرساً » .

(٢) صفين : « تهدى الخنا » ؛ والخنا : الباطل . وبعده :

كأنّ حماةَ الحىّ من بكرِ بن وائلٍ بذى الرّمث أُسْدٌ قد تبوأْنَ غرقدا

تشقّ عليك جيبها ابنة هانئ ٍ مُسَلّبة تبدى الشجا والتلدّدا[1]
وكانت ترى ذا الأمر قبل عِيانه ولكنّ حكم الله أهدى لك الرّدَى
وقالت عبيدَ الله لا تأتِ وائلاً فقلت لها لا تعجلى وانظرى غدا
فقد جاء ماقـــد مسَّها فتسلّبَت عليك ، وأمسى الجيبُ منها مقدّدا
حباك أخو الهيجا حُريث بن جابر بجياشة ٍ تحكى بهـا النهر مزبدا[2]
كأنّ حماة الحىّ بكر بن وائل بذى الرِّمْث أسدٌ قدّ تبوّأن غرْقدا

قال نصر : فأما ذو الـكَلاع فقد ذكرنا مقتله ، وأنّ قاتله خندف البكرى[3] .

***

وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : لما حَمل ذو الـكَلاع ذلك اليوم بالفَيْلق العظيم من حِمْير على صفوف أهل العراق ، ناداهم أبو شجاع الحميرىّ – وكان من ذوى البصائر مع علىّ عليه السلام – فقال : يامعشر حِمْير ، تبّت أيديكم ! أترون معاوية خيراً من علىّ عليه السلام ! أضلّ الله سعيكم . ثم أنت ياذا الـكَلاع قد كنّا نرى أن لك نيّةً فى الدين ، فقال ذو الـكَلاع : إيهاً يا أبا شجاع ! والله إنى لأعلم مامعاوية بأفضلَ من علىّ عليه السلام ولكنى أقاتلُ على دم عثمان ، قال : فأصيب ذو الـكَلاع حينئذ ، قتله خِنْدف بن بكر البكرىّ فى المعركة[4] .

***

قال نصر : فحدّثنا عمرو ، قال : حدّثنا الحارث بن حصيرة أن ابن ذى الـكَلاع ،

(١) صفين : « تشق عليك الجيب » . والتلدد : التلفت حيرة وأسفا
(٢) صفين :

* بجياشة تحكى المدير المندّدا *

(٣) صفين ٣٣٧ ، ٣٣٨
(٤) صفين ٣٤٠

أرسل إلى الأشعث بن قيس رسولًا يسأله أن يسلم إليه جثة أبيه ، فقال الأشعث : إنى أخاف أن يتهمنى أميرُ المؤمنين فى أمره ، فاطلبه من سعيد بن قيس فهو فى الميمنة ، فذهب إلى معاوية فاستأذنه أن يدخل إلى عسكر علىّ عليه السلام ، يطلب أباه بين القتلى ، فقال له : إنّ عليا قد منع أن يدخل أحدٌ منا إلى معسكره ، يخاف أن يُفسِد عليه جنده ، فخرج ابن ذى الكلاع ، فأرسل إلى سعيد بن قيس الهمدانىّ يستأذنه فى ذلك ، فقال سعيد : إنا لا نمنعك من دخول العسكر ؛ إنّ أمير المؤمنين لا يبالى مَنْ دخل منكم إلى معسكره ؛ فادخل ، فدخل من قبل الميمنة ، فطاف فلم يجدْه ، ثم أتى الميسرة فطاف فلم يجدْه ، ثم وجده وقد ربطت رجله بطُنُب من أطناب بعض فساطيط العسكر ؛ فجاء فوقف على باب الفسطاط ، فقال : السّلام عليكم يا أهل البيت ؛ فقيل له : وعليك السلام ؛ فقال : أتأذنون لنا فى طُنُب من أطناب فُسطاطكم ؟ ومعه عبد أسودُ لم يكن معه غيره . فقالوا : قد أذنّا لكم ، وقالوا له : معذرة إلى الله وإليكم ؛ أما إنه لولا بغيُه علينا[1] ماصنعنا به ماترون ؛ فنزل ابنهُ إليه ، فوجده قد انتفخ ــ وكان من أعظم الناس خَلْقا ــ فلم يطق احتماله ، فقال : هل من فتى معوان ؟ فخرج إليه خِنْدف البكرىّ ؛ فقال : تنحوّا عنه ؛ فقال ابنه : ومَنْ الذى يحمله إذا تنحينا عنه ؟ قال : يحملُه قاتله . فاحتمله خِندف حتى رمى به على ظهر بغل ، ثم شدّه بالحبال ، فانطلقا به[2] .

قال نصر : وقال معاوية لما قتِل ذو الكلاع : لأنا أشدُّ فَرَحًا بقتل ذى الكلاع منّى بفتح مصر لو فتحتُها . قال : لأن ذا الكلاع كان يحجُر على معاوية فى أشياء كان يأمرُ بها .

قال نصر : فلما قتل ذو الكلاع ، اشتدّت الحرب وشدّت عكّ ولَخْم وجُذام ، والأشعريون من أهل الشام على مذحِج من أهل العراق ، جعلهم معاوية بإزائهم ، ونادى منادى عكّ :

---

(١) ب : « على على » .	(٢) صفين : « فانطلقوا »

وبلٌ لأمِّ مَذْحِجٍ مِنْ عكٍّ لَتتْرُكَنْ أمُّهُمُ تُبَكِّى
نقتلهم بالطَّعْنِ ثم الصَّكِّ بكلِّ قِرْنٍ باسلٍ مِصَكٍّ

* فلا رجالَ كرجالِ عكٍّ[1] *

فنادى منادى مَذْحِج : يالَمَذْحِج ! خَدِّموا – أى اضربوا السُّوقَ مواضع الخَدَمَة ، وهى الخلاخيل – فاعترضت مذحِج سوقَ القوم ، فكان فيه بوار عامَّتهم ؛ ونادى منادى جذام حين طحنت رحا القوم ؛ وخاضت الخيل والرجال فى الدماء .

الله الله فى جذام ، ألا تذكرون الأرحام ، أفنيتم لخماً الكرام ، والأشعرين وآل ذى حمام ! أين النُّهى والأحلام ! هذى النساء تبكى الأعلام .

ونادى منادى عكٍّ :

يا عكّ أين المفرّ ، اليوم تعلم ما الخبر ، لأنكم قومٌ صُبُر ، كونوا كمجتمع المدَر ، لا تشمتن بكم مُضَر ، حتى يحولَ ذا الخبر .

ونادى منادى الأشعريين :

يا مذحِج ، مَنْ للنساء غدا إذا أفناكم الرَّدَى ؛ الله الله فى الحرمات ؛ أما تذكرون نساءكم والبنات ؛ أما تذكرون فارس والروم والأتراك ؛ لقد أذن الله فيكم بالهلاك[2] !

قال : والقومُ ينحرُ بعضُهم بعضاً ويتكادَمون بالأفواه .

* * *

قال نصر : وحدَّثنى عمرو بن الزبير : لقد سمعت الحُضَين بن المنذر ، يقول : أعطانى

---

(١) صفين ٣٤٠

(٢) صفين ٣٤٠

علىّ عليه السلام ذلك اليوم راية ربيعة ، وقال : باسم الله سِرْ ياحضَين ، واعلم أنه لاتخفق على رأسك رايةٌ مثلها أبداً ، هذه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فجاء أبو عرفاء جبلة بن عطية الذهلىّ إلى الحضَين ، وقال : هل لك أن تعطينى الراية أحملُها لك ، فيكون لك ذكرُها ، ويكون لى أجرُها ! فقال الحُضَين : وماغناى ياعمّ عن أجرها مع ذِكْرها ! قال : إنه لا غنى بك عن ذلك ، ولكن أعِرْهَا عمّك ساعة ، فما أسرع ما ترجع إليك ! قال الحضَين : فقلت : إنه قد استقتل ، وإنه يريد أن يموت مجاهداً ، فقلت له : خذها فأخذها ، ثم قال لأصحابه : إن عملَ الجنة كَرْه كله وثقيل ، وإن عمل النار خِفٌّ كله وخبيث ، إنّ الجنةَ لايدخلها إلا الصابرون الذين صبروا أنفسهم على فرائض الله وأمره ، وليس شىء مما افترض الله على العباد أشدّ من الجهاد ، هو أفضلُ الأعمال ثواباً عند الله ، فإذا رأيتمونى قد شددتُ فشدّوا ، ويحكم ! أما تشتاقون إلى الجنة ! أما تحبّون أن يغفر الله لكم ! فشدّ وشدوا معه ، فقاتلوا قتالاً شديداً ، فقتل أبو عرفاء رحمه الله تعالى ، وشدت ربيعة بعده شدّة عظيمة على صفوف أهل الشام فنقضتها . وقال مجزأة ابن ثور :

أضربُهمْ ولا أرى معاويهْ ... الأبرجَ العين العظيم الحاويهْ[1]

هوتْ به فى النّار أمّ هاويهْ ... جاوره فيها كلابٌ عاويهْ

أغوى طغَاماً لاهدته هاديهْ

قال نصر : وكان حُريث بن جابر يومئذ نازلاً بين الصَّفّين فى قبة له حمراء ، يسقى أهلَ العراق اللبن والماء والسَّويق ، ويطعمهم اللحم والثريد ، فمن شاء أكل ، ومن شاء شرب ، ففى ذلك يقول شاعرهم :

فلو كانَ بالدَّهنا حُريث بن جابر ... لأصبح بحراً بالمفــــازة جاريا

(١) البرج بفتحتين : سعة العين ؟ والحاوية : المعى .

قلت : هذا حُرَيث بن جابر ؛ هو الذى كتب معاوية إلى زياد فى أمره بعد عام الجماعة ـ وحريث عامل لزياد على همذان ـ أما بعد ؛ فاعزِلْ حريث بن جابر عن عمله ؛ فما ذكرت مواقفه بصفّين إلا كانت حزازةٌ فى صدرى . فكتب إليه زياد : خفّض عليك يا أمير المؤمنين ، فإن حريثا قد بلغ من الشّرف مبلغا لاتزيده الولاية ، ولا ينقصه العزل .

قال نصر : فاضطربَ النّاسُ يومئذ بالسيوف حتى تقطّعت وتكسرت ؛ وصارت كالمناجل؛ وتطاعنوا بالرّماح حتى تقصّفت[1] وتناثرت أسنتُها، ثم جثَوْا على الركب فتحاثوا بالتراب ، يحثُو بعضهم التراب فى وجه بعض؛ ثم تعانقوا وتكادَموا بالأفواه ، ثم تراموْا بالصخر والحجارة . ثم تحاجزُوا ، فكان الرّجلُ من أهل العراق يمرّ على أهل الشام ، فيقول : كيف آخذ إلى رايات بنى فلان ؟ فيقولون: ها هنا لا هداك الله ، ويمرّ الرجل من أهل الشام على أهل العراق، فيقول: كيف آخذ إلى راية بنى فلان؟ فيقولون :هاهنا لا حفظك الله ولا عافاك[2] .

قال نصر : وقال معاوية لعمرو بن العاص : أما ترَى يا أبا عبدالله إلى ما قدْ دفعنا ؛ كيف ترى أهل العراق غدا صانعين ! إنا لبِمعرض خطر عظيم . فقال له : إن أصبحتْ غدا ربيعة وهم متعطّفون حَوْل علىّ عليه السلام تعطُّف الإبل حول فحلها ، لقيت منهم جِلاداً صادقا ، وبأسا شديدا ، وكانت التى لا يُتعزّى[3] لها . فقال معاوية : أيجوز أنك تخوفنا يا أبا عبدالله ! قال: إنّك سألتنى فأجبتك. فلما أصبحوا فى اليوم العاشر أصبحوا وربيعة محدِقة بعلىّ عليه السلام إحداقَ بياض العين بسوادها[4] .

• • •

(١) ا ، ج : « تقصدت » ، وفى صفين : « تكسرت » .
(٢) صفين ٣٤٢ ، ٣٤٣
(٣) ا : « يعرض » .
(٤) صفين ٣٤٤ .

قال نصر : فحدّثني عمرو ، قال : لما أصبح علىّ عليه السلام هذا اليوم ، جاء فوقف بين رايات ربيعة ، فقال عتاب بن لقيط البكرىّ ، من بنى قيس بن ثعلبة : يا معشرَ ربيعة ، حاموا عن علىّ منذ اليوم ؛ فإنْ أُصيبَ فيكم افتضحتُمْ ، ألا ترونه قائما تحت راياتكم ؟ وقال لهم شقيق بن ثور : يا معشرَ ربيعة ، ليس لكم عُذْر عند العرب إن وُصل إلى علىّ وفيكم رجل حىّ ؛ فامنعوه اليوم ، واصدقوا عدوّكم اللقاء ؛ فإنه حمد الحياة تكسبونه . فتعاهدت ربيعة وتحالفتْ بالأيمان العظيمة منها ؛ تبايعَ سبعة آلاف ، على ألا ينظر رجلٌ منهم خلفه حتى يردوا سُرادق معاوية ، فقاتلوا ذلك اليوم قتالا شديدا لم يكنْ قبله مثله ، وأقبلوا نحو سرادق معاوية ، فلما نظر إليهم قد أقبلوا قال :

إذا قلتُ قد ولّتْ ربيعة أقبلَتْ كتائبُ منها كالجبالِ تجالدُ

ثم قال لعمرو : يا عمرو ، ما ترى ؟ قال : أرى ألا تحنَثَ أخوالى اليوم . فقام معاوية وخلّى لهم سرادقه ورحْلَه وخرج فارًّا عنه ؛ لائذا ببعض مضارب العسكر[1] فى أخرَيات الناس فدخله ، وانتهبت ربيعة سرادقه ورحْله ؛ وبعث إلى خالد بن المعمّر : إنكَ قد ظفرت ؛ ولك إمرة خراسان إن لم تُتمّ . فقطع خالد القتال ولم يتمّه ، وقال لربيعة : قد برّت أيمانكم فحسبكم ؛ فلمّا كان عام الجماعة ، وبايع النّاسُ معاوية ، أمّره معاوية على خُراسان ، وبعثه إليها ، فمات قبل أن يبلغَها[2] .

* * *

قال نصر فى حديث عمرو بن شمْر : إنّ عليا عليه السلام صلّى بهم هذا اليوم صلاةَ الغداة ، ثم زحف بهم ؛ فلما أبصروه قد خرج استقبلوه بزُحوفهم ، فاقتتلوا قتالا شديدا . ثم إنّ خيل أهلِ الشام حملت على خيل أهل العراق ، فاقتطعوا من أصحاب علىّ عليه السلام ألفَ رجل أو أكثر ، فأحاطوا بهم ، وحالوا بينهم وبين أصحابهم فلم يروهم ، فنادى

---

(١) ب : « أهل الشام » ، وما أثبته من ١ ، ب ، صفين .
(٢) صفين ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، وهناك : « فمات قبل أن يصل إليها » .

عليّ عليه السلام يومئذ : ألا رجلٌ يشرى نفسَه لله ويبيع دنياه بآخرته ! فأتاه رجلٌ من جُعْف يقال له عبد العزيز بن الحارث، على فَرَس أدهم، كأنه غراب مقنّع في الحديد، لايُرى منه إلا عيناه ، فقال : ياأمير المؤمنين ، مُرْنى بأمرك ، فوالله لاتأمرنى بشىء إلا صنعته ، فقال عليٌّ عليه السلام :

سمحتَ بأمرٍ لايطاق حفيظةً وصدقا وإخوانُ الوفاء قليلُ

جَزَاك إلٰهُ النّاسِ خيراً فإنّه لعمرُك فضلٌ ماهناك جزيلُ[1]

ياأبا الحارث ، شدّ الله ركنك ، احمل على أهل الشام ، حتى تأتىَ أصحابك فتقول لهم : إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السّلام ؛ ويقول لكم : هلّلوا وكبّروا من ناحيتكم، ونهلّل نحن ونكبّر من هاهنا، واحملوا من جانبكم، ونحمل نحن من جانبنا على أهل الشام. فضرب الجعفىّ فرسه ؛ حتى إذا أقامه على أطراف سنابكه، حمل على أهل الشام المحيطين بأصحاب علىّ عليه السلام، فطاعنهم ساعة ، وقاتلهم ، فأفرجوا له حتى خلص إلى أصحابه ؛ فلما رأوه استبشروا به وفرِحوا ، وقالوا : مافعل أمير المؤمنين ؟ قال : صالح ، يقرئكم السلام ويقول لكم : هلّلوا وكبروا واحملوا حملة شديدة من جانبكم ، ونهلّل نحن ونكبّر ونحمل من جانبنا . ففعلوا ماأمرهم به ، وهلّلوا وكبّروا ، وهلّل علىٌّ عليه السلام وكبّر هو وأصحابه، وحمل على أهل الشام وحملوا هُمْ من وَسَط أهل الشام ، فانفرج القومُ عنهم وخرجوا ؛ وما أصيب منهم رجلٌ واحد ؛ ولقد قُتِل من فُرْسان الشام يومئذ زهاء سبعمائة إنسان .

قال علىّ عليه السلام : مَنْ أعظمُ الناس اليوم غناء ؟ فقالوا : أنتَ ياأمير المؤمنين ، فقال : كلّا ، ولكنه الجعفىّ .

---

(١) صفين :

* يداك بفضلٍ ماهناك جزيلِ *

وعلى هذه الرواية يكون فى البيت إقواء .

قال نصر : وكان علىٌّ عليه السلام لا يعدل بربيعة أحدًا من النّاس ، فشقّ ذلك على مُضر ، وأظهروا لهم القبيح ، وأبدَوْا ذات أنفسهم ، فقال الحُضَين بن المنذر الرقاشى شعراً أغضبهم به ، من جملته[1] :

أرَى مُضَرًا صارتْ ربيعةُ دونَها ... شِعارَ أميرِ المؤمنين ، وذا الفضلُ

فأبدَوْا لنا مما تجِنّ صدورهمْ ... هو السوء والبغضاء والحِقْد والغِلّ[2]

فأبلُوا بلانا أو أقِرّوا بفضلِنا ... ولن تلحقونا الدَّهرَ ما حنّت الإبلُ

فقام أبو الطفيل عامر بن واثلة الكنانىّ ، وعمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة التميمىّ ، وقبيصة بن جابر الأسدى ، وعبد الله بن الطّفيل العامرىّ ؛ فى وجوه قبائلهم ، فأتوا عليا عليه السلام ؛ فتكلم أبو الطفيل ، فقال : إنا والله يا أميرَ المؤمنين ما نحسُد[3] قوماً خصّهم الله منك بخير ؛ وإنّ هذا الحىّ من ربيعة قد ظنّوا أنّهم أولَى بك منّا ، فأعفهم عن القتال أياماً ، واجعل لكلّ امرئ منّا يوماً يقاتل فيه ؛ فإنا إذا اجتمعنا اشتبه عليك بلاؤنا . فقال علىّ عليه السلام : نعم أعطيكم ما طلبتم ، وأمر ربيعة أن تكُفّ عن القتال ، وكانت بإزاء اليمن من صُفوف أهل الشام ، فغدا أبو الطفيل عامر بن واثلة فى قومه من كنانة ، وهم جماعةٌ عظيمة ، فتقدّم أمام الخيل ، ويقول : طاعِنوا وضاربوا . ثم حمل ، وارتجز فقال :

قَدْ ضَارَبَتْ فِى حَرْبِها كِنَانَهْ[4] ... واللهُ يجزيهـا بِهِ جِنانَهْ

من أفْرغَ الصَّبْرُ عليه زانَهْ ... أو غَلب الجُبْنُ عليـه شانَهْ

أو كفَّرَ اللهَ فقد أهانَهْ ... غداً يعضّ مَنْ عَصَى بنانَهْ

---

(١) صفين : « فيه » .

(٢) الرواية فى صفين :

فأبدوْا إلينا ما تجِنّ صُدورهُمْ ... علَيْنا من البَغْضا وذاك له أصلُ

(٣) ب : « نجد » ، تصحيف ، وصوابه فى ج وصفين .

(٤) صفين : « قد صابرت » .

فاقتتلوا قتالاً شديداً ؛ ثم انصرف أبو الطُّفيل إلى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنك أنبأتنا أنَّ أشرفَ القتل الشهادة ، وأحظَى الأمر الصبر ، وقد والله صبرنا حتى أصبنا ، فقتيلُنا شهيد، وحيُّنا سعيد[1] ، فليطلُب مَنْ بقى ثأر مَن مضى ؛ فإنّا وإن كنّا قد ذهب صَفْوُنا ، وبقى كدَرُنا ، فإن لنا ديناً لا يميل به الهوى ، ويقيناً لا تزحمه الشبهة . فأثنى علىّ عليه السلام عليه خيرا .

ثم غدَا فى اليوم الثانى عمير بن عطارد بجماعة من بنى تميم — وهو يومئذ سيّد مُضَر الكوفة — فقال ياقوم ، إنى أتبع آثار أبى الطفيل ، فاتبعوا آثار كنانة ، ثم قدّم رايته وارتجز فقال :

قَدْ ضَارَبَتْ فِي حَرْبِها تَمِيمُ ‌ ‌ ‌ إنّ تميماً خطبُهـــــا عظيم[2]
لهــــا حديثٌ ولها قديمُ ‌ ‌ ‌ إنّ الــكريمَ نَسْلُه كريمُ
دين قويم وهوًى سليم ‌ ‌ ‌ إن لم تَزُرْهم رايتى فــلوموا[3]

ثم طعن برايته حتى خضّبها ، وقاتل أصحابه قتالاً شديداً حتى أمسَوْا ، وانصرف عمير إلى علىّ عليه السلام ، وعليه سلاحه ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، قد كان ظنّى بالناس حسنا ، وقد رأيتُ منهم فوقَ ظنّى بهم ؛ قاتلوا من كلّ جهة ، وبلغوا من عدوّهم جَهْدَ عدوّهم ، وهم لهم إن شاء الله .

ثم غدا فى اليوم الثالث قبيصة بن جابر الأسدىّ فى بنى أسد ، وقال لأصحابه : يابنى أسد ، أمّا أنا فلا أقصّر دون صاحبيّ ، وأمّا أنتم فذاك إليكم، ثم تقدّم برايته ، وقال :

قَدْ حَافَظَتْ فى حربها بنو أسَدْ ‌ ‌ ‌ مامثلُها تحتَ العَجاج من أحَدْ

---

(١) صفين : « ثائر » .
(٢) ب : « خطبها » ؛ وما أثبته من ا ، ج ، وصفين .
(٣) صفين : « إن لم تزرهم » .

أقربُ منْ يُمْنٍ وأنأى من نَكَدْ ... كأنَّنا رُكنا ثَبيرٍ أو أُحُدْ

لسنا بأوباشٍ ولا بيضِ البلد ... لكنَّنا المحَّة من وُلْد مَعَدّ[1]

فقاتل القوم إلى أن دخل الليلُ، ثم انصرفوا.

ثم غدا في اليوم الرابع عبدالله بن الطُّفيل العامريّ في جماعة هوازن، فحاربهم حتى الليل ثم انصرفوا.

قال نصر: فانتصفوا المضرية من الربعيّة، وظهر أثرها وعرف بلاؤها، وقال أبو الطُّفيل:

وحامتْ كِنانة في حَرْبها ... وحامت تميم وحامتْ أسَدْ

وحامتْ هوازنُ يومَ اللقا ... فما خامَ منَّا ومنْهم أحَدْ

لقينا الفوارس يوم الخميس والعيدِ والسَّبت ثم الأحَدْ

لقينا قبائل أنسابهمْ ... إلى حضرموت وأهل الجَنَدْ[2]

فأمدادُهم خلف آذانِهمْ ... وليس لنا من سوانا مَدَدْ

فلما تنادوا بآبائهمْ ... دعَوْنا مَعَدّا ونِعم المعَدّ

فظلْنا نُفلِّق هاماتِهمْ ... ولم نكُ فيها ببيض البَلَدْ

ونِعْمَ الفوارسُ يومَ اللقا ... فقلٌ في عديدٍ، وقلٌ في عَدَدْ

وقل في طِعانٍ كفَرْغ الدلاء ... وضربٍ عظيم كنارِ الوَقَدْ[3]

ولكن عصَفْنا بهم عَصْفةً ... وفي الحرب يُمْنٌ وفيها نَكَدْ

طحَنّا الفوارسَ وسْطَ العَجاجِ ... وسُقْنا الزعانفَ سَوْقَ النَّقَدْ[4]

---

(١) المحة: الشيء الخالص، وبعده في صفين.

كنتَ ترانا في العجاج كالأسدْ ... ياليتَ رُوحِي قد نأى عن الجسَدْ

(٢) الجند: إحدى الولايات بأرض اليمن.

(٣) الفرغ: جمع فراغ؛ وهو مصب الدلو؛ وسكنت الراء لضرورة الشعر.

(٤) الزعانف: الجماعات؛ والنقد هنا: الغنم

وقلنا عليٌّ لنا والدٌ ونحنُ له طاعـــةٌ كالولدْ(١)

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، عن الأشعث بن سُوَيد ، عن كُردوس ، قال : كتب عُقبة بن مسعود عاملُ عليّ على الكوفة إلى سليمان بن صُرَد الخزاعيّ ؛ وهو مع عليّ بصِفّين :

أما بعد ؛ فإنهم ﴿ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾(٢) ؛ فعليكَ بالجهاد والصّبْر مع أمير المؤمنين . والسلام(٣) .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن سعد وعمرو بن شَمِر ، عن جابر عن أبي جعفر ؛ قال : قام عليٌّ عليه السلام فخطب الناس بصِفّين ، فقال :

الحمدُ لله على نِعَمِه الفاضلة على جميع مَنْ خَلَق ؛ من البَرّ والفاجر ، وعلى حُجَجِه البالغة على خَلْقِه مَنْ أطاعه فيهم ومَنْ عصاه ؛ إن يرحَمْ(٤) فبفضله ومَنّه ، وإن عذّب فبما كسبت أيديهم ؛ وإن الله ليس بظلّامٍ للعبيد .

أحمَدُه على حُسْنِ البلاء ، وتظاهر النَّعماء ؛ وأستعينه على مانابنا من أمرِ الدنيا والآخرة ؛ وأتوكّل عليه وكفى بالله وكيلا . ثم إني أشهد(٥) أن لا إله إلا الله وحدَه لاشريك له ، وأشهدُ أنّ محمداً عبده ورسوله ؛ أرسلَه بالهدى ودين الحقّ ؛ ارتضاه لذلك ، وكان أهلَه ؛ واصطفاه لتبليغ رسالته ، وجعلَه رحمةً منه على خَلْقِه ؛ فكان علمُه(٦) فيه رءوفاً

(١) صفين ٣٥٢ ، ٣٥٤
(٢) سورة الكهف ٢٠
(٣) صفين ٣٥٤ : « والسلام عليك » .
(٤) صفين : « رحم » .
(٥) صفين : « وأشهد » .
(٦) صفين : « كعلمه »

رحيماً ، أكرم خلق الله حسباً ، وأجلهم[١] منظراً ، وأسخاهم نفساً ، وأبرّهم لوالد ، وأوصلهم لرحم ؛ وأفضلهم علماً ، وأثقلهم حلماً ، وأوفاهم لعهد ، وآمنهم على عقد ؛ لم يتعلق عليه مسلم ولا كافر بمظلمة قطّ ، بل كان يظلم فيغفر ، ويقدر فيصفح ؛ حتى مضى صلى الله عليه وسلم مطيعاً لله ، صابراً على ما أصابه ، مجاهداً فى الله حقّ جهاده ؛ حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم ، فكان ذهابه أعظمَ المصيبة على أهل الأرض : البرّ والفاجر ؛ ثم ترك فيكم كتابَ الله يأمركم بطاعة الله ، وينهاكم عن معصيته ؛ وقد عهد إلىّ رسولُ الله عهداً فلستُ أحيدُ عنه ؛ وقد حضَرتُم عدُوَّكم ، وعلمتم أنّ[٢] رئيسهم منافق ، يدعوهم إلى النار ؛ وابن عمّ نبيكم معكم ؛ وبين أظهركم ؛ يدعوكم إلى الجنّة وإلى طاعة ربّكم ، والعملِ بسنّة نبيكم ؛ ولا سواء مَنْ صلّى قبلَ كلِّ ذَكَر ؛ لم يسبقنى بصلاةٍ مع رسول الله أحدٌ ، وأنا من أهل بدر ، ومعاوية طليق [وابن طليق] [٣]. والله إنّا على الحقّ وإنهم على الباطل ؛ فلا [٤] يجتمعُنّ على باطلهم وتتفرقوا عن حقّكم [٤] حتى يغلبَ باطلُهم حقّكم ؛ ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [٥] ، فإن لم تفعلوا يعذّبهم بأيدى غيركم .

فقام[٦] أصحابُه ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ؛ انهَضْ بنا إلى عدُوّنا وعدوّك إذا شئت ؛ فوالله ما نريدُ بك بدلًا ؛ بل نموت معَك ، ونحيا معك . فقال لهم : والذى نفسى بيده ، لنظَرَ إلىّ النبى صلى الله وسلم ، أضربُ بين[٧] يديه بسيفى هذا ، فقال : « لا سيف إلا ذُو الفقار ولا فتى إلا علىّ » ، وقال لى : « ياعلىّ ، أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى ،

---

(١) صفين : « وأجله » ، وكذلك سائر الضمائر إلى : « وآمنهم على عقد » .
(٢) صفين : « من رئيسهم » .
(٣) من صفين
(٤ ـ ٤) صفين : « فلا يكونن القوم على باطلهم اجتمعوا عليه ، وتفرقون عن حقكم » .
(٥) سورة التوبة ١٤
(٦) صفين : « فأجابه أصحابه » .
(٧) صفين : « قدامه » .

وموتك وحياتك يا علىّ معى » ؛ والله ما كَذَب ولا كُذِبْتُ ، ولا ضلّ ولا ضللت ، ولا ضلّ بى ، ولا نسيت ما عهِدَ إلىّ ، وإنّى على بيّنة من ربّى وعلى الطريق الواضح ؛ ألقطه لقْطًا .

ثم نهض إلى القوم ؛ فاقتتلوا مِنْ حين طلعتِ الشمس حتى غاب الشفق الأحمر ، وما كانت صلاة القوم فى ذلك اليوم إلا تكبيراً[1] .

* * *

قال : وحدّثنا عمرو بن شمِر ، عن جابر ، عن الشعبىّ ، عن صعصعة بن صُوحان ، قال : برزَ فى بعض أيام صفّين رجل مِن حِمْيَر ، من آل ذِى يَزَن ، اسمه كُرَيب[2] بن الصباح ، ليس فى الشام يومئذ رجلٌ أشهر بالبأس والنّجْدة منه ، فنادَى : مَنْ يبارز ؟ فخرج إليه المرتفع بن الوضّاح الزبيدىّ ، فقتله ، ثم نادى : مَنْ يُبارز ؟ فخرج إليه الحارث ابن الجلاح ، فقتله ، ثم نادى : مَنْ يبارز ؟ فخرج إليه عابد[3] بن مسروق الهمْدانىّ فقتله ، ثم رمى بأجسادهم بعضَها فوق بعض ؛ وقام عليها بغياً واعتداء ، ونادى : مَنْ يبارز ؟ فخرج إليه علىّ ، وناداه : ويحك يا كُرَيب ! إنى أحذِّرك الله وبأسَه ونِقْمته ، وأدعوك إلى سنّة الله وسنّة رسوله ، ويحك ! لا يُدخِلَنّك معاوية النّار ؛ فكان جوابُه له أن قال : ما أكثرَ ما قد سمعت مِنك هذه المقالة ! ولا حاجة لنا فيها ، أقدِمْ إذا شئت ؛ مَنْ يشترى سيفى وهذا أثره ؟ فقال علىّ : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم مشى إليه فلم يمهلْه أن ضربه ضَرْبَةً خرّ منها قتيلا يتشحّط[4] فى دمه ، ثم نادى : مَنْ يبرز ؟ فبرز إليه الحارث ابن وداعة الحِميرىّ ، فقتله ، ثم نادى : مَنْ يبرُز ؟ فبرز إليه المطاع بن مطّلب العنسىّ[5] ،

(١) صفين ٣٠٥ ، ٣٠٦

(٢) فى الأصول : « كريث » ، وما أثبته من صفين .

(٣) صفين : « عائذ »

(٤) يشحط ، بالبناء للمجهول : يتضرج بالدم ؛ وفى صفين : « يتشحط » .

(٥) صفين : « القينى » .

فقتله ، ثم نادى : مَنْ يبرز ! فلم يبرز إليه أحدٌ ، فنادى : [يا معشر المسلمين][1] ، ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[2] ، ويحك يا معاوية ! هلّم إلىّ فبارزْنى ؛ ولا يُقتَلَنّ الناسُ فيما بيننا . فقال عمرو بن العاص : اغتنمْه منتهزا ؛ قد قَتَل ثلاثة من[3] أبطال العرب وإنى أطمعُ أن يُظفِرَك الله به ، فقال معاوية : والله لَن تريد إلا أن أُقتَلَ فتصيبَ الخلافة بعدى ؛ اذهب ، إليك عنّى ، فليس مثلى يُخْدَع[4] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، قال : حدّثنا خالد بن عبد الواحد الجريرى[5] قال : حدّثنى مَنْ سمع عمْرو بن العاص قبل الوقعة العظمى بصِفّين ، وهو يحرّض أهل الشام ؛ وقد كان منحنياً على قوس ، فقال :

الحمدُ لله العظيم فى شأنِه ؛ القوىّ فى سلطانه ، العلىّ فى مكانه ، الواضح فى بُرْهانِه ، أحمَده على حُسْن البلاء ، وتظاهر النعماء ؛ فى كلّ رزيةٍ[6] من بلاء ، أو شِدّةٍ أو رخاء ؛ وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لاشريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ؛ ثم إنّا نحتسِب عندَ الله ربّ العالمين ما أصبحَ فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من اشتعال نيرانها ، واضطراب حَبْلها ، ووقوع بأسها بينها ، فإنالله وإنا إليه راجعون ؛ والحمد لله ربّ العالمين ! أوَ لا تعلمون أنّ صلاتَنا وصلاتَهم ، وصيامَنا وصيامَهم ، وحجّنا وحجّهم ، وقتلنا وقتلهم ،

---

(١) من صفين .
(٢) سورة البقرة ١٩٤
(٣) ساقطة من ب
٤ صفين ٣٥٦ ـ ٣٥٨
(٥) فى صفين : « الجزرى » ، وفى ج : « الحريرى » .
(٦) صفين : « لزبة » .

ودينَنا ودينَهم واحد؛ ولـكنّ الأهواء مختلفة[1]؛ اللهم أصلِحْ هـذه الأمة بما أصلحتَ به أوّلها ، واحفَظْ[2] فيما بينها ؛ مع أن القوم قدوَطِئوا بلادكم ، وبَغَوْا عليـكم ، فجِدّوا في قتالِ عَدُوّكم ، واستعينوا بالله ربِّكم ؛ وحافظوا على حُرُماتـكم . ثم جلس .

قال نصر : وخطب عبدالله بن العباس أهلَ العراق ، يومئذ فقال :

الحمدُ لله ربّ العالمين ؛ الذى دَحا تحتَنا سَبْعا ، وسَمَك[3] دوقنا سَبْعا ، وخلَق فيما بينهنّ خَلْقاً ؛ وأنزل لنا مِنْهنّ رزقاً ، ثم جعل كلّ شيء قدراً يبلى ويفنى غير وجهه الحيّ القيوم ، الذى يحيا ويبقى . إن الله تعالى بعث أنبياء ورُسُلًا ؛ فجعلهم حججاً على عباده،عُذْراً أوْ نُذْرا ، لايطاع إلا بعلمه وإذنه ، يمنّ بالطاعة على مَنْ يشاء من عباده ، ثم يُثيب عليها ، ويُعْصَى بعلم منه ، فيعفو ويغفر بحلمه ، لا يقدّرْ قدرُه، ولا يَبْلُغ شيء مكانه ، أحصى كلّ شيء عددا، وأحاط بكلّ شيء علما . وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له ، وأشهدُ أنّ محمدا عبده ورسوله ، إمامُ الهدى ، والنبيّ المصطفى ؛ وقد ساقنا قَدَرُ الله إلى ماترون ، حتى كان مما اضطرب من حَبْلِ هذه الأمـة ، وانتشر من أمرها ، أنّ معـاوية بن أبي سفيان[4] ، وَجَدَ مِنْ طغام الناس أعوانا، على عليّ ابن عم رسول الله وصهره، وأوّل ذَكَرٍ صلّى معه ، بَدْرِيّ، قد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كلّ مشاهده التي فيها الفضلُ ومعاوية مشركٌ ، كان يعبد الأصنام ، والذى مَلكَ المُلْك وحدَه ، وبان به وكان أهله[5] ، لقد قاتَل عليّ بن أبي طالب مع رسول الله ، وهو يقول : صدَق الله ورسوله ، ومعاوية يقول : كَذَب الله ورسوله ، فعليكم بتقوَى الله ، والجِدّ والحزْم والصبر ، والله إنّا لنعلمُ

---

(١) صفين : « متشتتة » .

(٢) صفين : « واحفظ فيما بينها » .

(٣) سمك : رفع .

(٤) صفين : « ابن آكلة الأكباد » .

(٥ـ٥) صفين : « ومعاوية وأبو سفيان مشركان يعبدان الأصنام ، واعلموا والله الذى ملك الملك وحده ، فبان به وكان أهله » .

إنكم لَعلَى حقّ ، وإنّ القومَ لَعلَى باطل ، فلا يكونُنّ أوْلَى بالجِدّ على باطلهم منكم في حقّكم، وإنّا لنعلمُ أنّ الله سيعذّبهم بأيديكم أو بأيدي غيركم ، اللهم أعِنّا ولا تخذُلنا ؛ وانصرنا على عَدُوّنا ، ولا تَحل [١] عنّا ؛ وافتح بيننا وبين قومنا بالحقّ ، وأنت خير الفاتحين [٢] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو ؛ قال : حدّثنا عبد الرحمن بن جُندب ، عن جندب بن عبدالله ، قال : قام عمّار يوم صفين ، فقال : انهضُوا [٣] مَعِي عبادَ الله ، إلى قوم يزعمون أنّهم يطلبُون بدم ظالم ؛ إنما قتله الصالحون المنكِرون للعُدْوان ، الآمرون بالإحسان، فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم ولو دَرَس هذا الدين : لِمَ قتلتموه ؟ فقلنا : لإحداثه ، فقالوا إنه لم يُحدِث شيئا؛ وذلك لأنه مكّنهم من الدنيا ، فهم يأكلونها ويرْعَونها ، ولا يبالون لو انهدمت [٤] الجبال . والله ماأظنّهم يطلبُون بدم [٥]، ولكنّ القوم ذاقُوا الدنيا فاستحلَوها [٦] ،واستمرءوها ، وعلِموا أنّ صاحبَ الحق لو وليَهم لحال بينهم وبين ما يأكلون ويرعون منها .

إنّ القوم لم يكُن لهم سابقة في الإسلام يستحقّون بها الطاعة والولاية،فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قُتِل إمامُنا مظلوما ؛ ليكونوا بذلك جبابرةً وملوكا ؛ تلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون ، ولولاها ما بايعهم من النّاس رجل [٧]؛ اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت،وإن تجعل

---

(١) صفين : « ولا تخل عنا » .

(٢) صفين ٣٥٩ ، ٣٦٠

(٣) صفين : « امضوا » .

(٤) صفين : « لو انهدت » .

(٥) صفين : « بدمه » .

(٦) صفين : « فاستحلوها » .

(٧) صفين : « رجلان » .

لهم الأمر فادّخر لهم بما أحدثوا لعبادك العذاب الأليم .

ثم مضى ، ومضى معه أصحابه،فدنا من عمرو بن العاص،فقال : ياعمرو ، بعت دينك بمصر ، فتبًّا لك ! وطالما بَغَيْت للإسلام عِوَجا [1] .

ثم قال : اللهم إنك تعلم أنّى لو أعلم أنّ رضاك فى أنْ أقذِف بنفسى فى هذا البحْر لفعلت . اللهم إنك تعلم أنى لو أعلمُ أنّ رضاك أنْ أضع ظُبَة سيفى فى بطْنى ثم أنحنِى عليه حتى يخرج من ظَهْرى لفعلت ؛ اللهم إنى أعلم مما علّمتنى أنّى لا أعمل عملا صالحاً هـذا اليوم ، هو أرضى من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم اليوم عملا هو أرضى لك منه لفعلته [2] .

* * *

قال نصر : وحدّثنى عمرو بن سعيد، عن الشعبىّ،قال : نادى عمّار عبدَالله بن عمرو ابن العاص ، فقال له : بعتَ دينكَ بالدنيا من عدوّ الله ، وعدوّ الإسلام معاوية ، وطلبت هوَى أبيكَ الفاسق ، فقال : لا ، ولـكنّى أطلبُ بدم عثمان الشهيد المظلوم، قال : كلّا ، أشهد على علمى فيك أنّك أصبحتَ لاتطلبُ بشىء من فعلك وجهَ الله،وأنك إن لم تُقتل

---

(١) فى صفين بعدها : ثم حمل عمار وهو يقول :

صَدَقَ اللهُ وَهوَ لِلصِّدْقِ أهلٌ ... وتعالى رَبّى وكان جليلا

رَبِّ عَجِّــل شهادَةً لى بقتلٍ ... فى الذى قد أحبّ قتلا جميلا

مقبلًا غــير مدبرٍ إنّ لِلقتــلِ عَلَى كلّ ميتَــةٍ تفضيلَا

إنّهُمْ عِندَ رَبّهمْ فى جنــانٍ ... يَشْرَبُون الرّحيق والسَّلْسَبيلَا

مِنْ شرابِ الأبرار خالطه المسكُ وكأساً مزاجُهــا زنجبيلَا

(٢) صفين ٣٦١ ـ ٣٦٣

اليوم فستموت غدا ، فانظر إذا أعطى الله العباد على نيّاتهم ، ما نيّتك !

* * *

وروى ابن ديزيل فى كتاب صِفّين ، عن صيف الضّبىّ ، قال : سمعت الصّعب بن حكيم ابن شريك بن نملة المحاربىّ يروى عن أبيه عن جدّه شريك ، قال : كان النّاس من أهل العراق وأهل الشام يقتتلون أيام صِفّين ، ويتزايلون ، فلا يستطيع الرجلُ أن يرجع إلى مكانه حتى يُسْفِر الغبار عنه ، فاقتتلوا يوماً ، وتزايلوا وأسفر الغبار ، فإذا علىٌّ تحت رايتنا — يعنى بنى محارب — فقال : هل من ماء ؟ فأتيته بإداوة فخنثتُها له ليشرب ، فقال : لا إنّا نُهينا أن نشربَ من أفواه الأسقية . ثم علّق سيفه وإنه لمخضّب بالدم من ظُبته إلى قائمه ، فصببت له على يديه فغسلهما حتى أنقاهما ، ثم شرب بيديه حتى إذا رَوِى رفع رأسه ، ثم قال : أين مضر ؟ فقلت : أنت فيهم يا أمير المؤمنين ، فقال : مَنْ أنتم بارك الله فيكم؟ فقلنا: نحن بنو محارب ، فعرفَ موقفه ، ثم رجع إلى موضعه .

قلت : خنثتُ الإداوة ، إذا ثنيتَ فاها إلى خارج ، وإنما نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن اختناث الأسقية ، لأنّ رجلا اختنثَ سقاء فشرب ، فدخل إلى جوفه حيّة كانت فى السقاء .

قال ابن ديزيل : وروى إسماعيل بن أبى أويس ، قال : حدّثنى عبدالملك بن قُدامة ابن إبراهيم بن حاطب الجُمحىّ ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدّه عبدالله بن عمرو ابن العاص ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف بك يا عبد الله إذا بقيتَ فى حُثالة من الناس ، قد مَرِجت عهودهم ومواثيقهم ، وكانوا هكذا ؟ وخالف بين أصابعه . فقلت : تأمرنى بأمرك يا رسول الله ، قال : تأخذُ مما تعرف ، وتدع ما تنكر ، وتعمل بخاصّة نفسك ، وتدع الناس وهوامّ أمرهم .

قال : فلما كان يوم صفين ، قال له أبوه عمرو بن العاص : يا عبدالله ، اخرُج فقاتل ، فقال :

يا أبتاه ، أتأمرنى أن أخرج فأقاتل ، وقد سمعت ما سمعت يوم عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عهد ! فقال : أنشُدُك الله ياعبد الله ، ألم يكن آخر ما عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أخذ بيدك ، فوضعها فى يدى ، فقال : أطع أباك ! فقال : اللهمّ بلى ؛ قال : فإنى أعزم عليك أن تخرُج فتقاتل ؛ فخرج عبد الله بن عمرو فقاتل يومئذ متقلّدًا سيفين . قال : وإن من شعر عبد الله بن عمرو بعد ذلك يذكر عليا بصفين :

فلو شهدتْ جُملُ مقامِى ومشهدِى ... بصفّين يوماً شابَ منها الذوائبُ
عشيّةَ جا أهلُ العراق كأنهمْ ... سحابُ ربيعٍ رفّعته الجنائبُ
إذا قلت قد ولّت يسرًا عابدتْ لنا ... كتائبُ منهم وارجحنّتْ كتائبُ
وجثامُ فرادَى كأنّ صفوفنا ... من البحر مدٌّ موجه متراكب[1]
فدارتْ رَحانا واستدارتْ رحاهمُ ... سَرَاةَ النهار ماتولّى المناكبُ
فقالوا لنا : إنّا نرى أن تُبايعوا ... فقلنا بلى إنا نرى أن تضاربوا

* * *

وروى ابن ديزيل ، عن يحيى بن سليمان الجعفىّ ، قال : حدثنا مسهر بن عبد الملك ابن سلع الهمدانىّ ، قال : حدثنى أبى عن عبد خير الهمدانىّ ، قال : كنت أنا وعبدُ خير فى سفَر ، قلت : ياأبا عمارة ، حدّثنى عن بعض ما كنتم فيه بصِفّين ، فقال لى : يابن أخى ، وماسؤالك؟ قلت : أحببتُ أن أسمعَ منك شيئاً ، فقال : يابن أخى ؛ إنا كنا لنصلّى الفجر ، فنصفّ ويصفّ أهل الشام ، ونُشرِع الرماح إليهم ويشرعون بها نحونا ، أما لو دخلت تحتها لأظلّتك ؛ والله يابن أخى ، إنا كنا لنقِف ويقفُون فى الحرب لانفتر ولا يفترون ، حتى نصلّىَ

(١) كذا وزن هذا البيت وما بعده فى الأصول .

العشاء الآخرة ؛ مايعرف الرجلُ منا طولَ ذلك اليوم مَن عن يمينه ولا مَن عن يساره، من شدّة الظلمة والنقْع إلا بقَرْع الحديد بعضه على بعض ، فيبرزُ منه شُعاع كشعاع الشمس ، فيعرف الرجلُ مَنْ عن يمينه ومَنْ عن يساره ؛ حتى إذا صلينا العشاء الآخرة جرّرنا قتلانا إلينا فتوسّدْناهُمْ حتى نصبح ، وجرّوا قتلاهم فتوسدوهم حتى يُصبحوا . قال : قلت له ياأبا عمارة ، هذا والله الصّبر .

* * *

وروى ابن ديزيل ، قال : كان عمرو بن العاص إذا مرّ عليه رجلٌ من أصحاب علىّ فسأل عنه ، فأخبر به ، فقال : يرى علىّ ومعاوية أنهما بريئان من دم هذا .

قال ابن ديزيل : وروى ابنُ وهب ، عن مالك بن أنس ، قال : جلس عمرو ابن العاص بصِفِّين فى رواق ــ وكان أهلُ العراق يدفنون قتلاهم ، وأهل الشام يحملون قتلاهم فى العَباء والأكسية يحملونهم فيها إلى مدافنهم ــ فكلّما مُرّ عليه برجل ، قال : مَنْ هذا ؟ فيقال : فلان ، فقال عمرو : كم من رجل أحسنَ فى الله ، عظيم الحال لم ينجُ من قتله فلان وفلان ! قال : يعنى عليا ومعاوية .

قلت : ليت شعرى ! لِمَ برّأ نفسَه ، وكان رأساً فى الفتنة ! بل لولاه لم تكن؛ ولكن الله تعالى أنطقَه بهذا الكلام وأشباهه ؛ ليظهر بذلك شكّه ، وأنه لم يكن على بصيرة من أمره .

* * *

وروى نصر بن مزاحم ، قال : حدثنى يحيى بن يعلى ، قال : حدثنى صباح المُزَنىّ ، عن الحارث بن حصن ، عن زيد بن أبى رجاء ، عن أسماء بن حكيم الفزارىّ ، قال : كنا بصِفّين مع علىّ ، تحت راية عمّار بن ياسر ، ارتفاع الضحى ، وقد استظللْنا برداء أحمر ؛ إذ أقبلَ رجل يستقرى الصفّ حتى انتهى إلينا ، فقال : أيّكم عمار بن ياسر؟فقال عمار : أنا عمّار ، قال : أبو اليقظان ؟ قال : نعم ، قال : إنّ لى إليك حاجة أفأنطقُ بها

سرا أو علانية ؟ قال : اخترْ لنفسك ، أيُّهما شئت ، قال : لا بل علانية ، قال : فانطق ، قال : إنّى خرجتُ من أهلي مستبصراً فى الحقّ الذى نحن عليه ؛ لاأشكُّ فى ضلالة هؤلاء القوم ، وأنّهم على الباطل ، فلم أزلْ على ذلك مستبصرا ، حتى ليلتِي هـذه ، فإنى رأيتُ فى منامى منادياً تقدّم ، فأذّن وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونادى[1] بالصّلاة ، ونادى مناديهم مثل ذلك ، ثم أقيمت الصلاة ؛ فصلّينا صلاةً واحدةً ، وتلونا كتاباً واحدا ، ودعونا دعوةً واحدة ، فأدركنى الشكّ فى ليلتى هذه ، فبتّ بليلة لايعلمُها إلا الله تعالى ، حتى أصبحتُ ، فأتيتُ أميرَ المؤمنين ، فذكرت ذلك له فقال : هل لقيت عمار بن ياسر ؟ قلت : لا ، فالقه ، فانظر ماذا يقول لك عمار فاتّبعه ، فجئتك لذلك ؛ فقال عمار : تعرف صاحبَ الراية السوداء المقابلة[2] لى ؟ فإنّها راية عمرو ابن العاص ، قاتلتُها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، وهـذه الرابعة فماهيَ بخيرهن ، ولا أبرّهن ؛ بل هى شرّهن وأفجرهُنّ . أشهدت بدرا وأحداً ويوم[3] حُنين، أو شهدها أبٌ لك فيخبرك عنها ؟ قال : لا ، قال : فإن مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين ، وإنّ مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب ، فهل ترى هـذا العسكر ومَنْ فيه؟ والله لوددت أن جميعَ مَنْ فيه ممن أقبل مع معاوية يريد قتالنا ، مفارقا للذى نحن عليـه كانوا خَلْقاً واحدا ، فقطّعته وذبحته . والله لدماؤهم جميعاأحلّ مِنْ دم عصفور ، أفترى دم عصفور حراما ؟ قال : لا بل حـلال ؛ قال : فإنهم حلال كذلك ، أترانى بيّنت لك ؟ قال : قد بيّنتَ لى ، قال : فاختر أيّ ذلك أحببت .

---

[1] صفين : « فنادى » .

(٢) صفين : « المقابلى » .

(٣) صفين : « وخيلنا » .

فانصرف الرجلُ، فدعاه عمّار ثم قال : أما إنهم سيضربونكم بأسيافهم[1] حتى يرتاب المبطلون منكم ، فيقولوا : لو لم يكونوا على حقّ ما أظهروا علينا ؛ والله ماهم من الحق على مايقذى عين ذباب ؛ والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سَعَفات هَجَر[2] لعلمنا أنا على حقّ ، وأنّهم على باطل[3] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا يحيى بن يعلى، عن الأصبغ بن نباتة، قال : جاء رجلٌ إلى علىّ، فقال : ياأمير المؤمنين ، هؤلاء القوم الذين نقاتلهم ؛ الدعوة واحدة ، والرسول واحد ، والصلاة واحدة ، والحجّ واحد فاذا نسميهم ؟ قال : سمّهم بما سماهم الله فى كتابه ، قال : ما كلّ مافى الكتاب أعلمه ، قال : أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾[4] ! فلما وقع الاختلاف ، كنّا نحن أولى بالله وبالكتاب وبالنبىّ وبالحقّ ، فنحن الذين آمنوا وهم الذين كفروا ، وشاء الله قتالهم؛ فقاتلهم بمشيئته وإرادته .

* * *

هذا آخر الجزء الخامس من شرح نهج البلاغة والحمد لله وحده[5]

---

(١) صفين : « أما إنهم سيضربوننا بأسيافهم » .

(٢) إنما خص هجر ؛ للمباعده فى المسافة ؛ ولأنها موصوفة بكثرة النخيل . انظر اللسان ١١ : ٢٠٥

(٣) صفين ٣٦٣ ، ٣٦٤ . وبقية حديث عمار هناك : « وايم الله لايكون سلماسالما أبداً ؛ حتى يبوء أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين ؛ وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنهم على الحق ؛ وأن قتلاهم فى الجنة وموتاهم ولاينصرم أيام الدنيا حتى يشهدوا بأن موتاهم وقتلاهم فى الجنة ؛ وأن موتى أعدائهم وقتلاهم فى النار ؛ وكان أحياؤهم على الباطل » .

(٤) سورة البقرة ٢٥٣

(٥) هذه خاتمة الجزء كما فى ا ، وفى ب : « وهذا آخر الجزء الخامس من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المعتزلى ، ويتلوه الجزء السادس إن شاء الله تعالى الله وتقدس » . وفى ج : « وهذا آخر الجزء الخامس من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، ويتلوه الجزء السادس إن شاء الله تعالى » .

فهرس الموضوعات [1]

(١) وهى الموضوعات التى وردت أثناء شرح نهج البلاغة .
(٢) انظر ماسلف من أخبارهم فى الجزء الرابع .

فهرس الخطب*

(*) وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .